

२०१-२००

وَرِيقٌ مَقْسُومٌ مِيزَةً دَرِيًّا وَوَاحِدًا وَفِيهِ مَا قَارَوْهُ بِمَا كَانَ مِنْ مَقَادِمِ بَيْتِ الدَّرِيَّا قَابَ تَعْرِفَاتِ الْأَدَبِيَّةِ فِيهِ **وَقَالَ** لَوْ أَنَّ بَيْتَ الدَّرِيَّا كَانَ يَتَكَلَّمُ لَكُنَّا لَفِي مَقْدَامِ الدَّرِيَّا وَالْعَالَمِ الْأَفَنِيِّ فِيهِ هَوَاتِكُ أَنْسَابٍ عَلَى غَيْرِ تَجَرُّبٍ وَإِنْ كَانَتْ تَجَرُّبُهُ **وَهَذَا** الْكَلَامُ بِلَفْظِهِ فَالْكَلامُ الْخَبْرَةُ الْأَوَّلَةُ أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ صِبْيَانِ الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِبُورِ نَوْسٍ خَرَاتُونٌ تَحْكُمُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرْعِ وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَوْضِعِ زُهًا فَوَسَّيْتُ وَكُنْتُ أَبْكُرُ أَنْ أَلْقِيَاعَ خَيْرًا أَنْظُرَ مَا يَعْلَمُونَ وَأَرْجُو أَنِّي أَجِدُ لَهُمْ مَعِيَ عَلَى الذَّيَاةِ الَّتِي تَحْتَ الْعِلَامِ زَادًا أَوْ شَرًّا بِالْجِيلِ أَنْفُسَهُمْ وَيَجْعَلُهُ عَلَى الْعِلْمِ **فَإِذَا** كُنْتُ لَكَ إِلَى أَنْ حَمَلْتُ لَهُمْ يَوْمًا **فَإِذَا** أَرَعُوا

A detail from a manuscript showing a large, ornate initial 'L' in blue ink, decorated with intricate floral and foliate patterns in gold and red. The text is written in a cursive script.



حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

حورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإقليمية والبيزنطية وأوروبا العصور الوسطى

المجلد الأول

الجزء الأول: القسم العربي

٢٠٠٠-٢٠٠١

يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، قسم التاريخ، كلية الآداب،

جامعة عين شمس، القاهرة، مصر. ص.ب. ١١٥٦٦

النشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٢ ش إسلام، حمامات لقبة، القاهرة

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوروبا العصور الوسطى
يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس
القاهرة ، مصر. ص.ب. ١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٢٨٥٤٠٧٩ ، بريد الكتروني:
amrtar_eg@yahoo.co.uk

المشرف العام : أ.د./ رأفت عبد الحميد

رئيس التحرير : أ.د./ أحمد عبد الرازق

الأعضاء : أ.د./ اسحق عبيد

أ.د./ محمود إسماعيل

د./ طارق منصور

سكرتير الحولية: أ./ عبد العزيز رمضان

- ترسل البحوث على العنوان السابق ذكره شريطة ألا تكون قد سبق نشرها في مكان آخر من
قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM، Word 7.0، حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسي فونت ١٨ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٦ أسود

الخط Traditional Arabic، فونت ١٤

الهوامش فونت ١٠

المسافة بين السطور متعدد ٩، للنص ، تام للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين

٤,٢٥ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسي فونت ١٤ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود

الخط New Times Roman، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد ٩، للنص، تام للهوامش
مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥،
يمين ٤,٢٥ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام.
- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

المحتويات

- المشاركون في العدد..... هـ
- كلمة العدد..... و - ط

الجزء الأول: القسم العربي

أولاً: البحوث العربية

- أحمد الطاهري، من بواكير النظام العقاري في الغرب الإسلامي، وضعية الأرض في بلاد نكور..... ٢ - ٩
- بوبه مجاني، الاتجاهات الفكرية للمدرسة الإسماعيلية في مرحلتها المغربية ٢٦٠-٣٦٢ هجرية/٩٩٧٣م..... ١٠ - ٣٥
- حسين عطية، مجلس نابلس ٢٣ يناير ١١٢٠م وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية.... ٣٦ - ٦٩
- فايز اسكندر، الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم ١٦ يونيو ١٢٩٢م/١١ رجب ٦٩١ هجرية..... ٧٠ - ١٠٣
- رأفت عبد الحميد، الأمير فخر الدين ابن الشيخ في محكمة التاريخ..... ١٠٤ - ١٦١
- محمود إسماعيل، سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية ٣٣٤-٤٤٨ هجرية..... ١٦٢ - ١٧١
- نريمان عبد الكريم، دور مصر في أفريقية من الفتح العربي حتى نهاية عصر الولاة ٢٧-١٨٤ هجرية/٦٤٧-٨٠٠..... ١٧٢ - ١٩١

ثانياً: عرض الكتب العربية

Franklin, S., and Shepard, S., *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, 1996)

- عرض د./ طارق منصور ١٩٣ - ١٩٦
- محاسن الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء أوراق الجنيزة ، (القاهرة ، ١٩٩٩).
- عرض / سند عبد الفتاح..... ١٩٧ - ٢٠١

ثانياً: القسم الأجنبي

أولاً: البحوث الأجنبية

Shepard, J., Silks, skills opportunities in Byzantium: some reflexions 2-17

ثانياً: عرض الكتب الأجنبية

Al-Gindi, S., *Les moyens de divertissement et d'amusement à l'époque fatimide en Égypte 358-567 AH./969-1171 AD*, (Unpublished MA Thesis, Faculty of Tourism and Hotels, Helwan University, 1999).

18-25..... عرض / شيرين صادق

Grabar, O., *Penser l'art islamique, une esthétique de l'orient*, (Albin Michael, 1996)

26-31..... V. Gonzalez/ عرض

المشاركون في العدد

- أحمد الطاهري..... أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية الآداب والعلوم
الإنسانية - جامعة محمدية - المغرب
- بوبة مجاني..... أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية الآداب - جامعة
منتورى - قسنطينة - الجزائر
- جوناثان شبرد..... أستاذ التاريخ الروسى الوسيط/البيزنطى - كلية
التاريخ - جامعة كامبردج - إنجلترا
- حسين عطية..... أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد - كلية
الآداب - جامعة طنطا - مصر
- رأفت عبد الحميد..... أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب -
جامعة عين شمس - مصر
- سند أحمد عبد الفتاح..... معيد التاريخ الإسلامى - كلية الآداب - جامعة
عين شمس - مصر
- شيرين صادق..... مدرس مساعد الحضارة الإسلامية - كلية الآداب
- جامعة عين شمس - مصر
- طارق منصور محمد..... مدرس التاريخ البيزنطى - كلية الآداب - جامعة
عين شمس - مصر
- فاليرى جونزاليه..... مدرس تاريخ الفن الإسلامى - مارسيليا - فرنسا
- فايز نجيب اسكندر..... أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب -
جامعة بنها - مصر
- محمود اسماعيل..... أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية الآداب - جامعة
عين شمس - مصر
- نريمان عبد الكريم..... مدرس التاريخ الإسلامى - كلية الآداب - جامعة
المنوفية - مصر

تقديم

ليس أسعد إلى قلب باحث مدقق من أن يرى نتاج فكره وثمار غرسه، قطوفاً دانية بين أيدي الباحثين والسائرين في دروب المعرفة الإنسانية، وليس أعز إلى نفس مؤلف من أن يقلب صفحات خطها يمينه بعد عمل شاق وجهد كبير.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن نقلب صفحاته واحد من هذه الثمار التي طال انتظار نضجها، دون ملل أو كلل في متابعة رعايتها وسقيها، حتى تخرج على هذا النحو الذي نراه الآن، ونطمع أن يلقي بين الدارسين والمفكرين قبولاً حسناً، ونصحاً هادفاً، بغية الوصول والارتقاء به إلى مصاف الدوريات العالمية.

فهذا هو العدد الأول من "حولية التاريخ الإسلامي والوسيط" التي يصدرها "سمنار" كلية الآداب - جامعة عين شمس في هذا الحقل من البحث التاريخي، ورغم أن قصة الـ "سمنار" تعود إلى عام ١٩٨٢، ورغم صدور أعداد ثلاثة ضمت البحوث التي ألفت من خلاله، ونشرت على التوالي في أعوام ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، إلا أن هذا العمل توقف لتفرق القائمين على أمره اغتراباً خارج الديار، وظل الحال على هذا النحو حتى قدر للطيور المهاجرة أن تعود ثانية إلى أعشاشها، وأن يظهر من أفراخها من ينضم إلى مسيرة البحث والبعث من جديد لفكرة هذا اللقاء العلمي المتجدد، وسمنار التاريخ الإسلامي والوسيط".

ولما كانت أمانة الـ "سمنار" تدرك يقينا أن الانغلاق والعزلة العلمية هي آفة أي مجتمع تودي به إلى الشيخوخة المبكرة والوهن العقلي، فقد حرصت على أن تفتح قنوات علمية عديدة مع الباحثين والمؤرخين من ذوى الاختصاص في عدد من البلدان العربية والأجنبية، وقد استجاب لهذه الدعوة أساتذة فضلاء لهم وزخم العلمي في التاريخ الإسلامي أو تاريخ العصور الوسطى، وبعثوا ببحوثهم أو مقالاتهم لتضاف إلى الرصيد العلمي لهذه الحولية، بينما اعتذر نفر ثان عن عدم الاشتراك هذه المرة، على وعد صادق بأن يسهموا ببحوثهم الجديدة في الأعداد القادمة للحولية بمشيئة الله.

وكان طبيعياً وأمانة الـ "سمنار" تسعى بالحولية إلى مرتقى علمياً سامياً، أن تعرض البحوث التي تنشر على الأساتذة الفضلاء العاملين في حقل التاريخ الإسلامي والعصور الوسطى والتاريخ البيزنطي، وذلك لتقييمها وتقديم الملاحظات السديدة من خلال النقد العلمي الرصين، حتى يتحقق الهدف المنشود من إصدار هذه الإسهامات العلمية في ميدان البحوث التاريخية.

ويضم العدد أربعة بحوث في التاريخ الإسلامي ، تدور كلها حول موضوعات تتناول جوانب معينة من الحضارة الإسلامية ، فبينما عالج الدكتور/ محمود إسماعيل "سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية ، خلال قرن ونيف من الزمان (٣٣٤ - ٤٤٨هـ) سيطر فيه البويهيون على مقاليد الأمور في الدولة العباسية ، وأمسى خلفاء بني العباس إلى جوار وزرائهم هؤلاء نسياً منسياً ، عرض الدكتور/ أحمد الطاهري للنظام العقارى في الغرب الإسلامى فى بواكير نشأته ، وتوقف فى دراسته هذه بصورة رئيسية عند وضعية الأرض أيضاً فى بلاد نكور ، والبحثان على هذا النحو يعرضان لـ "وضعية الأرض الزراعية" فى المشرق الإسلامى وغربه فى فترة زمنية معينة.

والواضح أن هذا الجزء الغربى من العالم الإسلامى قد حظى بنصيب كبير فى هذا العدد، فإلى جانب بحث الدكتور/ أحمد الطاهري ، نجد دراستين أخريتين عن هذه المنطقة ، فقد قدمت الدكتورة/ نريمان عبد الكريم موضوعاً عن "دور مصر فى أفريقيا من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة" (٢٧ - ١٨٤هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠م) ، وهى الفترة التى قامت فيها مصر بدور فاعل فى الفتوح الإسلامية فى المغرب ، باعتبارها القاعدة المتقدمة للدولة الإسلامية باتجاه أفريقية ، ولم يكن دور مصر قاصراً على هذا الجانب العسكرى فقط ، بل امتد ليشمل التأثيرات الحضارية أيضاً . هذا بينما تعرضت الدراسة الأخرى التى قدمتها الدكتورة/ بوبه مجانى للاتجاهات الفكرية للمدرسة الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية (٢٦٠ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣م) ، وهى الفترة التى شهدت وجود الخلافة الفاطمية فى المغرب الإسلامى قبل قدوم المعز لدين الله الفاطمى ، الخليفة الرابع إلى مصر ، ليتخذ منها قاعدة لدولته ولتصبح القاهرة حاضرة هذه الخلافة من بعد . ولاشك أن الدعوة الإسماعيلية كان لها دور لا يمكن إنكاره فى مسيرة تاريخ المغرب الإسلامى.

أما الحروب الصليبية فقد حظيت بدورها بثلاثة بحوث تناولت صفحات مطوية من هذه الحروب ، فقد عالج الدكتور/ حسين عطية أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية خلال ربع القرن الذى تلا قيامها مباشرة ، وخاصة على عهد ملكها بلدوين الأول وبدايات عهد بلدوين الثانى ، وهى الفترة التى شهدت وضع الأسس والقواعد الرئيسية لتأسيس هذه المملكة ، وألقى الضوء واضحاً على مجلس نابلس الذى عقد فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١١٢٠م ، وهو جوهر هذه الدراسة ويشكل أهمية خاصة فى تاريخ المملكة . فإذا جئنا لـ أن نقفز قفزة علمية واسعة من بداية الحروب الصليبية إلى نهايتها لوجدنا الدراسة التى يقدمها لنا الدكتور/ فايز اسكندر عن "الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم ١١

رجب ٦٩١هـ / ١٦ يونية ١٢٩٢م" ، ومن المعروف أن سلاطين مصر من أسرة قلاوون جرت على أيديهم كتابة الصفحات الأخيرة من تاريخ الحروب الصليبية ، أو بمعنى أدق الوجود الصليبي في بلاد الشام ، فقد استرد المنصور قلاوون مؤسس الأسرة إمارة طرابلس من أيدي الصليبيين عام ١٢٨٩ ، ولم تمض على ذلك ثلاثة سنوات حتى كان ابنه الأشرف خليل يسترد مدينة عكا (١٢٩١) المعقل العسكري الكبير للصليبيين ، ثم يوالى القضاء على الجيوب الصليبية الباقية ، وهذا ما يقدمه الدكتور/ فايز اسكندر في دراسته عن استرداد الأشرف لقلعة الروم ١٢٩٢ .

أما البحث الثالث الذى يتعلق بالحروب الصليبية فهو الذى قدمه الدكتور/ رأفت عبد الحميد تحت عنوان "الأمير فخر الدين بن الشيخ في محكمة التاريخ" وفخر الدين هو أتابك العسكر أو قائد الجيش المصرى على عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد تعرض الرجل للظلم مرتين ، أولهما عندما شن عليه المؤرخ ابن واصل والتابعون حملة ضارية متهمين إياه بالفرار من أمام القوات الصليبية التى يقودها ملك فرنسا لويس التاسع فيما عرف بالحملة الصليبية السابقة وذلك عند مدينة دمياط ، والمرة الثانية عندما لم يتبته أحد من المؤرخين على امتداد هذه القرون منذ الثالث عشر حتى الآن لدراسة هذه القضية والنظر في صحة هذا الاتهام من عدمه . والدراسة التى قدمها الدكتور/ رأفت عبد الحميد تناولت بالتحليل والنقد التاريخى كل هذه القضية من جميع جوانبها من خلال دراسة النصوص التاريخية والمصادر المعاصرة بصورة نقدية ، وتوصلت إلى آراء لعلها غير مسبقة في هذا المجال .

وقد شارك الدكتور "جوناثان شيرد" بدراسة شيقة تحت عنوان *Silks, skills opportunities in Byzantium: some reflexions* ولعنا ندرك جيدا أن الحرير بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كان يمثل أهمية بالغة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، وقد حرصت الإدارة البيزنطية على أن يظل طريق الحرير البرى عبر وسط آسيا آمنا ، بل وسعت إلى تأمين طريق جديد بحرى عن طريق بحر العرب والبحر الأحمر أو القلزم ، وسياسات الإمبراطور جوستنيان وغيره واضحة في هذه الناحية ، والدكتور "شيرد" يلقي الضوء في دراسة علمية رصينة عن صناعة الحرير في بيزنطة وما لعبته الثياب الحريرية من دور في التعامل مع الشعوب المجاورة وفي الحملات العسكرية. كذلك تحدث عن البلاد الإسلامية وتزويدها لبيزنطة بالحرير، مثل فرغانة ؛ وعن التجار البيزنطيين الذين جابوا بلاد الشام ، لاسيما حلب ، طلباً للحرير .

وإلى جانب هذه البحوث فقد حرصت أمانة الـ "سمنار" على أن تتضمن الحولية باباً كاملاً لعرض عدد من البحوث أو المؤلفات التي صدرت مؤخراً في ميدان التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى ، أو بعض رسائل الماجستير والدكتوراه ومنها ما لم يتم نشره بعد ، وهى محاولة للوقوف على أحدث الدراسات التاريخية فى هذا الحقل ليفيد منها الباحثون والدارسون ، وقام بهذا الجهد مجموعة من شباب الباحثين فى كلية الآداب - جامعة عين شمس من قسمى التاريخ والإرشاد السياحى ، وشاركهم فى ذلك الدكتور/ فاليرى جونزاليه مدرس تاريخ الفن الإسلامى بمرسيليا .

ولايسعنى فى نهاية هذه الكلمة إلا أن أنوه بالجهد الكبير الذى قام به تلميذى وصديقى الدكتور/ طارق منصور فى متابعة أعمال الـ "سمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه فى جمع هذه المادة العلمية التى ضمها هذا العدد من الحولية ، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة ، فله منى وأمانة الـ "سمنار" كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق .

وأمانة الـ "سمنار" وهيئة تحرير الحولية يسعدنا تماماً أن تتلقى كل الملاحظات والمقترحات التى تتناول هذه الحولية بالنقد العلمى الهادف وصولاً بها إلى مكانة علمية مرموقة نرتجىها وإليها نسعى .

دكتور

رأفت عبد الحميد محمد

الجزء الأول : القسم العربي
أولاً: البحوث العربية

من بواكير النظام العقاري بالغرب الإسلامي وضعية الأرض ببلاد نكور

د. / أحمد الطاهري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية - المغرب

لقد بات مسلما لدى المهتمين بالتاريخ الوسيط أننا نكاد نجعل كل شيء عن المراحل الأولى لنشأة الغرب الإسلامي، وعن الحثيات التي رافقت -على مدى ما ينيف عن نصف قرن من الزمن- تحول المغرب من الانتماء في الفضاء الحضاري القديم المسيحي-اللاتيني للاندماج كجناح متكامل في دار الإسلام. وما زالت العبارة الشهيرة التي ترددت في أوساط الاستشراق ناعنة فترة التأسيس "بالقرون المظلمة" إلى اليوم سيدة الموقف. ولا غرو، فحتى القدامى من مصنفى أمهات المصادر المعتمدة في التاريخ لهذه العصور يقرون بأن كبريات أحداث الفتح "لم تنضبط بتاريخ محقق"^١ فبالأحرى ما يتعلق بالجزئيات والتفاصيل. بلغت الشكوى من ندرة المعلومات وفقر المادة التاريخية بالبعض^٢ إلى حد التأكيد على استحالة تناول تاريخ المغرب الأقصى طوال فترة الفتوحات الإسلامية إلى نهايات القرن الثاني الهجري في بحث مستقل.

إلا أن في استقرار مضامين المصادر المتاحة، ما يقدم بعض عناصر المراجعة ويشجع على الانتقال بالبحث التاريخي من مستوى معاينة الحدث السياسي لمعالجة جوانب من التاريخ الحضاري. وهو ما سنتدرج على تناوله بالدرس في حدود ما تسمح به الشذرات المتناثرة من المادة التاريخية المعتمدة.

تشكل وضعية الأرض في نظر عدد من الباحثين إحدى أبرز معضلات التاريخ الإسلامي^٣. وبخصوص المرحلة التأسيسية من تاريخ المغرب الأقصى المرتبطة بعصر

^١ - ابن عفرى، البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال / كولان، بيروت ١٩٨٠، ج١، ص ٣٩.

^٢ - انظر: ليفي بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، السفر ١، ٢، مطبع ١٩٥٤، p. ٤٥، Jean BRIGNON et AUTRES, *Histoire du Maroc*, Casablanca 1967, p. 45.

^٣ - محمود اسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الدار البيضاء، ١٩٨٠، ج٢، ص ٢٥؛ الحبيب الجناح، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٠، ص ٩، Pierre GUICHARD, "Les états musulmans du Maghreb in *Maghreb Medieval: l'apogée de la civilisation Islamique dans l'Occident Arabe*, Aix en provence, 1991, p. 88.

الفتوحات، يحتفظ الونشريسي^٤ بآراء ثلة من أقطاب المالكية ممن تصدر الفتوى أو تقلد الأحكام وتقلب في جلائل الخطط بالمغرب والأندلس منذ البدايات الأولى خلال القرن الثاني وطوال القرنين الثالث والرابع إلى أواسط القرن الخامس الهجري^٥.

والجدير بالذكر أنهم لم يتوقفوا عن الاستفتاء جيلا بعد جيل "عن أرض المغرب"^٦ والتنقيب عما خفى من أخبارها وإمعان النظر في مظاهر العصر، مع الإصرار على سؤال أهل العلم والفقه والورع للكشف عن حقائقها. ولعل في قول قاضي إفريقية وصاحب المدونة الفقيه المالكي الشهير سحنون: أنى "لم أقف منها على حقيقة"^٧، وإقرار علي بن زياد الإسكندري - على إجهاده بالبحث عن أصول الروايات بمصر - إنه "لم يصح عندي فيها شيء"^٨، ما يؤكد درجات ما تعرض له الموضوع من طمس وإتلاف.

من الطبيعي أن يسفر ذلك عن اختلاف الآراء وتضارب الروايات حول الوضعية القانونية لأرض المغرب "فقيل عنوة وقيل صلحية وقيل التفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوقف"^٩. وبينما ينبه أحدهم على "أن البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون واحد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا"^{١٠}، يكشف غيره في نص هام عن إجماع أهل العلم على أن ثمة مناطق من المغرب الأقصى "أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة"^{١١}. وهو ما ينطبق تماما على وضعية بلاد نكور التي لم تخضع حسبما يتضح من خلال جملة من القرائن لأية فتوحات عسكرية^{١٢}.

^٤ - المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ج ٦، صص ٣٤ - ١٣٣.

^٥ - فمن تلامذة إمام المدينة مالك بن انس والرواة عنه، نذكر: علي بن زياد الإسكندري وأبا محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري الذي انتهت إليه الرياسة بديار مصر بعد اشهب. ومن إفريقية نخص بالذكر قاضيها ومفتي ديارها صاحب المدونة الشهير سحنون بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وكذا ابن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير المتوفى سنة ٣٨٦ هـ. ومن الأندلس، نستقرى آراء عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ هجرية وكذا إشارات قاضي الجماعة بقرطبة ابن وافد اللحمي المتوفى سنة ٤٠٤ هـ هجرية وعبد الملك بن اصبح القرشي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ. لمزيد من التفاصيل عن متصدي المذهب المالكي أثناء تألفه بالأندلس راجع اللائحة الهامة التي ذيل بها ابن سهل كتابه في النوازل الفقهية المشهور: الأحكام الكبرى، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٨٢٨ق، ص ٤٢٢ - ٤٢٦.

^٦ - الونشريسي، المصدر السابق ج ٦، ص ١٣٣.

^٧ - نفس المصدر والصفحة. انظر كذلك: الداودي: كتاب الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، الرباط، ١٩٨٨، ص

^٨ - الونشريسي، نفس المصدر والصفحة.

^٩ - نفس المصدر والصفحة.

^{١٠} - نفسه، ج ٦، ١٣٤. للمقارنة مع وضعية الأرض بالأندلس إبان عصر الفتوحات انظر: ابن حزم، التلخيص لوجوه التخليص، ضمن الرسائل، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨١، ج ٣، ص ١٧٥.

^{١١} - انظر: الونشريسي، نفس المصدر، ج ٦، ص ١٣٣.

^{١٢} - وهو ما تناولناه بتفصيل ضمن دراسة ستصدر قريبا في حوالى ٢٥٠ صفحة بعنوان "إمارة بني صالح في بلاد نكور، الأصول التاريخية وبواكير النمو الحضارى ولعمري بالعرب الإسلامى. وتشغل بلاد نكور، على طول الشاطئ المتوسطي للمغرب الأقصى، المنطقة الممتدة من أحواز هرملوية إلى سفوح جبال عمارة. وتتعمق إلى الداخل شاملة الحوض الأعلى لنهر ورغة ومنطقة تازة ونسبول في

وبصرف النظر عما أخذ غصباً و "وقعت فيه غلبة بعد غلبة"^{١٣}، فمن المعلوم أن أرض العنوة منها ما عومل معاملة الغنيمة فخمست وقسمت، ومنها ما اعتبر فيئاً يخمس ولا يقسم، ومنها ما يوقف على المسلمين عامة^{١٤}. بينما ترتبط أراضي الصلح بسجلات وعقود والتزامات وشروط مضبوطة الحثيثيات موثقة البنود بين المتعاقدين: الجنود الفاتح وأهل البلد^{١٥}.

وبخلاف وضعية الأرض ببقية مناطق الغرب الإسلامي أبان عصر الفتوحات التي تأرجحت بين مقتضيات الصلح والعنوة، يذكر ابن خلدون^{١٦} في نص فريد أن صالح بن منصور قد "استخلص نكور لنفسه"، أقطعه إياها الوليد بن عبد الملك في عام إحدى وتسعين من الهجرة^{١٧}.

وبرغم شيوع الاستخلاص كشكل من أشكال التعامل العقاري على مدار قرون من تاريخ الغرب الإسلامي، لم يحظ هذا المفهوم - في حدود علمنا - سواء على مستوى حدود اللفظ أو دلالاته التاريخية بأدنى اهتمام من طرف الدارسين. ويمكن من خلال قراءة أولية في عدد من الحوليات التاريخية وفحص متون جملة من المصنفات الفقهية الوقوف على بعض الحقائق المتعلقة بالضياح المستخلصة وعلى طبيعة الوضعية القانونية المترتبة عن هذه العملية.

فمن الأراضي المستخلصة من طرف الخلفاء والأمراء ما كان بمثابة ملك عام توضع عليه جبايات لصالح بيت مال المسلمين^{١٨}، بينما اندرجت غيرها من المستخلصات ضمن

اتجاه المجرى الأوسط لنهر ملوية حيث مضارب قبائل مطماطة امكسور المكناسية. ولقد شهدت نشوء أول إمارة غير مفارقة ببلاد المغرب خلال التسعينات من القرن الأول الهجري عرفت بإمارة بني صالح من تأسيس منصور بن صالح الغزوي، الذي أسلمت على يده مجموع قبائل المنطقة.

^{١٣} - ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٧٥.

^{١٤} - المقرئ، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨، ج ١، ص ٦٠ - ٢٥٩، لمزيد من التفاصيل عن أحكام أرض العنوة راجع: ابن سلام، كتاب الأموال، تحقيق/ عبد الأمير علي بن مهنا، بيروت ١٩٨٨، ص ٦٤؛ ابن آدم القرشي، كتاب الخراج، تحقيق جويبول، لندن، ١٨٩٥، ٥؛ ابن المناصف، كتاب الانجاد في أحكام الجهاد، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٧٤٨، ص ٤٣ - ٢٤١.

^{١٥} - وللمقارنة، تتوفر بهذا الخصوص على النص الكامل لكتاب الصلح حول منطقة تدمير بشرق الاندلس الموقع بين ملكها تدمير بين غندرش والأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير. انظر: الضي، بغية الشمس، القاهرة ١٩٦٧، ٢٧٤. لمزيد من التفاصيل عن مصاميع عقود الصلح والاتفاق بين الفاتحين والنصارى على مشاطرة كنائسهم، انظر: المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٦٠.

^{١٦} - كتاب العمر، تحقيق خليل شحادة، بيروت، ١٩٨١، ج ٦، ص ٢٨٣.

^{١٧} - مثل "مستخلص قرطبة انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٢ للعروف خلال عصر الخلافة باسم: "مستغل جوف المدينة" انظر: ابن بسام، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق/ إحسان عباس، تونس/ ليبيا ١٩٨١، ق ١، م ١٢، ٥٢ ونذكر أيضاً على سبيل المقارنة الملك الذي ألحقه والي ابن عباد خلال عصر الطوائف بمدينة باغة "واستخلصه لبيت مال المسلمين" انظر: ابن رشد، الفتاوى، تحقيق المختار بن الطاهر التليلى، بيروت ١٩٨٧، ج ١، ص ٣٠٦. ولا تعوز الدلائل عن غير ذلك من المستخلصات الملحقة بعدد من الحواضر الأندلسية، نخص منها بالذكر مستخلص غرناطة الشهير، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق/ محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٧٣، ج ١، ص ٤٢٩.

الممتلكات الخاصة للملوك والمتنفذين وأهل الجاه والسلطان. ولا تعوز القرائن الكاشفة عن دأب على اتخاذ قرى بأكملها "ضياعا مستخلصة"^{١٨}. بل ومن أرباب الخطط والنفوذ من طاعته نفسه فتجراً على ملك "الأحباس واستخلصه لنفسه"^{١٩}.

هكذا، فبالنظر إلى المعاني المعجمية للمصطلح^{٢٠} ولمختلف دلالاته التاريخية، يتجلى من خلال السياق العام لنشأة إمارة بني صالح أن المقصود باستخلاص صالح بن منصور نكور لنفسه: تمكنه من حقوق التصرف فيها فصارت بذلك خالصة له خاصة، لا يحق لغيره من الولاة والأمراء استغلالها ولا وضع الجبايات وأصناف الواجبات على أهلها ولا التحكم في رقبة ضياعها.

نتيجة لهذه الوضعية القانونية المتميزة، سلمت نكور من تبعات الاندماج في النظام العقارى والجبايى المعتمد من طرف الخلافة الأموية بالأمصار المفتوحة عبر سلسلة التراتب الهرمى التى يتحكم فيها ولاة إفريقية، وغدت على عكس مجموع بلاد المغرب فى علاقة مباشرة بواسطة عقد الإقطاع السالف الذكر مع مركز الخلافة بدمشق. ومن المعلوم أن التشريعات المتعارفة خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قبل التحولات الطارئة خلال القرون اللاحقة "لا تجوز إقطاع الأمراء والقضاة والقواد وإنما ذلك للخليفة خاصة"^{٢١}.

والراجع أن الخلفاء الأمويين قد التزموا بمقتضيات عقد الإقطاع الممنوح لصاحب نكور إلى حدود العقد الثانى من القرن الثانى الهجرى على الأقل. يتجلى ذلك من خلال موقف الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى لم يغفل - عند إصداره صك تعيين واليه

^{١٨} - ابن بسام ، المصدر السابق ، ق ٣ ، ١٢ ، ص ١٩ .

^{١٩} - ابن الحاج ، كتاب النوازل ، مخطوط المكتبة العامة الرباط ، رقم ٥٥ ج - ، ص ١٢٢ .

^{٢٠} - راجع ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون ، القاهرة ، ح ٧ ، ص ٢٦ - ٢٩ .

^{٢١} - الجزيرى ، المقصد المحمود فى تلخيص العقود ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٥٩٢ ق ، ورقة ٧٩ ب . لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع : ابن سلام ، المصدر السابق ، ٢٧٦ . وفى دراسة سابقة لا مجال هنا لتفصيل نتائجها ، تناولنا التحول الملحق بالذى من مفهوم الإقطاع وممارسته فى ظل الرخص الواسعة التى أقرها ثلة من الفقهاء للهند وأهل الخطط والمتامين من كل نوع بالغرب الإسلامى . أسفر ذلك عن ابتعاد الإقطاع فى أكثر من مظهر ، ان لم يكن فى الجوهر ، عما كان عليه خلال عصر النبوة وخلافة الراشدين . عن بعض هذه الرخص انظر : ابن المناصف ، كتاب الانجاد فى أحكام الجهاد ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٧٤٨ ق ، ص ٤٣ - ٢٤١ . ومن أبرز الأمثلة على التزام العمل بالشرط المثبت أعلاه خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الفرس الإسلامى ، اضطراب أبناء الملك القوطى غيثشة الذين أمضى لهم طارق بن زياد العهد ، إلى اللحاق بموسى بن نصير المقيم بإفريقية الذى وجههم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق باعتباره صاحب الحق الشرعى الوحيد فى امضاء السجلات وعقد الإقطاعات . وبالفعل ، فبعدما " وصلوا إليه أنفذ لهم عهد طارق بن زياد وعقد لكل واحد منهم بذلك سحلا " ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق / إبراهيم الايبارى ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٣٠ .

على إفريقية والمغرب النص على استثناء بلاد نكور من سلطة الوالي الجديد، مذكرا إياه بعدم التدخل في شؤون نكور، مراعاة لخصوصيتها القانونية.

حقيقة أننا لا نتوفر على أدنى ما يفصح عن محتويات ومضامين صك الإقطاع الذى منحه الخليفة الأموى لصاحب نكور. مع ذلك فالراجع أن ثمة واجبات مالية من المفروض على هذا الأخير استخلاصها من الرعية وتوجيهها رأسا إلى بلاد الخليفة بدمشق . مصداق ذلك، ما ورد لدى صاحب أخبار مجموعة^{٢٢} فى سياق حديثه عن بلاد المغرب فى خلافة عمر بن عبد العزيز وكذا عمن قبله من " الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم من كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنائها فلا يدخل بيت المال متى الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا اله إلا هو ما فيه دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه".

إلا أن الوضع سرعان ما تغير ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك، وبعدئذ طوال العقود اللاحقة، إذ اندرج خلفاء بنى أمية على الرفع من المطالبات والتكاليف الموضوعة على مجموع بلاد المغرب "أكثر مما كان"^{٢٣}، بما فى ذلك بلاد نكور التى "ثقلت ... التكاليف"^{٢٤} على أهلها ولم يعد بوسعهم الالتزام بأدائها. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما اندرجت التوجيهات الأموية فى اتجاه مراجعة الأسس المنظمة للوضعية العقارية، تمهيدا لتخمين الأرض بعموم بلاد المغرب وإخضاعها لمقتضيات الفئ^{٢٥}.

ومن جهة أخرى، فالغالب على الظن أن صالح بن منصور قد أثر الالتزام بالشرائع المنظمة لوضعية الأرض حسبما كان متعارفا عليه لدى فقهاء العصر. ومن المعلوم أن البلد إذا استسلم عليه مالكة "من غير قتال وفى يده الأرض فهو عشر"^{٢٦}. ولا يستبعد أن يكون صاحب نكور قد عمد إلى تقوية مداخيل بيت المال الذى يعود بالنفع على العامة وذلك بتوسيع القطاع الخراجي، علما بأن "من أسلم على شيء فهو له ويؤخذ منه خراج

^{٢٢} - مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مخطوط المكتبة الوطنية ، مدريد ، رقم ٤٩٩٥ ، ص ١١ - ١٢ .

^{٢٣} - ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

^{٢٤} - ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٨٣ .

^{٢٥} - ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ - ٥٢ . لمزيد من التفاصيل عن مضامين الفئ راجع : ابو الفرج الحنبلى ، كتاب الاستخراج لأحكام الخراج ، تحقيق / عبد الله الصديق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٦ - ١٧ .

^{٢٦} - ابو الفرج الحنبلى ، نفسه ، ص ١٥ .

الأرض^{٢٧}. لذلك اشتهر صاحب نكور لدى معاصريه بمن فيهم خلفاء بني أمية ذاتهم بـ "عدله"^{٢٨} في الرعية.

وترجمة لحقوق التصرف الشرعية التي أصبحت في يد صالح بن منصور بمقتضى عقد الإقطاع على الأراضي الواقعة في دائرة نفوذه، لم يتردد عن "إنزال نفر من البربر موضعاً يحاذي مدينة نكور في الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقاً"^{٢٩}. وعلى عكس ما طبق في عدد من أبرز الكور الأندلسية - خلال نفس الفترة تقريباً أو لربما بعد بضع سنوات من هذا التاريخ إذ أقدم والى قرطبة على إنزال الناس بعضهم على بعض وجعل أموال أهل الذمة من العجم طعمة للجند الشامي^{٣٠}، أثر صاحب نكور الالتزام بالشروط الفقهية المنظمة للإقطاع. يتجلى ذلك في حصره الإنزال المذكور فيما يبدو أنه من على الأرض أو مما لم يحيه أحد من الموات^{٣١}.

ولعل في إقدام المستفيدين من الإنزال المذكور على إقامة سوق بالموضع سرعان ما أصبح نواة لإحدى أكبر الحواضر المغربية الوسيطة، ما يفصح عن تحقيق الهدف التنموي والعمرائي حسبما تواخاه ثلة من الفقهاء المتشددین في ضبط شروط جواز الإقطاع. ومن المعلوم أن رابع أمراء نكور سعيد بن إدريس قد تجرد لاحقاً لنقلهم عن هذا الموضع للاستقرار بمدينة نكور، مما يدل على إن الإنزال الممنوح لهم اقتصر على تمكينهم من استغلال فائدة المال ولم يكن إنزال تملك على رقبة الأرض^{٣٢}.

وبانتهاء العمل بعقد الإقطاع الذي يتم بمقتضاه تحويل جزء من ثروات بلاد نكور نحو دمشق، ومع اتساع نفوذ البلد ليشمل رقعة تمتد عرضاً "مسيرة عشرة أيام"^{٣٣} وتتعمق طولاً نحو التخوم الشبه الجافة للمجرى الأوسط لنهر ملوية، تصاعدت إمكانيات تحقيق التراكم المالي بواسطة الجبايات والمغارم الموضوعة على أهل الطاعة من القبائل الموالية، وفق نظم إدارية ومالية لم يصلنا عنها أدنى إشارة في المصادر المعتمدة.

^{٢٧} - نفسه ، ١٤ . لمزيد من التفاصيل عن أحكام أراضي الخراج راجع : البلازى ، فتوح البلدان ، تحقيق / رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ٣٥ - ٤٣٣ .

^{٢٨} - الزيان ، الترجمة الكبرى في أخبار الممور برا وبحرا ، تحقيق / عبد الكريم القيلاني ، المحمدية ٨١ ، ١٩٦٧ .

^{٢٩} - البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر / دي سلاتن ، باريس ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

^{٣٠} - ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ؛ ابن عذارى ، المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، ١٠٣ ، ص ١٠٣ .

^{٣١} - المقصود بعادى الأرض "كل أرض لها ساكن في آباد الدهر فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس فصلر حكمها إلى الإمام" انظر : ابن سلام ، المصدر السابق ، ٢٨١ . عن الوجه الثاني المشرق للإقطاع باعتبار دوره في تنشيط العمران وتحريك النمو راجع نصا هاما لابن حزم ورد لدى ابن رضوان : الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، تحقيق / علي سامي النشار ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ٢٣٢ .

^{٣٢} - عن أصناف الإنزال ، راجع : ابن رشد ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٩٤ .

^{٣٣} - اليعقوبي ، كتاب البلدان ، نشر / دي جويه ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٧ .

ولعل فيما ذكره البكري^{٢٤} عن امتناع "مكناسة عن صالح وحبسوا مغارمهم"، ما يفصح عن ركون صاحب نكور إلى النظام القبلي في تحديد الوحدات الخاضعة للمغارم، على الأقل فيما يتعلق بالمناطق الجافة والشبه الجافة النائية عن مركز الحاضرة. أما قلب الإمارة بنكور وتمسامان، فلا يستبعد أن يكون قد انتظم منذ هذا العهد المبكر في كور ورساتيق، على غرار النظام المعتمد لاحقاً بالأندلس في إدارة وتدير المجال^{٢٥}. مصداق ذلك ما ذكره ابن حوقل^{٢٦} في سياق حديثه عن أعمال بلاد طنجة التي انتظمت في شكل "مدن متصلة الرساتيق". وضمن الكتاب الذي بعثه محمد بن خزر الزناتى إلى الخليفة الأموى بالأندلس عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٩ هجرية، ما يدل على أن الانتظام الإدارى وأعداد المجال القروى في كور وأقاليم ورساتى، له أصول سابقة في تاريخ العدو المغربية، إذ قال : "هذه أطراف أعمالنا وحواشى كورنا من نحو المراسى المنتظمة بجزيرة الأندلس"^{٢٧}.

والغالب على الظن أن ثمة تغيير قد مس في العمق يحمل النظام العقارى المرتبط بوضعية الأرض وأشكال الملكية ببلاد نكور ابتداء من نهايات القرن الثالث الهجرى. فعلى غرار النظام الثغرى بالأندلس، لم يتردد عبد الرحمن الناصر عن إطلاق يد المتنفذين من أتباعه بالعدوة المغربية بواسطة إمضاء سجلات وعقود الإقطاع، مقابل الولاء والطاعة والاندماج في نظام الجماعة. يتجلى ذلك من خلال إنفاذ العهد لموسى بن أبى العافية إقراراً على لسان الخليفة بأن "كل ما توسعت فيه وفتح الله عليك به كان لك ولولدك ولعقبك إقطاعاً مسن أمير المؤمنين لك وتوسعا عليك ومكافأة لمحبتك لا تبدل لك ولا لأحد من ولدك وعقبك عند أمير المؤمنين حال إلا بأحسن منها"^{٢٨}. ومن المعلوم أن حملات موسى بن أبى العافية التوسعية قد بلغت قلب الإمارة نكور فخرها ليعود نفوذه إلى الانحسار بعدئذ نحو التخموم الشرقية الشبه الجافة ببلاد مكناسة واحواز مليلة.

وليس أدل على رسوخ إقطاع التملك في عدد من المناطق التي كانت إلى عهد قريب من ممتلكات إمارة بنى صالح، من فحوى الخطاب الذى بعثه الخليفة الأموى عبد الرحمن

^{٢٤} - المصدر السابق، ٩٣. والمقصود في سياق هذا النص، صالح بن سعيد خامس امراء آل صالح بنكور.

^{٢٥} - المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٧، ٢٢٢. والرساتيق مصطلح جغرافى مشرقى يقابله في المغرب والأندلس مصطلح الإقليم الذى يعتبر بمثابة أصغر وحدة في تنظيم المجال. وتنظم الأقاليم ضمن وحدة أكبر تدعى الكورة. وتختلف دلالات مصطلح الأقاليم اختلافاً بين جناحي دار الإسلام. راجع، ياقوت الحموى، معجم البلدان، بيروت، ١٩٧٩، ج١، ص ٢٢.

^{٢٦} - صورة الأرض، ليدن، ١٩٦٧، ص ٨٣.

^{٢٧} - ابن حيان، كتاب المقنن، نشر / م. صبح / ف. كوربتى / ب شاليتا، مدريد، ١٩٧٩، ج ٥، ص ٣٠٢.

^{٢٨} - نفسه، ص ٢١٢.

الناصر سنة ٣٢٦ هجرية لمدين بن موسى بن أبي العافية مرفوقا "بسجل من قبله ولاه به أعمال أبيه من مليلة وغيرها من مدن العدو حسب ما كان سجل لأبيه قبله"^{٣٩}.

والراجع أن بلاد نكور لم تخرج عن القاعدة العامة التي عادة ما تمس وضعية الأرض والعلاقات المتمحورة بين أطراف الإنتاج الفلاحي حول العائدات الزراعية عند انتقال أزمة القرار السياسى والمبادرة التنظيمية والتشريعية من الحواضر والمدن والقرى الجامعة نحو القلاع والحصون^{٤٠}. ففي هذه الحالة ، لا يقتصر دور مراكز القرار الجديدة المحصنة على اتخاذ أهمية^{٤١} متخيفة، بل وتحكم أيضا بفضل الجند والحاميات العسكرية في مجمل الأراضي والأنشطة الفلاحية المرتبطة بها.

ينطبق نفس الشيء على الامتدادات الغربية للإمارة، ويتعلق الأمر ببلاد غمارة التي لم تعد منتظمة كما كانت في إطار الجماعة وأصبحت لكثرة المتآمرين من القواد "بتلك الناحية ملكا توزعوه قطعا"^{٤٢}. انعكس ذلك على المستوى العمراني بخراب الحواضر والمدن واختلال البنيان. من ثم تصاعد الاهتمام باتخاذ الحصون ورفع الأسوار وبناء القلاع، بما يكشف عن التوجهات الجديدة التي مست في العمق مجمل النظام الإقتصادي القائم.

لعل في هذه العناصر، ما يدعو إلى إعادة النظر فيما تكرر لحد الآن من تصورات بخصوص المرحلة التاريخية المعروفة بالقرون المظلمة في تاريخ في تاريخ المغرب، وما يستحث الهمم ليس لبناء حوليات الحدث السياسى ببلاد نكور، بل وكذلك للانغماس في معالجة جملة من قضايا التاريخ الحضارى بالغرب الإسلامى.

^{٣٩} - نفسه ، ص ٤٢٧ .

^{٤٠} - للمقارنة يمكن تتبع تفاصيل هذه المسألة ضمن عملنا : عامة أشبلية في عصر بني عباد ، أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكلية الآداب بمكناس ، ابريل ١٩٩٤ (غير منشورة) .

^{٤١} - من المفيد بهذا الخصوص الإشارة إلى أهمية صنف خاص من المصادر العربية التي طواها النسيان ، ويتعلق الأمر بـ " كتب أهمية الحصون " . ينحصر منها بالذكر كتاب ابن الحسن على بن محمد بن خلف المعافى المعروف بابن القابسي من أهل إفريقية التوفى ٤٠٣ هـ الذى وضعه في الموضوع ، راجع : ابن فرحون ، الدياج المذهب في معرفة اعيان المذهب ، تحقيق / محمد الأحمدي أبو النور ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج٢ ، ص ١٠٢ . ومن الأندلسيين نذكر يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى من موالى بني أمية جيان الأصل قرطبي المنشأ قيروان الإقامة وتوفى بسوسة سنة ٢٨٩ هـ الذى وضع هو الآخر مصنفنا في " أهمية الحصون " راجع نفسه ، ج٢ ، ص ٤٥٥ ، وله كتاب مماثل بعنوان " في فضائل المستير والرباط " .

^{٤٢} - ابن خلدون ، العبر ، ج١ ، ص ٢٨٩ .

المدرسة الفكرية الإسماعيلية في المرحلة المغربية

(٢٩٦ - ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣ م)

د. / بوبه مجاني

كلية الآداب - جامعة منتوري

ظروف تأسيس المدرسة الفكرية الإسماعيلية ببلاد المغرب:

إن الحديث عن المدرسة الفكرية الإسماعيلية في مرحلتها المغربية يتطلب من المدارس العودة إلى فترة الدعوة المبكرة في هذه المنطقة ، والأفكار التي روج لها الدعاة الأوائل الذين استطاعوا أن يتحصلوا على موطن قدم منذ سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م حسب الرواية الشيعية^١، أي عندما كان الفكر الإسماعيلي يؤسس في المدينة أيام الإمام جعفر الصادق. كما أن هذه الدراسة تسعى إلى كشف أسباب اختيار بلاد المغرب مجالا لنشر المذهب الشيعي.

غير أن الغموض الذي اكتنف بدايات الدعوة والأفكار التي روج لها الدعاة كانت بسبب قلة الكتابات التاريخية من جهة وضياح ما دون مبكرا من جهة أخرى مثل كتابات المؤرخ والداعية أحمد بن الأسود بن الهيثم^٢ المعاصر للداعي أبي عبد الله الشيعي والإمام عبيد الله المهدي. وكذلك كتابات كبير الدعاة الكنانيين والمعاصر هو الآخر للإمام الأول المهدي، أفلح بن هارون الملوسي^٣. كما أن بعض كتابات فقيه الدولة القاضي النعمان بن محمد بن حيون التميمي المبكرة والعائدة إلى فترة الإمام الأول مفقودة هي الأخرى. أضف إلى ذلك سرية الدعوة وطبيعة المذهب ذاته القائم على تأويل الخير وليس روايته^٤. كل هذه الأسباب زادت من استعجام الموضوع وعسرت مهمة المتصدي له للكشف عن ملامح هذه المدرسة في الفترة المغربية. ولاستجلاء ملامح هذا الدور وقضاياها تبقى غير واضحة إذ أن اهتمام المصادر اقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية دون غيرها.. لهذا تبقى الأخبار المتعلقة بالفكر الذي احتوى هذه الحركة شحيحة لا تسعف الدارس على سير أفواره، بل

^١ - القاضي النعمان : رسالة إفتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٠ ، ص ٥٤ .

^٢ - الداعي إدريس عماد الدين القريشي : عيون الأخبار وفنون الآثار ، نشر محمد البعلاوي القسم الخاص بالمغرب بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥ ، ص ١٥٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ونقل عنه إدريس عماد الدين في كتابه السالف الذكر من أخبار الدعوة والدولة ورجالها .

^٣ - نفسه / ٢١١ - ٢١٢ .

^٤ - بعد كتاب القاضي النعمان المحال والمسيرات الذي ألفه في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله أحسن مثال على ذلك نشره محمد البعلاوي والحبيب الفقي وإبراهيم شيوح منشورات الجامعات التونسية تونس ١٩٧٨ .

تكتفى الأخبار بالإشارة إلى أن الدعاة روجوا لفكرة الإمام المستور المهدي المنتظر . وتنطوي هذه الفكرة في حد ذاتها على منظومة فكرية كاملة تسعى إلى إصلاح المجتمع فكريا وعقائديا واقتصاديا واجتماعيا .

والسؤال الذى يطرح بالحاح : إلى أى مدى ساهمت كتامة القبيلة في صياغة الفكر الإسماعيلي في دوره المغربي ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب على الباحث أن يضع يده على مؤلفات كتامية بالدرجة الأولى مثل كتابات قاضى القضاة وداعى الدعاة أفلح بن هارون الملوسى السالف الذكر ، وحيدرة بن محمد بن إبراهيم صاحب " السيرة الكتامية " والذى نقل عنه إدريس القرشى قائمة مؤلفات القاضى النعمان^٥ . وغيرهما من علماء هذه القبيلة^٦ . أو بالإعتماد على المؤلفات المبكرة التى أرخت للدعوة أو حملت أفكار هذه الدعوة ، لأن كتابات القاضى النعمان وحدها لا تكفى لرسم صورة كاملة وواضحة لهذه المدرسة في دورها المغربي .

لامراء في أن منطقة كتامة قد اختارها التنظيم الدعوى لتكون قاعدته لنشر المذهب في بلاد المغرب وكذلك قاعدته العسكرية لإقامة الدولة ، لأنها تتميز بطبيعة جبلية وعرة ويبعدها عن مركز السلطة بمدينة القيروان ، وهذه الطبيعة الجغرافية والبعد فرضا عليها عزلة فكرية وعلمية فما كان يدور من صراع فكرى ومذهبي ومناقشات كلامية في القيروان وبعض الأمصار المغربية مثل فاس وقمرت وغيرهما لم تعرفه هذه المنطقة . لهذا كانت معرفة الكتاميين بالإسلام بسيطة لا تتعدى مستوى المعاملات اليومية التى يعودون فيها إلى من عرف منهم ببعض العلم ليحتكموا إليهم في أمور دينهم .

لقد عمل التنظيم الدعوى على نشر أفكاره في كل الأوساط ، وعندما تطلب الأمر انشاء دولة توجه إلى البيئات الأقل تحضرا والبعيدة عن المراكز الحيوية مثل منطقة كتامة ليتخذ من الوضع الاجتماعى سببا للإحتجاج على السلطة العباسية^٧ . قدم التنظيم الدعوى

^٥ - عيون الأخبار / ٥٦٨ ، Ponawala Ismail (K) : *Bibliography of Ismaili Literature*, California, 1977, pp. 48 - 68; Lvanow , *A guide to Ismaili Literature*, London, 1933, pp.32-37.

^٦ - هناك شاعر كتامى دون أحداث فتح مصر والشام نظما مشيدا بدور القائد الكتامى جعفر بن فلاح أنظر : إدريس القرشى : المصدر السابق / ٦٩٦ .

^٧ - مرهارد دفتري : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، " الإسماعلية حتى العهد الفاطمى " دار اليباع للنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٤ / ١٢٩ .

البرنامج البديل المتمثل في فكرة المهدي المنتظر . وكانت كتامة الأرض والقبيلة هـى التى حقق بها التنظيم الدعوى برنامجه الإصلاحى .

ولقد إستفاد التنظيم من طبيعة المجتمع القبلى المعتمدة على العصبية وما تملكه القبائل من سلاح وخيل^٨ لأن الهدف لم يكن إلا الحصول على النصره السياسيه . ولأن نشر الفكر المذهبى التأويلى الفلسفى يحتاج إلى استعداد ذهنى وموروث فكرى ، بالإضافة إلى ما يتطلبه من وقت لنشره . اى أن التنظيم كان يريد منطقة صالحة للعمل العسكرى بعد الحصول على النصره السياسيه أكثر مما يسعى إلى الحصول على مرتكز فكرى لتطوير المذهب ، لأن الفكر قد تمت صياغته وحددت أبعاده وأهدافه ووضعت أسسه وبرامجه فى المشرق أيام الأئمة الأوائل منذ نهاية القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى .

وعليه كانت الدعوى تريد عصبية قبلية قادرة على العمل المسلح ، ومنطقة صالحة إستراتيجيا لهذا العمل ، وهذا التطبيق ما تم الترويج له من أفكار لا تتعدى التذكير بفضائل آل البيت وحقهم فى الإمامة وهو ما وجدته فى كتامة القبيلة والأرض . وكان يكفياها من الناحية الفكرية أو المذهبية ما يكنه الكنّاميون من حب لآل البيت وكرة للسلطة الأغلبية . يؤكد ذلك أن السلطة الفاطمية لم تفكر فى فرض ضرائب على الكنّامين ، وهذا مقابل خدماتهم للدعوة إلا بعد أن بدأت استعدادات العودة إلى المشرق فى خلافة المعز لدين الله^٩ .

إن الذى حدد مسار الحركة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربيه يتمثل فى نشأة الخلافة فى وسط مشبع بالعداء للمذهب الإسماعيلى فى القيروان قاعدة وحصن المالكية ، فلم يكن بإمكان الإمام الفاطمى أن يتوقع حكم بلاد المغرب بسهولة من هذه المدينة أو من مدينة أخرى من مدن المغرب التى إنتشر فيها المذهب المالكى وسيط كلية بحيث لم يترك مجالا لمذهب آخر . والخلاف مع المالكية إنصب كلية حول قضية الإمامة التى شيد عليها الفكر الشيعى . كما أن معاداة المالكية للإسماعيلية لم يكن سببها الاختلاف فى نظرية الإمامة فقط ، بل يمكن ردها كذلك إلى السياسة الإقتصادية التى سلكتها الخلافة الفاطمية تجاه المعارضين لها فى المذهب^{١٠} .

^٨ - القاضى النعمان : إفتاح الدعوة / ٦٥ - ٦٦ .

^٩ - المقرئى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشبال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٩٨ .

^{١٠} - أنظر تفاصيل ذلك فى دراسة د. عمود إسماعيل : محبة المالكية فى إفريقيا المغربيه ، دراسة إجتماعية ، معريبات دراسات جديدة ، فاس ١٩٧٧ ، ص ٦٨ وما بعدها .

لقد أسندت مهمة الرد على طعونات السنة واعتراضاتهم إلى الفقيه القاضى النعمان بالتأليف فى الموضوع منذ عهد الخليفة الثالث المنصور الذى أمر النعمان بالرد على السنة فيما رفضوه من إمامة آل البيت^{١١} لأن القاضى النعمان يعد من أكثر علماء الإسماعيلية إطلاعاً على مذاهب أهل السنة وفقههم مما مكنه من الرد عليهم من داخل مرجعيتهم^{١٢} ويتجلى ذلك فى كتابه اختلاف أصول المذاهب .

أما قبل هذه الفترة فلقد كانت الردود على السنة فى شكل مناظرات جمعت الخليفة الأول عبيد الله المهدي مع كبار فقهاء السنة مثل سعيد بن الحداد^{١٣} . كما جمعت كذلك كبير دعائه أبا عبد الله الداعي وأخاه أبا العباس المخطوم مع علماء السنة^{١٤} . ودارت المناظرات كلها حول قضية الإمامة ، لتقطع بعد ذلك أخبار هذه المناظرات والمواجهات الفكرية فى عهد الخليفة الثانى القائم بأمر الله بسبب انشغاله بالمعارضة المسلحة التى قام بها الخوارج النكار بزعامة أبى يزيد محمد بن كيداد صاحب الحمار . وتعود المناظرات فى عهد الخليفة المعز لدين الله الذى ناظر فى ذات الموضوع فقيهاً سنياً^{١٥} .

أما باقى مناطق المغرب فقد ظهرت المذهب ودولته العداء وحاربه بكل قوتها . ففى تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الأباضية ، وفى فاس دولة الأدارسة العلويين الذين أقصاهم الشيعة الإسماعيلية والإمامية من الحكم بحصرهم الإمامة فى أبناء الحسين فقط . وفى سجلماسة كانت تحكم أسرة بربرية تدين بالمذهب الخارجى الصفرى . فكلهم إذن يخالفون المذهب الإسماعيلى فكراً وسياسة . إلى جانب عدو الإسماعيلية التقليدى الأمويين فى الأندلس والعباسيين فى بغداد .

إن القضية الأساسية التى استغرقت زمن التنظيم الدعوى الإسماعيلى هى قضية الإمامة . هذا الاستغراق لم تسبب فيه المعارضة المذهبية فقط ، بل كذلك الانشغاقات داخل المذهب ذاته بسبب الاختلاف حول سوق الإمامة ، فكانت هى الموضوع الفكرى المتداول بين أتباع المذهب . وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الخليفة المعز من أجل لم شتات الفكر وتوحيده حول قضية الإمامة وصياغته صياغة رسمية ، إلا أن موضوع الإمامة ظل يطرح بإلحاح مع دعائه فى المشرق ويتجلى فى المراسلات التى كانت تدور بينه وبين دعائه

^{١١} - القاضى النعمان : المجالس ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

^{١٢} - نفسه ، ص ٤٣٠ .

^{١٣} - أبو بكر عبد الله المالكي : رياض النفوس ، تحقيق بشر البكوش ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٥٩/٢ .

^{١٤} - نفسه ٢/ ٨٤ - ٨٦ .

^{١٥} - القاضى النعمان : المجالس ٣٦٥ .

مثل الرسالة التي بعث بها داعيته حليم بن شيان داعي السند الذي يعلمه فيها بالتزامه بخط الخلافة في الإمامة^{١٦}.

ويبدو أن الذي زاد من حدة الصراع والاختلاف بقاء الكتب التي تتناول الموضوع وفلسفته سرية لا تتداول إلا في نطاق ضيق ، وحتى أبناء البيت الحاكم كانوا يخفونها عن بعضهم البعض .

فالخليفة عبيد الله المهدي يطلع المنصور ولي عهد القائم على كتب في الباطن خفية عن ولي عهده القائم بأمر الله ذاته^{١٧}.

هذا الانقسام والانشقاق بسبب الاختلاف حول بيت الإمامة . وهو ما تمثلته الحركة القرمطية التي رفضت إمامة عبيد الله المهدي ، والتي بسبب سيطرتها على بلاد الشام ترك المهدي "سلمية" إلى بلاد المغرب^{١٨}.

هذا الرفض لإمامة المهدي لم يكن من طرف دعاة المشرق فقط ، بل حتى داعيته المقيم لسلطانه في المغرب "أبي عبيد الله الداعي" وأخيه "أبي العباس المخطوم" رفضا مهدويته . غير أن رفض المشرق صحبه إنتاج فكري متنوع وعميق^{١٩} . بينما رفض المغرب لم يتعد الحركة العسكرية لأن نشر المذهب في صيغته التأويلية والفلسفية في بيئة المغرب أمر مستحيل لأن هذه البيئة ليست هي بيئة المشرق التي كانت تغص بالأفكار الفلسفية .

هكذا كان الجو الذي ظهرت فيه الخلافة الفاطمية فكان لزاما عليها أن تواجه هذا العداء المذهبي والسياسي والفكري . لهذا عندما أسس المهدي الخليفة الأول عاصمة الدولة باشر في تطبيق الفكر على أرض الواقع فسمى هذه العاصمة "المهدية" وهو اسم ذو مدلول عقائدي. واهتم فيها بالتحصينات العسكرية دون الإهتمام بالمنشآت الدعوية . أي أنه لم يؤسس بها دار دعوة لأن حاجة الدولة إلى البقاء في هذا الوسط العدائي يحتاج إلى القوة العسكرية قبل كل شيء. أما الدعوة فيكفيها أن تعقد مجالسها في القصر والمسجد . كما أن

^{١٦} - إبريس القرشي : عيون الأخبار / ٢٤٩ .

^{١٧} - القاضي النعمان : المجالس / ٥٠٢ .

^{١٨} - أحمد بن إبراهيم النيسابوري : استار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه ، نشر سهيل زكار ضمن الجامع في أخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧ ، ج١ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٢ ، محمد بن محمد اليماني : سيرة الحاجب جعفر ، نشر إيفانوف ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، مج٤ ، ج٢ ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٠ - ١٩٠ .

^{١٩} - من المؤلفات القرمطية التي وصلت كتاب "عبدان" : شجرة اليقين ، تحقيق عارف تامر ، ط١ ، دار الأفق الجديدة ، بيروت ١٩٨٢ . ويتفق كثير من الدارسين على أن الإسماعيلية سطروا على التراث الفكري القرمطي . انظر فاهار الدفستري : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينايع ، دمشق ١٩٩٤ ، ج١ ص ١٨٧ ، محي الدين اللادقاني : ثلاثية الحلم القرمطي ، ط١ ، مكتبة مدبول ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٢٥٠ .

المشروع السياسى الفاطمى يهدف بالأساس إلى العمل من أجل العودة إلى المشرق ، وحصل المغرب مرحلة وقاعدة انطلاق فقط لهذا العمل العسكرى لكن دون التخلّى عن العمل الدعوى. الانشقاق تطلب من السطلة لم شتات المذهب الفكرى الذى انتج فى المشرق والذى أخذ لبوس هذا الانشقاق وتوحيده وصياغته صياغة رسمية تخدم أهداف الإمامة فى المغرب .

واستغرقت عملية التوحيد هذه فترة زمنية طويلة لانشغال الإمامة بالفتن والثورات التى ظهرت منذ عهد الخليفة الأول ، فبالإضافة إلى فتنة الداعى التى تطلبت من المهدي تصفيته جسديا مع أخيه ومن تبعهما من رجالات كتامة ، هناك ثورة صاحب الحمار أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى .

وعلى الرغم من أن هذه الثورة لم تكن ذات أبعاد فكرية بل كانت ثورة على السياسة المالية المجحفة . هذا ما يفهم من قول أبى يزيد عند خروجه للحج مع رفقاء له من نفس المذهب حيث قال لهم عندما ودعهم بالقرب من جبل نفوسة : " ليس لله علينا أن نشترى حجة " ^{٢٠} مما يعبر صراحة عن رفضه للضرائب الكثيرة التى فرضتها الخلافة على التجار والفلاحين بل حتى الحجاج أجبروا على المرور بالمهدية لدفع ضريبة قبل الخروج إلى المشرق ^{٢١} وكادت هذه الثورة أن تقوض أركان الدولة خصوصا بعد أن تحالف المالكية مع النكار مما أخذ من الدولة وقتا طويلا ومجهودا كبيرا من أجل إعادة الاستقرار فى البلاد . أى أن الدولة اهتمت وركزت على الجانب العسكرى كما فى مرحلة الدعوة . وهذا من أجل البقاء فى وسط هذا الجو العدائى ، ولم يظهر الاهتمام بالناحية الفكرية إلا فى عهد الخليفة الرابع " المعز لدين الله " .

فى خضم هذه الأجواء العسكرية تكونت المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى بلاد المغرب . وهذه الأجواء هى التى طبعت مسارها ، كما أن الأهداف التى رسمتها لنفسها منذ ظهور المذهب فى المشرق حدد كذلك هذا المسار .

^{٢٠} - يحيى بن أبى بكر أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم تحقيق إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٩٧٦ ، ص ١١٦ حول هذه الثورة راجع إحسان عباس : مصادر ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربى وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ ، ص ١١١ وما بعدها ، محمود إسماعيل : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، دار العودة بيروت ، مكتبة مديبول القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

^{٢١} - ابن عدلى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ط ٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

خصائص المدرسة الفكرية الإسماعيلية :

ينطلق هذا الفكر من نظرتة إلى السلطة التي يقيمها على تصورہ للإمامة التي تكون بالنص والوصية والتوقيف وليس الاختيار أو الشورى . لأن الإمامة مكملة للنبوۃ التي مهمتها تبليغ الرسالة أو التريل ، أما الإمامة فمهمتها تأويل هذا التريل وحفظه من أجل استمراره . أى أن المؤول والحافظ للشریعة يجب أن يكونا عالمين بأسرارها ، لهذا زاوجوا بينهما بل جعلوا الفصل بينهما مبطلا للإمامة .

فالتأويل والحفظ يتطلبان العلم الوهبي الفطري الذي حبا الله به وفضل به آل البيت دون غيرهم من البشر واستحفظهم سره هذا الاصطفاء يعطى للإمام حق المفاضلة بين الناس فيصطفى بدوره من يراه أهلا لعلومه وحكمته^{٢٢} . وعلم الإمام يورثه للإمام الذى يأتى من بعده . أى لا يكون عن طريق التلقين والاكتساب . فصادر الإسماعيلية بذلك من باقى المسلمين اختيار الإمام كما صادروا منهم العلم كذلك ، العلم الذى يعنى القدرة على الغوص فى أعماق النص القرآنى أو السننى عن طريق التعلم .

وبناء عليه يعتبر الإسماعيلية سبب الاختلاف بين الأحزاب والمذاهب والفرق هو عدم رجوع المخالفين لمذهبهم إلى علم الأئمة وعدم أخذهم عنهم ويقول فى ذلك القاضى "النعمان"^{٢٣} استنادا على حديث مأثور عن الإمام على عند اختلاف الناس بعد موت الرسول (لو ثبتت لى وسادة وجلست للناس لقضيت بين أهل القرآن بالقرآن ، وبين أهل التوراة بالتوراة وبين أهل الإنجيل بالإنجيل ولما اختلف اثنان فى حكم من أحكام الدين) .

هذا النص يبين للناظر فيه أن علم الإمام على اللاحدود لم يقتصر على القرآن بل شمل كل الكتب السماوية . وطبيعى أن يرفض الإسماعيلية العقل فى التمييز بين الخير والشر والعدل والجور دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله الذى لا يعلم مكنونهما ومعانيهما الباطنية إلا الأئمة ، فبذلك لا علم إلا علم الأئمة^{٢٤} يتجلى لنا ذلك من خلال رد المعز على أحد الكتاميين فى مجلس من مجالسه ، قائلاً له : كل الناس يدعون العقل ، حتى المجانين وهم مختلفون فى المذاهب ، وحجة كل واحد عقله ، ومع ذلك لا يعدم مخالفا له ، والعاقلة فى نظره هو المطيع لله والآخذ عن أوليائه، والجاهل هو العادل عن ذلك^{٢٥} .

^{٢٢} - القاضى النعمان : المجالس / ١٠٤ ، إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .

^{٢٣} - إختلاف أصول المذاهب ، تحقيق مصطفى غالب ، ط ٢ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣١ .

^{٢٤} - القاضى النعمان : المجالس ص ٤٢٤ .

^{٢٥} - نفسه / ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

إن الأئمة وحدهم هم القادرون على التأويل الذى هو البحث فى أسرار الدين ؛ فهما يقرب من جوهر العالم الروحاني . أى استخدام أو الاستعانة بالفلسفة فى فهم القرآن فهما تأويليا أو فلسفيا^{٢٦} .

وتأسيسا على ما سبق فإن التأويل يتحدد بالمنظومة الفكرية للمؤول . فالإسماعيلية مثلا تأولوا القرآن من أجل إيجاد مسوغ شرعى لمطالبتهم بالإمامة ، والإمامة هى الركن الأساسى الذى بنى عليه فكرهم .

كما أن التأويل يتحدد بمدى عمق فكر المؤول وطبيعة فكره . فرجل الدين يختلف تأويله عن الفيلسوف . فإذا كان المؤول رجل دين فتأويله يكون من أجل استخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها . أما إذا كان فيلسوفا فإن تأويله ينصب على الكشف عن أسرار الكون وعالم الغيب . غير أن المؤول الإسماعيلي سواء كان رجل دين أم فيلسوفا فإن هدفه هو تثبيت حقهم فى الإمامة . لهذا ربطوا بين الأئمة والأنبياء وجعلوا الحركة التاريخية أدوارا يكون آخرها دور القائم ، الذى يرقى إلى مرتبة النبوة . ولهذا شرعية الإمامة عندهم مرتبطة بشرعية التأويل أى التأويل لا يستطيع أن يقوم به إلا الإمام من هنا تأتى نظرة الإسماعيلية للتاريخ الذى قسموه إلى أدوار كما سبق الحديث وكل دور يشابه الآخر وهو تكرار له من آدم إلى القائم^{٢٧} . كما أن الحدث التاريخي ذاته ذو وجهين ، هناك الحادثة أو الواقعة وهناك تأويلها^{٢٨} . وصحة الأحداث التاريخية العائدة لهذه الأدوار مصدرها الأئمة^{٢٩} لأنهم وحدهم مصدر كل علم . وهذا تسخيرا لإثبات شرعية الإمامة بامتدادها فى أعماق التاريخ ومنذ بدايته أى من دور آدم .

لقد دون الدعاة الفكر الإسماعيلي باعتمادهم وحسب الرواية الرسمية الإسماعيلية على الأئمة . وعلى الرغم من أن المصدر واحد إلا أن الاختلاف كان كثيرا حول القضية الواحدة . هذا الاختلاف هو الذى يؤكد لنا أن رد العلم إلى الأئمة وحدهم دون غيرهم هو للدعاية المذهبية فقط التى تطالب بشرعية آل البيت فى الإمامة استنادا على العلم الموروث عن

^{٢٦} - الحبيب الفقى : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلي (القاضى النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس / أ .

^{٢٧} - الحبيب الفقى : المرجع السابق / أ .

^{٢٨} - عادل عوا : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلي ، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، ط ١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ .

^{٢٩} - نفسه ، ص ٢٠١ .

الرسول عليه الصلاة والسلام . ويذهب بعض الدارسين^{٣٠} إلى أن هذا الادعاء تبطله حقيقة أن الأئمة لم يكونوا ذوى علم ما عدا " جعفر الصادق " و " المعز لدين الله " .

غير أن الواقع من خلال ما وصلنا من أخبار يثبت أن الأئمة كانوا من ذوى العلم فالإمام " محمد الباقر " له أجوبة رد فيها على أسئلة الأتباع وجمعت هذه الأسئلة في كتاب لإسماعيلية آسيا الوسطى هو " أم الكتاب " ^{٣١} .

كما يروى " جعفر بن منصور اليمن " عن أخذ عن الباقر^{٣٢} وكل ذلك يؤكد أن الباقر كان من علماء آل البيت العلماء وكتاب " المجالس والمسائرات " للقاضي النعمان^{٣٣} حافل بالأخبار عن علم الأئمة وحكمتهم مثل " المنصور " الذي كان يشرف على مجالس الحكمة في المهديّة والمنصورية . بل له تأليف منها كتاب في الإمامة^{٣٤} .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من داخل المذهب الإسماعيلي ذاته فإن المعز لا يمكن أن يكون عالماً إذا لم يكن الإمام " المنصور " هو الذي أودعه هذا العلم . فكما ورث عنه الحكم ورث عنه العلم كذلك .

وتعود أسباب كثرة الأخبار عن المعز إلى طبيعة الفترة التي حكم فيها . فالمعز جاء حكمه بعد فترة اضطرابات وحروب شغلت حياة الأئمة الثلاثة من قبله . كما أن المسلك الذي اتبعه في نشر الدعوة كان مغايراً لمسلك سابقه ، المهدي والقائم وهذا بسبب رد فعل المغاربة على هذا الأسلوب ، واحسن مثال على رد الفعل هو ثورة صاحب الحمار .

ومن خلال الأخبار التي وردت عند القاضي النعمان عن علم المعز نرى أنه كان عالماً بالنحو وينظر في ذلك علماءه البارعين^{٣٥} فطلب من أحد أئمتيه أن يؤلف كتاباً فيه وحدد له في نفس الوقت موضوع هذا الكتاب . وتعود براعة المعز النحوية إلى ارتباط هذا العلم بعلم البيان . والبيان إحدى معجزات القرآن الكريم . ونظراً لكون الأئمة هم وحدهم القادرين على الغوص في أسرار الكتاب فهم بذلك الأعلام بالنحو^{٣٦} .

^{٣٠} - الحبيب الفقي : المرجع السابق / ٣ .

^{٣١} - جاء في هذا الكتاب أن الباقر هو الذي أعطى هذا العنوان للكتاب الذي شملت أجوبته موضوعات في العقائد والتفسير وقصص الأنبياء وغيرها من الموضوعات مثل الروح والجسد والعرش والملائكة Lvanow, *Kitab der Islam*, 1936, tome 23, p. 16.

^{٣٢} - جعفر بن منصور اليمن : كتاب الكشف ، بشر مصطفى عالى ، ط ١ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٨ .

^{٣٣} - أنظر على سبيل المثال المجالس / ٢٦٥ - ٢٦٧ والداعي إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .

^{٣٤} - القاضي النعمان : المصدر السابق ص ٣١٥ .

^{٣٥} - نفسه ص ٣٠٩ .

^{٣٦} - نفسه ص ١٢٤ .

إلى جانب علم النحو يذكر النعمان كذلك أن المعز كان مؤرخاً مؤولاً للأحداث التاريخية وليس راوياً لها فقط^{٣٧}. وكان عالماً بكل اصناف العلوم الدينية والدينية^{٣٨}، من علم الكلام والفقه والطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة واللغة^{٣٩}.

هكذا كان المعز العالم يمثل المدرسة الفكرية بكل معارفها بل كان الموجه لمنهجها ومفاهيمها^{٤٠}.

فبعد أن اجتازت الدولة مرحلة التأسيس وتوطيد دعائمها التفتت إلى البناء الحضري والفكري استعداداً لتشييد إمامة تحكم كل العالم الإسلامي من بغداد بعد إسقاط الخلافة العباسية. لهذا قام المعز بتوحيد الفكر الإسماعيلي فعمل على كسب إسماعيلية المشرق إلى صفه بعزله الدعاة الثائرين عليه أو المبالغين في موالاته، بتحليلهم المحارم أو الخلط بين الدين والفلسفة ونسب ذلك إلى الأئمة^{٤١}. هذا القول والتحريف في المذهب ونسبه إلى الأئمة يرجع إلى المرجعية العلمية عند الأتباع التي حصرت في الأئمة فأصبح كل قول أو تحريف ينسب إليهم فكثرت الكتابات وتنوعت واختلفت مما دفع بالمعز إلى الجمع والتوحيد وسيظل بيت الإمامة هو الذي يشرف ويوجه ما ينشر من علم سواء أكان فقهاً أم علم حقائق حتى بعد العودة إلى المشرق^{٤٢}.

وبناءً على ما سبق فإن الحركة الفكرية المتمثلة في جمع شتات الفكر وإلغاء اختلافاته هو تأكيد للفكرة القائلة أن لا علم إلا علم الإمام. أي أن الإمام المعز كما جمع كل السلطات في يده هو الذي يتولى تحديد طبيعة الفكر ووجهته التي تخدم دولته. لهذا عندما كان يسأل إن كان هو المهدي يرد على سائليه قائلاً: فضل الله تعالى كثير وواسع ولنا منه قسم جزيل ولمن يأتي من بعدنا فضله، ولو كان الفضل لواحد لما وصل إلينا منه شيء. فقد كان المهدي مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة فبه فتح الله تعالى ذلك للعباد وذلك يتصل عنه في ذريته حتى يتم وعد الله الذي وعدهم إياه بفضله وقوته وحوله^{٤٣} ولكي يتغير المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً يجب أن يتغير علمياً وثقافياً على أساس من الفكر الفلسفي. لأن التغيير بالثورة أو العنف دون مسح فكري لا يحقق الأهداف المرجوة.

^{٣٧} - أنظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه ص ١٣٨ - ١٣٩.

^{٣٨} - القاضي النعمان: المجالس، ص ١٤٢.

^{٣٩} - نفسه ص ١٤٩.

^{٤٠} - نفسه ص ١٤٢.

^{٤١} - نفسه ص ١٩٨، ٢١٦، ٢٣٧، ٤٠٨، ٤١٩، ويذكر هذه الأخبار بمحطة دون تفصيل أو تحديد لهذا التبديل والقول.

^{٤٢} - القاضي النعمان: إختلاف أصول المذاهب، ص ٣٨.

^{٤٣} - القاضي النعمان: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ١٤٠٩، ج ١٥، ص ٣٩٠.

والناظر في هذا النص يتبين له أن فكرة المهدي عبارة عن مشروع إصلاحى اجتماعى واقتصادى وسياسى ، وهذا الإصلاح مرتبط بإصلاح أمر الناس الفكرى . أى عندما يأخذون العلم عن الأئمة^{٤٤} وعليه المهدي ليس آخر الفضل بل هو بدايته ، وهو الأساس الذى بنى عليه المذهب الإسماعيلى وهو الإمام وعلمه سواء أكان هذا الإمام ظاهراً أم مستتراً لأنه هو الهادى للبشرية^{٤٥}.

ووقف العلم على الأئمة دون غيرهم من البشر جعل الدعوة يروجون لفكرة علم الأئمة للغيب . وساهم في بث هذا الاعتقاد في نفوس الأتباع تحقيق بعض التوقعات المستقبلية مثل ظهور المهدي هذه التوقعات هي التي تعرف بعلم الحدثان الذي كان منتشرًا في إفريقية أيام الأغالبة . حيث كان الناس يأملون في الخلاص من جور أمرائهم على يد إمام من آل البيت وهو المهدي . وهو ما تحقق في السنة التي حددوها^{٤٦}.

وبالعودة إلى المصادر التي أرخت للدعوة الإسماعيلية نرى أن التنبؤات المستقبلية بدأت أيام مؤسس المذهب الإمام جعفر الصادق الذي تنبأ بفشل كل الثورات التي يقوم بها آل البيت بل وحتى العباسيين وهذا الفشل حسب النص سببه التشبه بالمهدي أو إدعاء المهديوة . والثورة حسب هذا التنبؤ التي ستحرز النجاح هي التي يقودها أبناء الحسين بن علي^{٤٧}.

وتتردد مقولة علم الغيب كثيرا في كتابات القاضي النعمان مثل علم المهدي المسبق بثورة صاحب الحمار وحصاره للمهدية . وهو الأمر الذي جعله عند تأسيسها يقيم حولها أشد التحصينات انطلاقا من اختيار الموقع^{٤٨} . كما أن المهدي تنبأ كذلك بعدم فتح مصر على يديه ومع ذلك قام بمحاولة الفتح^{٤٩}.

والسؤال الذي يطرح : هل كان ذلك علما بالغيب أم هو حسن التقدير والقدرة على الاستشراف ؟ أم هو تأويل للأحداث لصالح الدعوة ؟ أم هو في الأخير غلو الدعوة ؟

^{٤٤} - إدريس القريشي : عيون الأخبار ، ص ٢٥٠ .

^{٤٥} - القاضي النعمان : المجالس ص ١١٨ -

^{٤٦} - القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ٨٤ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٩ .

^{٤٧} - القاضي النعمان : شرح الأخبار ١٤ / ٢٠٨ .

^{٤٨} - القاضي بن النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ٢٧٥ ، وحول حقيقة علم الغيب الذي يعلمه الأئمة ، أنظر لنفس المؤلف : الرسالة المدهية ، تحقيق عارف تامر (خمس رسائل إسماعيلية) ، دار الإتحاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ ، ص ٨٢ .

^{٤٩} - إدريس القريشي : عيون الأخبار ص ٢٠٨ .

لقد نفى الإمام القائم بأمر الله أن يكون الأئمة يعلمون الغيب ، والدعاة الذين روجوا لذلك هم صادون عن الأئمة وليسوا دعاة لهم^{٨٠} ويذهب المعز في نفس السياق لتوضيح اللبس فيرى أن علم الغيب الذي يعلمه الأئمة ليس الغيب الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى " قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله " .

والغيب الذي يعلمه الأئمة هو العلم الذي غاب عن الناس ووهبه الله إلى الأئمة واستحفظهم سره^{٨١} . فهو بذلك يؤكد على الأساس الذي بنى عليه الإسماعيليون مشروعيتهم في السلطة وهو العلم الوهي الموروث والمنقول من إمام إلى آخر بفضل العناية الإلهية وعليه هذا العلم هو الذي يمنح الإمام القدرة على الاستشراق.

وتحقيق التنبؤات المستقبلية هو الذي أدى ببعض الدعاة إلى الغلو فرفضوا علم الظاهر أى ترك المعنى الظاهري للنص الشرعي ، وعملوا فقط بالمعنى الباطني . وهو ما سمح لهم بتأول الأحكام حسب أهوائهم ، فشاع هذا الغلو واستشرى بين الدعاة مما دفع بالمهدي وحفاظا على مصالح الدولة إلى معاقبتهم بالنفي أو السجن . ثم أقدم بعد ذلك على الامتناع عن عقد مجالس لعدة سنوات ، وكان قبل ذلك يجلس إليها بنفسه^{٨٢} .

ويرجع المعز أسباب عدم أخذ أغلب الدعاة بعلم الظاهر جهلهم بالأحكام ، فعندما كانوا يسألون عن الصلاة مثلا أو الصوم يمتنعون عن الإجابة بحجة أن السائل لم يبلغ الحد الذي يسأل عنه^{٨٣} .

ولهذا حرص المعز حرصا شديدا على أن لا ينشر الدعاة إلا ما يأمر به أو يصدر عنه وليس ما يضيفه الدعاة على هذا العلم أو تأويلهم له^{٨٤} .

وهكذا التأويل حتى وإن تعدد فيكون من الإمام ذاته وليس من الدعاة وهنا ما يؤكد قول الإمام جعفر الصادق " إنا لنحيب في المسألة الواحدة بسبعة أوجه لكل وجه حد فاستكثر ذلك من سمعه وقال بسبعة أوجه يابن رسول الله - صلح - ؟ فتبسم وقال : نعم وسبعون ولو زادوا لزدنا^{٨٥} " .

^{٨٠} - القاضي النعمان : المجالس ص ٨٤ .

^{٨١} - نفسه ص ٨٤ - ٨٥ .

^{٨٢} - القاضي النعمان : إفتاح الدعوة ص ٢٦٧ .

^{٨٣} - القاضي النعمان : المجالس ص ٥١٤ .

^{٨٤} - نفسه ص ٤٥٢ .

^{٨٥} - نفسه ص ٤١٤ .

هكذا يتبين لنا أن العلم مستويات كما أن الدعاة رتب ومستويات ولهذا لا يستطيع الداعية أن يتجاوز حده في الدعوة^{٥٠} .

لقد كان الدعاة في هذه الفترة في بلاد المغرب أغلبهم من كتامة ، ولقد صرح الأئمة في أكثر من مناسبة بعدم قدرة كتامة على استيعاب أفكار المذهب الشيعي لهذا كان إقبالهم على مجالس الدعوة والحكمة بسيطاً^{٥١} .

إن الفراغ الفكري الذي عاشته كتامة هو الذي يسر مهمة الداعي بها . فعندما نزل بها عند قدومه مع حجاجها سنة ٢٨٠هـ / ٨٨٣م ، وجد الأرض الخصبة المهيئة التي ينزر فيها بذور مذهبه ، لهذا باشر بعقد مجالس دعوته في إكجان^{٥٢} ، مظهرا في هذا المرحلة فضائل الإمام على والأئمة من ذريته ، ومن يلمس فيه الاستعداد لتقبل علمه يأخذ عليه العهد وينتقل به إلى علم الباطن^{٥٣} ، أي يطلعه على بعض أسرار المذهب .

والتشيع العام عرفته قبيلة كتامة قبل دخول الداعي إليها ، على يدى الداعيتين أبي سفيان الحسن بن القاسم ، وعبد الله بن علي بن أحمد الحلواني^{٥٤} . وبذلك يكون الداعي قد نقل الكتاميين من التشيع العام إلى الخاص دون أن يبلغ بهم أعلى المراتب أي ظل يعمل من أجل نشر الفكر السياسي دون الفلسفي.

ولقد ترجم هذا الفكر السياسي على أرض الواقع عندما أحرزت دعوته على بعض الانتصارات العسكرية فقام بتقسيم القبيلة والأرض إلى سبعة أسباع جاعلا على كل سبع داعية وقائد^{٥٥} .

ويواصل الداعي الارتقاء بكتامة في مراتب التشيع عندما يشتد الصراع مع الأغالبة الذين حاصروه في تازروت ، فيظهر الحكمة لأتباعه^{٥٦} بهدف شحن النفوس .

هكذا استطاع الداعي أن يكون جيلاً من الدعاة الكتاميين الذين يتولون مهمة نشر الدعوة في بلاد المغرب . ومن أشهر هؤلاء الدعاة أفلح بن هارون الملوسي الذي تولى قضاء

٥٠- نفسه.

٥١- القاضي النعمان: إفتاح الدعوة، ص ٧٩.

٥٢- القاضي النعمان: إفتاح الدعوة، ص ٦٧.

٥٣- إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٨٨ .

٥٤- نفسه ص ٥٤ .

٥٥- القاضي النعمان : المصدر السابق ص ١٢٧ .

٥٦- القاضي النعمان : المصدر السابق ص ١١١ .

القضاء ورئاسة الدعوة أيام الخليفة عبيد الله المهدي . وكانت مجالس دعوته شاملة لكل فئات المجتمع . فالتساء كان لهم مجلس ، وكذلك الصناع والحرفيون ، والفلاحون والرعاة^{٥٧} .

وعلى الرغم من هذه المكانة التي بلغها هذا الداعية الكتامي إلا أن المصادر الشيعية عندما تتحدث عن إنتاجه الفكري الذي أسهم به في بناء المدرسة الشيعية في بلاد المغرب تذكر أنه كان نساخا للكتب فقط سواء كانت فقهية أم في الآثار وفضائل آل البيت^{٥٨} وبذلك يكون قد ساهم في عملية جمع التراث الإسماعيلي دون الإبداع والتأليف .

وإذا قارنا ذلك بما كان يجري في المشرق فإن المشرق كان يعج بالأفكار الفلسفية والعقائدية فعلى دعائه كذلك في علم الأئمة وتخلوا عن ظاهر الدين وأخذوا بباطنه لكن ذلك كان بسبب استخدامهم الفلسفة في الدين والخلط بين الدين والفلسفة . فلم تكن آراؤهم فلسفية محضة ولا دينية صرفة^{٥٩} فالشرق غالى فاستطاع أن يتناول النصوص كما استطاع أن يمزج الموروث بالدين مما أعطى للدعاة حرية استقراء النص واستخراج الأحكام منه حسب هوى كل مؤول فكثرت بذلك الخلافات وكثر معها التأليف مما دفع بالإمام المعز إلى جمع هذا التأليف وتوحيده وتوجيهه الوجهة الرسمية وأوكلت هذه المهمة إلى القاضي النعمان .

أما في المغرب فإن نكران المهدوية توقف عند حد العمل العسكري واكتفت كتابته بتنصيب مهدي من إحدى قبائلها على صورة المهدي الفاطمي .

والكتابات الفاطمية الرسمية فرضت التعقيم على هذه الحركة واكتفت بتكفير مهدي كتابته واتهامه بادعاء النبوة والوحي وتنصيب دعاة على نفس التنظيم الدعوى الذي كان الداعي ينشر من خلاله ويروج لفكره المهدي الفاطمي^{٦٠} .

^{٥٧} - إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢١٢ . ظل هذا النظام في نشر الدعوة متبعاً حتى بعد العودة إلى المشرق ففى العهد الخليفة الحاكم بأمر الله كان مكلف بالدعوة الحسين بن على بن نعمان (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٣م يفرّد للأولياء مجلساً وللقضاة وشيوخ الدولة مجلساً آخر في القصر ، وعوام الناس والطارئين على البلد مجلساً أما نساء القصر كان لمن مجلساً خاصاً بمن في القصر ولعامة النساء مجلساً في الجامع الأزهر ، تقي الدين المقرئى : المقفى الكبير ، نشر محمد البعلوى ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٣٩٦ .

^{٥٨} - نفسه ص ٢١١ .

^{٥٩} - القاضي النعمان : المجالس ص ٤٠٨ .

^{٦٠} - ابن علقري : البيان ١/١٦٦ - ١٦٧ . عبد الرحمن ابن خلدون : العبروديان المبتدأ والخير ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨١ ، مج ٤/٧٨/٧٨ . المقرئى : المقفى ص ٩٠ . إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ١٩٠ .

هكذا يتضح لنا أن كتابة المحدودة الفكر عندما انشقت لم تستطع أن تنتج فكرا يضاد الفكر الرسمي بل كل ما عملته أنها استنسخت صورة المهدي الفاطمي دون إعطاء فكرى أو مذهبي ، بل يمكن القول أنها استنسخت فكر المهدي .

ولاغرو أن تأسيس المدرسة الفكرية في المرحلة المغربية هو نتاج الجهود التي بذلت أيام الخلفاء الأوائل كالمهدي والقائم من أجل توطيد أركان الدولة بسيادة الفكر الذي قامت عليه وهذا استعداد للعودة إلى المشرق بعد أن تشمله سيادة فكرها بعد توحيده .

فعندما جاء المعز إلى السلطة وحرصا منه على تحقيق هدف العودة اتخذ موقفا مخالفا للأئمة السابقين من المعارضة سواء كانت مالكية أم أباضية^{٦١} .

والسياسة التي اتبعها المعز تجاه الخصم هي التي وفرت له جو توحيد المذهب الإسماعيلي وأسند هذه المهمة وكما سلف القول إلى القاضي النعمان قاضي القضاة وداعى الدعوة ، وأحد أبناء كبار الدعوة في اليمن وهو جعفر بن منصور اليمن ، لأن المعز لم يجد من أهل المغرب من يستطيع القيام بهذه المسؤولية . فلقد كان كثير الشكوى بجهل أهل إفريقية^{٦٢} وتمكن من توحيد هذا الفكر بعد أن كسب ولاء بعض المنشقين عنه في المشرق ، فأصبح الدعوة يبعثون إليه بأسئلتهم المتعلقة بالمذهب فيجيب عنها^{٦٣} .

واستمرت هذه الاتصالات مع الدعوة فكانوا يخبرونه بكل ما يجرى في جزرهم ، وهو بدوره يخبرهم بما يجرى في دولته .

حركة التأليف وتأسيس المكتبات :

إن الأسس التي قام عليها المذهب الإسماعيلي وهي العلم الألوهي الرباني الذي يعطى للإمام شرعية تأويل النصوص الدينية - وهي نفس الأسس التي بنيت عليها الإمامة - أعطت ثراعا في التلوين .

لهذا يتساءل الدارس إذا كان الفكر الإسماعيلي منطلقة العلم الرباني الذي يعتمد على التأويل الباطني للنصوص ، فهل اعتمد دعائه عند نشرهم للدعوة على الرواية الشفهية أم على كتب مدونة ؟ خصوصا وأن الدعوة سرية والخلافة العباسية تبث عيونها في كل مكان لمنع هذه الدعوة من الانتشار .

^{٦١} - أبو ركريا : السير ص ١٣٨ - ١٤٠ .

^{٦٢} - القاضي النعمان : المجالس ص ٣٩٦ .

^{٦٣} - القاضي النعمان : المجالس ص ٢٣٦ . فرهارد دفتري : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ٥٢/٢ .

ففى بلاد اليمن مركز الدعوة ومدرسة إعداد الدعاة كان الداعية ابن حوشب وابن الفضل الجيشاني عندما دخلاها وجدا بها من يمتلك كتباً تنبئ وتبشّر بظهور المهدي وتحدث عن أخباره وكذلك أخبار الدعاة الذين يأتون إلى بلاد اليمن يدعونه بها قبل ظهوره وهما ابن حوشب ورفيقه^{٦٤} .

أما بلاد المغرب فيذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الداعي عندما كلف بنشر المذهب وأثناء وجوده في سجلماسة لإخراج المهدي من سجنه كانت معه كتب ينظر فيها^{٦٥} .

ويفترض أن تكون هذه الكتب قد حملها معه إلى بلاد كتامة عند دخوله إليها كما أن كبير دعاة كتامة أفلح بن هارون الملوحي استنسخ كتباً كثيرة في الفقه وفضائل أهل البيت .

وخطب الإمام علي وأبنائه أيام الخليفة المهدي^{٦٦} يرجح كذلك أن يكون النسخ قد تم أيام الدعوة السرية وعند تأسيس الدولة وأثناء قدوم الإمام عبيد الله المهدي من الشرق كانت معه كتب ملاحم أخذت منه في برقة^{٦٧} .

ومن الدعاة الذين كانت لهم تأليف في بداية الدولة في عهد خليفته الأول المهدي الداعي الطالبي أبو علي باب الأبواب (ت ٣٢١) ومن مؤلفاته كتابه الموسوم "أمهات الإسلام" رد فيه على الفلاسفة والأئم المخالفين للإسلام كما عرض فيه كذلك إلى التأويل وحقيقة وجوده وظل الداعي الطالبي يؤلف إلى أن توفي^{٦٨} .

ومن الدعاة الذين كانت لهم مؤلفات وعاصروا الخليفة المهدي ، أحمد بن الأسود بن الهيثم الذي نقل عنه أخبار الدعوة والدولة الداعي إدريس القرشي الذي توفي في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي^{٦٩} .

وظلت حركة التأليف في عهد المهدي نشطة فالداعي أبو اليسر الرياضي الذي تسولى خطة الكتابة بعد تأسيس الدولة صنف كتباً في علوم شتى منها علوم الحديث والقرآن والأدب^{٧٠} .

^{٦٤} - القاضي النعمان : شرح الأخبار ١٥ / ٤٠٧ .

^{٦٥} - أبو زكريا : السير / ١١٠ .

^{٦٦} - إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢١١ .

^{٦٧} - القاضي النعمان : إفتاح الدعوة / ١٥١ ، ابن عذاري : البيان ١ / ١١٠ . المقرئ : إتعاظ الخفا / ٦١ . والمقفى / ٨٤ . ابن خلدون : العبر / ٧١ / ٧ .

^{٦٨} - إدريس القرشي : المصدر السابق ٢٣٦ / .

^{٦٩} - نفسه / ٢١١ .

والقاضي النعمان الذي نال شهرة واسعة في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله بدأ هو الآخر تصنيف الكتب أيام الخليفة المهدي فكتابه " مختصر الإيضاح " وهو عبارة عن أحاديث وأخبار تروى عن الأئمة من آل البيت^{٧١} ألفه في هذه الفترة كما أن كتابه الذي وضعه في آداب التعامل مع الأئمة وهو " كتاب الهمة في آداب إتباع الأئمة " يرجح أنه صنفه في آخر عهد المهدي أو بداية عهد القائم^{٧٢} .

هذه الكتب إلى جانب ما حمله معهم الدعاة الذين قاموا بنشر مذهب في بلاد المغرب هي التي كونت النواة الأولى للمكتبة الإمامية بإفريقية فبعد تأسيس الدولة اهتم الخليفة المهدي باقتناء الكتب وجمعها بل صادر من المخالفين لمذهبه كتبهم فالفقيه المالكي سعدون بن أحمد الخولاني (ت ٣٢٧) كان يمتلك كتب الحدثنان فصادرها منه المهدي^{٧٣} .

ومن علماء المالكية الذين صودرت كتبهم ووضعت في خزانة القصر كتب الفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي هاشم (ت ٣٤٦) وكانت هذه الكتب في علوم شتى^{٧٤} .

وعندما كان الداعي يقوم بإسقاط الدولة الحاكمة في بلاد المغرب وهو في طريقه إلى سجلماسة استولى على تاهرت عاصمة الرستميين سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وجد بها مكتبة عامرة بالكتب فأخرجها كلها واقتنى منها ما يصلح للملك والحساب وأحرق الباقي^{٧٥} .

أما المصدر الآخر الذي مد المكتبة الإمامية بالكتب هو ما كان يؤلف في بلاد المشرق في بغداد حتى ولو كان في أخبار بني العباسي^{٧٦} .

وظلت الكتب التي تؤلف في المشرق من طرف الدعاة ترسل إلى بلاد المغرب فكتب " الزينة " الذي ألفه أبو حاتم الرازي في فضل اللغة العربية ومنافع الشعر واشتقاقات أسماء الله الحسنى أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله لم يسمح لولى عهده المنصور بالإطلاع على بعض

^{٧٠} - ابن عذري : البيان ١ / ١٦٣ .

^{٧١} - إدريس القرشي : المصدر السابق / ٥٦٠ .

^{٧٢} - فرحات الدشراوي : كيف صار القاضي النعمان فقيه الدولة الفاطمية في المغرب ، أعمال المفتي القاضي النعمان الثاني ، المهدية ، من ٤ - ٧ أوت ١٩٧٧ ، وزارة الشؤون الثقافية ، تونس ١٩٨١ ، ٢ / ٢١٣ .

^{٧٣} - المالكي : رياض النفوس ٢ / ٢٥٩ .

^{٧٤} - نفسه ٢ / ٤٢٢ . القاضي عياض اليحصي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر طرابلس الغرب ، ٣ / ٢٤٠ .

^{٧٥} - أبو زكريا : السير / ١١٣ ، أبو العباس الدرجيني : طبقات للشافيع بالمغرب ، تحقيق إبراهيم الطلاوي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٩٧٤ ، ١ / ٩٤ - ٩٥ .

^{٧٦} - القاضي النعمان : المجالس / ٣٣٠ .

أجزائه^{٧٧} ، وهذا لكون الكتاب فى علم الباطن على الرغم من أن مادته تبدو فى علم الظاهر. وإهتمام الأئمة بالعلم واقتناء الكتب واستنساخها وتصنيفها فى خزانة القصر جعلهم يعينون موظفا مهمته هى جمع الكتب واستنساخها وحفظها . وأسندت هذه الوظيفة فى عهد كل من المهدي والقائم إلى القاضي النعمان وكان المسؤول عن المكتبة أحد أبناء البيت الحاكم وهو المنصور ولى عهد القائم^{٧٨} .

وفى عهد الخليفة المنصور تولى هذه الخطة الأستاذ " جوذر الصقلي " الذى كان يدخر عنده نفيس ما تحتوى عليه هذه المكتبة^{٧٩} .

وبعدنا صاحب سيرة جوذر^{٨٠} ببعض عناوين هذه الكتب عندما يتحدث عن أمر المنصور جوذر باستنساخ كتب منها كتاب الإيضاح للقاضى النعمان وخطبة للقائم وأخرى للمنصور ذاته^{٨١} .

وفى خزانة الكتب تلك كان الخليفة المعز يقضى ليلة يطلع على محتوياتها خصوصا ما كان منها فى علم الباطن الذى لا يطلع عليه إلا الأئمة . وفى نفس الوقت كان يؤلف فى لياليه تلك^{٨٢} .

ويمكن القول بعد هذا العرض السريع لمواضيع الكتب نرى أن معظم المؤلفات كانت دينية وعقائدية وفلسفية وهو ما يرجح أن يكون قد شكل الرصيد الأكبر فى مقتنيات هذه المكتبة .

ومن القرائن على ذلك أن الأئمة عندما كانوا يصادرون كتب المخالفين لهم فى المذهب كانت إما فى علم الحدثن أو الحساب والرياضيات ولعلم الرياضيات علاقة وطيدة بعلم الفلسفة الذى أستخدم فى التأويل .

ومن العلوم كذلك علم النجامة الذى اهتم به الأئمة اهتماما كبيرا . فالخليفة المنصور برع فيه وكان غرضه من ذلك هو التوحيد وليس معرفة الغيب^{٨٣} وكان الخليفة المعز يرى أن

^{٧٧} - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦٢٦ ، حول شخصية هذا العالم ومولفاته ، انظر : Lvanow, op.cit, pp. 24 - 26 ؛ نشر كتاب الزينة فى القاهرة سنة ١٩٥٦ من طرف حسين بن فيض الله الهداني .

^{٧٨} - القاضي النعمان : المجالس ٨٠ / .

^{٧٩} - العزيزى الجوزى : سيرة الأستاذ جوذر / تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ، ٥٣ / .

^{٨٠} - نفسه / ٥٣ .

^{٨١} - نفسه .

^{٨٢} - القاضي النعمان : المصدر السابق / ٥٠ .

^{٨٣} - القاضي النعمان : المجالس / ١٢١ - ١٢٢ .

النظر في النجامة هو لمعرفة حساب السنين ومواقيت الليل والنهار وهي دلائل على التوحيد^{٨٤} لذلك طلب من النعمان أن يضع له أسطرلاب ، فاختار النعمان ذلك ابنه محمد ليشرح على الصانع الذي كلف بوضعه^{٨٥} وتبدو استفادة الإسماعيلية من هذا العلم جلية ، فعلى نظام الكون نظموا دعوتهم ، كما جعلوا العلم والحكمة تنتقل من إمام إلى آخر تدريجياً وليس دفعة واحدة كنمو الخلق وتحول الفصول^{٨٦} .

ومن خلال ما سبق نرى أن العلوم التي حازت على اهتمام الأئمة هي العلوم التي تستخدم في عملية استشراف المستقبل كعلم الحدثان والرياضيات والنجامة وكلها ترتبط بالفلسفة التي عالج بها الأئمة قضية الإمامة ما عدا علم الحدثان .

وإذا نظرنا إلى الكتب التي كانت تدرس في مجالس الدعوة نرى أن القاضي النعمان داعي الدعوة كان يجلس للفقهاء في المسجد وفي القصر يجلس لعلم الباطن تتلى فيه الكتب بعد صلاة العصر في كل يوم جمعة ، وكان أغلبية المتلقين في هذا المجلس الذي يعقد بالقصر من كتابة^{٨٧} .

وكان الإمام المعز هو الذي يحدد الكتب التي تتلى في مجلس القصر ومن بينها كتابي القاضي النعمان " دعائم الإسلام " ^{٨٨} و " اختلاف أصول المذاهب " ^{٨٩} المتمم والمكمل للدعائم فالدعائم يؤسس ويوصل الفقه الإسماعيلي كما يروى عن الأئمة والثاني في المنهج الذي أصل به هذا الفقه .

لقد كان القاضي النعمان - كما سلف القول - هو الذي يجلس للعلم سواء في المسجد أو القصر^{٩٠} كما كان هو المؤلف للكتب التي تتلى في هذه المجالس والتي مازال بعضها يتداول بين الأتباع لحد الآن مثل كتاب الدعائم الذي ضمنه القواعد الفقهية للمذهب وهي الأسس السبعة التي يقوم عليها الإسلام حسب رأي الإسماعيلية .

^{٨٤} - نفسه / ٣٤٩ .

^{٨٥} - المقرئ : القفي / ٣٦١ .

^{٨٦} - القاضي النعمان : المجالس / ٢٦٧ .

^{٨٧} - إدريس القرشي : عيون الأخبار / ٦١٨ .

^{٨٨} - نفسه / ٣٠٦ .

^{٨٩} - فرحات الدشراوي : المرجع السابق / ٢١٣ .

^{٩٠} - القاضي النعمان : المصدر السابق / ٣٨٦ .

هكذا تولى النعمان مهمة تأليف الكتب أو جمعها واستنساخها وتولى معه هذه المهمة ابن كبير الدعاة جعفر بن منصور اليماني^{٩١} ، الذي لعب دورا كبيرا في صياغة الفكر الإسماعيلي صياغة تأويلية باطنية . أما القاضي النعمان فلقد جمعت كتاباته ما بين الظاهر والباطن وكان باطن علمه باطن فقيه وليس باطن فيلسوف غاص في أعماق الفكر الفلسفي مثل جعفر بن منصور اليماني وهذا التبهر في فكر جعفر جعله يتقدم على النعمان ويحظى بالمركز الأسمى في التنظيم الدعوي .

إن أخذ المذهب الإسماعيلي بالفلسفة جعله يتمتع بالقدرة على التلاؤم مع كل تراث وهو ما أعطى في نفس الوقت حرية للدعاة في تأويل النصوص فكثرت الخلافات والاختلافات في هذا الفكر . وهذه الكثرة في التنوع وفي الإنتاج هي التي دفعت بالمعز إلى جمع التراث وصياغته بما يتلاءم وأهداف الخلافة خصوصا إذا كان بعض هذا الإنتاج يشكل خطرا على الخلافة ويهددها بالانقسام.

والسؤال الذي يطرح : هل هؤلاء الدعاة كانوا مبدعين أم ناسخين فقط وجامعين لهذا الفكر ؟ إن الناظر في المصادر الشيعية يرى أن كل الأخبار التي وردت عن التدوين في المرحلة الإفريقية تبين أن واضعي هذا الفكر هم الأئمة من آل البيت فالقاضي النعمان ينسب كل ما ألفه إلى الخليفة المعز^{٩٢} .

وإذا سلمنا بذلك وفي غياب رواية أخرى مخالفة فإن مكانة المرحلة المغربية بين المراحل التي مر بها هذا الفكر هو الجمع والصياغة الرسمية . وهو ما تحتاجه الخلافة في هذه الفترة لكي يسهل عليها العودة إلى المشرق وحكمه مع المغرب بالمذهب الإسماعيلي .

أما الدور الآخر فهو نشر المعارف العقلية التي لم تكن منتشرة من قبل في بلاد المغرب منها الفلسفة التي انتشرت كتبها فكانت مؤلفات أرسطوطاليس في الفكر السياسي معروفة في بلاد المغرب بل حتى في أقصى أطرافه مثل سجلماسة^{٩٣} . والفلسفة إن تكن قد دخلت المغرب قبل الفاطميين فإن الفضل يرجع لهم في نشرها وإعطائها مكانة خاصة .

والميزة الأخرى للمرحلة المغربية أنها أدخلت منها علميا ومعرفيا جديدا إلى بلاد المغرب لم يكن معمولا به من قبل . وهذا المنهج مرتبط بالمذهب وملازم له فالعلم الألوهي

^{٩١} - توفي بالمغرب سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م . ما تزال بعض مؤلفاته مخطوطة مثل كتاب الشواهد والبيان ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ميكرو فيلم رقم ٣٠٤٤٤ عقائد تيمور .

^{٩٢} - نفسه / ٤٠١ ، إدريس القرشي : عيون الأخبار / ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

^{٩٣} - إدريس القرشي : عيون الأخبار / ٦٢٦ .

الذى مصدره الإمام يلحق للأتباع حسب قدراتهم العقلية وينتقل من إمام إلى آخر انتقالا وراثيا أى تواصل المدد الإلهى . وبذلك رفضوا العمل بالرأى والقياس اللذين عملا بهما السنة لهذا عاب جعفر بن منصور اليمن على بعض الشيعة إتباعهم منهج القياس كالسنة^{٩٤} وعليه الصراع هو صراع فكر ومنهج فى ذات الوقت .

ويمكن القول أنه إذا كان الفضل يرجع للخليفة المعز فى جمع الفكر الإسماعيلى وتوحيده فإن للخلفاء الذين سبقوه دورا فى ذلك ، فهم الذين وطدوا له الحكم ووفروا له الاستقرار حتى يستطيع أن يقوم بهذا الدور الفكرى لكى يعود إلى المشرق .

ويبدو أن المعز أدرك جيدا أن السياسة التى انتهجها الأئمة الذين سبقوه فى الحكم المهدى ، القائم ، هى التى زادت من عداوة المخالفين لهم فى المذهب من سنة وخوارج ، لذلك تفلتن المنصور إلى هذا السلوك السياسى فتعامل مع الخوارج الذين ثاروا عليه بزعامة أبى يزيد صاحب الحمار بالقوة وداهن السنة المالكية حتى يكسر الحلف الخارجى السنى فأرضاهم بقتل بعض الدعاة ونفى البعض الآخر إلى الأندلس وغيرها من المناطق ، كما سمح للفقهاء أن يفتوا ويعملوا بالمذهب المالكى^{٩٥} .

فعندما جاء المعز إلى الخلافة عول على أسلوب التعايش الفكرى مظهرا تقديره للعلماء بما فيهم علماء الخوارج^{٩٦} .

والذى ساعد كذلك على ازدهار الحياة الفكرية أيام المعز ، إباحته مجالس الدعوة لكل الراغبين فى علم الأئمة هذه المجالس التى ظلت سرية إلى غاية عهد الخليفة المنصور وربما يعود السبب فى ذلك أن عهد هذا الخليفة عرف اضطرابات كثيرة بسبب ثورة صاحب الحمار ، والتى تسببت فيها سياسة الخليفة المهدى الدعوية فلقد كان يحمل الناس بالقوة على التشيع ويمنعهم من الإفتاء بغير المذهب الإسماعيلى^{٩٧} .

ولأن المغرب كان الفكر المالكى والإباضى فيه لا يشكلان خطرا على الفكر الإسماعيلى بل الذى كان يهم الأئمة هو توفير الاستقرار السياسى فى المنطقة لتسهيل العودة إلى المشرق وهذا يفرض على المعز وقبل الرحيل أن يوحد المذهب حتى لا يواجه بخصم من داخل المذهب ذاته ليتفرغ للعدو العباسى ، فيسقط دولته ببغداد ويحكم هو منها العالم

^{٩٤} - جعفر بن منصور اليمن : سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق وتقديم مصطفى غالب ، ط ١ دار الأندلس بيروت ١٩٨٤ / ٢٤٤ ، ٢٥٠ .

^{٩٥} - القاضى عبد الجبار الممداني : إثبات دلائل النبوة ، بشر د / سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

^{٩٦} - أنظر تفاصيل ذلك عند أبى زكريا : السمر / ١٤٨ .

^{٩٧} - المالكى : رياض النفوس ج ٢ ، ص ٢٦٥ .

الإسلامى لأن المهدية لم تكن هى المستقر فعندما أسسها المهدي إتخذها دار هجرة فقط للإمام القائم بأمر الله^{٩٨} وعلى الأئمة الذين يأتون من بعده تقع فريضة الجهاد الفكرى والعسكرى حتى تتحقق العودة إلى المستقر وهو بغداد .

وأخيرا للكشف عن طبيعة الفكر ذاته ومدى صلته بالفكر القرمطى يتطلب دراسة قائمة بذاتها بمقارنة المؤلفات القرمطية المتوفرة مع ما ألف فى مرحلة جمع وتوحيد الفكر الإسماعيلى ، أى المرحلة المغربية ، مثل كتابات الداعى منصور اليمن^{٩٩} المعروف بابن حوشب ، وابنه جعفر والقاضى النعمان وغيرهم من الدعاة الذين وصلتنا مؤلفاتهم .

^{٩٨} - إدريس القرشى : زهر المعان / ٢٢٠ .

^{٩٩} - من مؤلفاته المشورة لحيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق مصطفى غالب ، ط١ ، سلمية ١٩٥٦ ، وينسب إليه كما ينسب إلى ولده جعفر كذلك كتاب " لعالم والعلام " ، نشر مصطفى غالب ضمن أربعة كتب حقانية ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر

- جعفر بن منصور اليمنى (ت ٣٤٧هـ / ٩٥٨م) : كتاب الكشف ، تحقيق / د. مصطفى غالب الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
-، سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق / د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
-، العالم والغلام ، أربع كتب حقانية ، نشر / مصطفى غالب ، ط ١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- الحوذري، منصور العزيزي (ت أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) : سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق / محمد كامل حسين وعبد الهادي شعيرة ، القاهرة .
- ابن حوشب منصور اليمنى : البيان في مباحث الإخوان ، تحقيق / مصطفى غالب ، سلمية ١٩٥٦ .
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) : المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١م .
- الدرجيني، الشيخ أبو العباس أحمد ابن سعيد (ت ٦٧٠هـ / ١٢٧١م) : كتاب طبقت المشائخ بالمغرب ، تحقيق / إبراهيم الطلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ابو زكريا يحيى بن أبي بكر (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق وتعليق / إسماعيل العربي ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- عبدان الداعي القرمطي (ت : القرن ٣هـ / ٩م) : شجرة اليقين ، تحقيق / عارف تامر ، ط ١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ابن عذارى المراكشي، ابو عبد الله محمد (ت نهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق / ومراجعة ج.س. كولان وأ.ليفى بروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

- القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ / ١٠٤٩م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق/ د. أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر ، طرابلس الغرب .
- القرشي، الداعي المطلق إدريس عماد الدين (ت ٨٢٧هـ / ١٤٨٨م) : زهر المعاني ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- عيون الأخبار وفنون الآثار السبع الخامس وقسم من السبع السادس ، نشر/ محمد اليعلاوي تحت عنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٥م .
- المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت : أواخر القرن ٥هـ / ١١م) : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق/ بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٥م .
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : كتاب المقفى الكبير) تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) ، اختيار/ د. محمد اليعلاوي ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق/ د. جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
- النعمان، القاضي ابو حنيفة محمد بن محمد بن حيون التميمي المغربي (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٣م) : اختلاف أصول المذاهب ، تقديم وتحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الثالثة ، دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م .
- تأويل الدعائم ، تحقيق/ محمد حسين الأعظمي ، الطبعة الثانية ، دار المعارف القاهرة .
- دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه أفضل السلام ، تحقيق/ آصف بن علي أصغر فيضي ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق/ وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠م .

.....، الرسالة المذهبة ، نشر/ عارف تامر ، ضمن خمس رسائل إسماعيلية ، دار
الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ .

.....، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامي
، قم، إيران ١٤٠٩ .

.....، المجالس والمسائرات ، تحقيق/ الحبيب الفقى ، إبراهيم شـبـوح ،
محمد اليعلاوى الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس ١٩٧٨ م .

.....، الهمة في آداب اتباع الأئمة ، تحقيق/ د. مصطفى غـالب ، دار
مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥ م .

- النيسابورى، احمد بن إبراهيم : كتاب استار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة في الجزائر
لطلبه، نشر/ سهيل زكار في الجامع في أخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧ .

- اليماني، محمد بن محمد (مان حيا أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) سيرة الحاجب جعفر ،
نشر/ إيفانوف ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٦ م .

ثانياً المراجع

- إسماعيل، محمود : الخوارج في المغرب الإسلامي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، دار العودة ،
بيروت ١٩٧٦ .

- الدشراوى، فرحات : الخلافة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦ - ٣٦٥هـ / ٩٠٩ - ٩٧٥م
التاريخ السياسى والمؤسسات ، نقله الى العربية حمادى الساحلى ، الطبعة الأولى ، دار
الغرب الإسلامى بيروت ١٩٩٤ م .

.....، كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية بالمغرب ، ملتقى
القاضى النعمان للدراسات الفاطمية الدورة الثانية المهدية ٧ - ٤ أوت ١٩٧٧م ، وزارة
الشؤون الثقافية ، تونس ١٩٨١ م .

- دفتري، فرهاد : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الأول ، تطور الإسماعيلية حتى
العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينايع ، دمشق ١٩٩٤ م .

.....، الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الثاني ، تطور الإسماعيلية حتى العصر الفاطمي ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينايع ، دمشق ١٩٩٥ م .

- عباس، إحسان : مصادر ثروة أبي يزيد مخلد بن كيلاد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ .

- عوا، عادل : معنى التاريخ في الفكر الإسماعيلي ، أشغال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، الطبعة الأولى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت .

- ال--- الحبيب : التأويل أسسه ومعانيه في المذهب الإسماعيلي (القاضي النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس .

Lvanow, W: *Ummu t - Kitab der Islam*, tome 23, 1936 .

: *A Guide to Ismaili Literature*, London, 1933 .

..... : *The Rise of the Fatimide*, Calcuta 1942 .

Ponawala Ismail: *Bibliography of Ismaili literature*, California, 1977.

مجلس نابلس

(٢٣ يناير ١١٢٠ م)

وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية

د. / حسين محمد عطية

كلية الآداب - جامعة طنطا

في ٢٣ يناير ١١٢٠ م عقد فرنج مملكة بيت المقدس الصليبية اجتماعاً في مدينة نابلس برئاسة الملك بولدوين الثاني (١١١٨-١١٣٠ م) وجيرموند بطريرك كنيسة بيت المقدس (١١١٨-١١٢٨ م). وضم المجلس كل كبار رجال الدين والسلطة العلمانيين بالمملكة. وعرف هذا الاجتماع بمجلس نابلس Council of Nablus^(١) وبصفة عامة، فإن اجتماع هذا المجلس لم يشد -بدرجة كبيرة- حتى الآن، انتباه مؤرخي الحروب الصليبية الحديثين. ومن عرض له منهم، عاجلة بشكل سريع وبالمصادفة خلال معالجته لمؤسسات مملكة بيت المقدس الصليبية^(٢)، الأمر الذي جعله يتوارى، من حيث الأهمية، دون أن يشعر به قارئ تاريخ هذه المملكة الناشئة. وهذا البحث، هو محاولة لإلقاء الضوء على طبيعة هذا المجلس، وأسباب انعقاده، وأهدافه، وطبيعة القرارات التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجتمعون فيه، ومدى توافقها مع ضرورة انعقاده، ومدى ارتباطها بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية آنذاك، وأخيراً، موقف المؤرخين اللاتين تجاه هذا الحدث.

أما عن طبيعة هذا الاجتماع، فقد اعتبره وليم الصوري -الذي افترض لهذا المجلس فصلاً كاملاً من حوليته- "اجتماعاً شاملاً ومجلساً عاماً" -*Co n ventum* -*publicam et cu riam generalem*^(٣). أما في عنوان هذا الفصل، فقد جعله وليم "مجلساً كنسياً" *synodus*^(٤). كما اعتبره كذلك الكاتب البندقي جربانوس Cerbanus، حيث أشار في رسالة له إلى أسقف كاستلر يونفاس فالييه Bonifazio Falier، ألي مجلس كنسي *Synodo Celebrata* عقده بطريرك بيت المقدس وملك بيت المقدس^(٥). وكان عنوان الوثيقة الرسمية التي تضمنت قرارات المجلس، هو "مجلس نابلس" *Concilum Neapolitanum* الذي دعا ألي انعقاده كل من الملك والبطريرك^(٦). واعتبره المؤرخ هانز ماير "برلماناً" *parlement* لمشاركة العلمانيين من سادة المملكة الصليبية فيه^(٧). ولما كان المجلس الكنسي يعقد دائماً برئاسة البطريرك، وفي مقره الكنسي في بيت المقدس ولا يشارك فيه العلمانيون، ولما كان بطارقة بيت المقدس يشاركون دائماً في مجالس المملكة التي تناقش أموراً تخص المملكة بصفة عامة، فإنه من الممكن اعتبار هذا الاجتماع مجلساً صليبياً عادياً مثل

كل المجالس الصليبية التي كان الملك يدعو لاجتماعها، ونقطة الاختلاف الوحيدة بين مجلس نابلس وهذه المجالس الأخرى هو أن الذي دعا إليه الملك والبطريرك معاً. وسنعرف بعد ذلك أن هذه الدعوة المشتركة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالهدف الحقيقي لانعقاد هذا المجلس.

وفي الحقيقة، فإن السباب التي دعت إلى انعقاد هذه المجالس كانت عديدة، والتعرض لها سيلقى الضوء على أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية بخاصة، وأحوال الصليبيين في بلاد الشام بعامة. وقد ذكر ولیم الصوري سببين لانعقاد هذا المجلس، وهما المحن الطبيعية التي أحاطت بالصليبيين لهجمات أسراب من الجراد والفئران لمدة أربع سنوات متتالية "أهلكت فيها المحاصيل بالكامل، حتى بدا وكأن العالم بأسره سيفتقر إلى الخبز... هذا بالإضافة إلى الهجمات التي شنها العدو كل يوم كل يوم تقريباً"^(٨). وكغيره من الفرنج، فقد أرجع ولیم الصوري كل ما تمس به المملكة من محن ومشاكل إلى آثار الصليبيين، الذين وقع عليهم غضب الرب. وبذلك يكون الهدف من وراء عقد هذا المجلس -بالنسبة لولیم الصوري- هو إجراء الإصلاح المناسب لأعمال الفرنج الشريرة، ورفع مستوى الأخلاق بينهم، والمحافظة على النظام^(٩). إلا أن ما أورده رئيس أساقفة صور من أسباب وأهداف لم تكن هي كل الحقيقة. خاصة وأن ما لم يورده -ومن المؤكد أنه يعلمه- أو ربما ما لم يرغب في تسجيله، من أسباب وأهداف؛ قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً، أكثر مما أورده، بطبيعة القرارات التي اتخذها مجلي نابلس. لذلك يجدر بنا أن نلقى الضوء على أحوال المملكة الصليبية والفرنج معاً لنحدد السباب والأهداف الحقيقية من وراء انعقاد مجلس نابلس.

فقد اعتلى بولدوين الثاني عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، وبدأ يمارس سلطاته الملكية في ١٤ أبريل ١١١٨م، أي قبل انعقاد مجلس نابلس بحوالي عامين^(١٠). وبمجرد أن بدأ عهد الملك بولدوين، بدأت المشاكل تحيط به، وتزيد من أعبائه كحاكم للمملكة الصليبية، كما أضافت إلينا أعباء جديدة، وهي حماية وتدبير أمور الإمارات الصليبية في شمال الشام، وبالتحديد في إمارة إنطاكية الصليبية. فقد كانت الأحوال الاقتصادية لمملكة بيت المقدس الصليبية في تدن واضح، نظراً لما تعرضت له البلاد طيلة أربع سنوات من القحط الذي سببته هجمات الجراد والفئران التي أشار إليها بالتفصيل وبانزعاج شديد القس الخاص بالملك

بولدوين، المؤرخ فولشر الشارترى^(١١). هذا ألي جانب ما سببته الزلازل التي ضربت أملاك الصليبيين في نواحي إنطاكية، وطرابلس، والمملكة الصليبية نفسها، من خسائر، في أعوام ١١١٤م و ١١١٥م و ١١١٧م، وخاصة في العام الخير الذي اجتمعت على الفرنج خلاله أهوال الزلازل وهجمات الجراد والفئران^(١٢). وبدأ النشاط الزراعي في المملكة في التدهور على عكس ما كان في السابق، من وفرة المحاصيل الزراعية والفاكهة، وانتعاش للحياة الزراعية فيها، الأمر الذي اندهش له كل من الرحالة الروسي دانيال الراهب في عام ١١٠٦-١١٠٧م، والمؤرخ إيكهارد في علم ١١١٥م^(١٣).

هذا الى جانب ما تعرض له الصليبيون بصفة عامة من ضغط إسلامي عرضهم لحظر بالغ. ففي الجنوب، علم بولدوين بأبناء قيام تحالف وشيك بين دمشق والقلاهرة، ولما كان الصليبيون قد اعتمدوا منذ بداية دخولهم ألي ديار الإسلام، على انشقاق الصف الإسلامي الذي مكنهم من إقامة ركائزهم في المنطقة بسهولة^(١٤)، فإن تركيز للجهد الإسلامي كان يشكل خطراً كبيراً عليهم. وهذا ما دفع جوسلين كورتيناى أمير الجليل السابق الى البقاء في فلسطين لمعاونة الملك بولدوين الثانى دون التوجه الى إمارته الجديدة الرها، التى تقرر أن يحل فيها محل الملك بولدوين أميرها السابق^(١٥)، واضطراً معاً الى مواجهة طغتكين أتابك دمشق الذي طالبهم برد كل ما يقع وراء نهر الأردن من الأراضي، بعد أن وثق من نيل المساعدة من مصر^(١٦). وحشد بولدوين القوات من المملكة ومن إنطاكية وطرابلس، بالإضافة إلى قوات جوسلين، واستعد بالقرب من أسدود لمواجهة قوات دمشق، فى الوقت الذي احتشد جيش مصري على الحدود الجنوبية للمملكة الصليبية^(١٧). وإذا كان الأمر قد انتهى دون قتال بين الطرفين، بعد ثلاثة أشهر من المواجهة السلبية، فقد قام بولدوين وجوسلين معاً، بعد فترة قصيرة، بالتصدى لقوات دمشق، وأغاراً على إقليم حوران، وأوقعا الهزيمة بيورى ابن طغتكين^(١٨). وكان على بولدوين أن يسارع بعد ذلك إلى إقليم شرق الأردن لنجدة جوسلين الذي حوصر في كمين أعده له البدو بالقرب من نهر اليموك^(١٩). ولم يسترح بولدوين فى إقليم طبرية بعد نجدة جوسلين إلا وجاءته الرسل من إنطاكية يطلبون منه الإسراع لنجدة من برائن غيلغازى الأرتقى وحلفائه^(٢٠). وكان على الملك الصليبي أن ينهض بمهام كثيرة، فقد انهزم روجر الأنطاكي أمير إنطاكية، وقتل مع كل فرسانه، وأبىد جيشه فى موقعة ساحة الدم Ager Sanguinis فى ٢٨ يونيو ١١١٩م / ١٦ ربيع الأول ٥١٣ هـ بعد أن تخلى عن حذره ولم ينتظر قدوم بولدوين لمساعدته ضد خطر الارتاقية، وينظم أمورها، ثم يدخلى فى معركة ضد

إيلغازى وحليفة طغتكين أتابك دمشق عند قرية هاب في ١٤ أغسطس ١١١٩م، واضطر الى البقاء في شمال الشام حتى ديسمبر ١١١٩م^(٢٢).

وإذا كانت كارثة إنطاكية ق وحدثت بين إمارات الفرنج، وأملت عليهم أن يركزو جهودهم ويوحدوا صفوفهم أمام خطر المسلمين؛ فأثما قد ألفت على كاهل ملك بيت المقدس عبء الدفاع عن كل الركائز الصليبية في بلاد الشام، وأعلى الفرات. هذا الى جانب عبء إصلاح أحوال مملكته والدفاع عنها. ضد نفس الخطر أيضاً^(٢٣).

وكان على بولدوين أن يستعد لمواجهة خطر المسلمي بعدة إجراءات ضرورية. فبعد أن منح طائفتي الفرسان الرهبان الناشئين من الإستبارية والداوية كثيراً من الامتيازات، ليمدوا الكيان الصليبي بجيش منظم وثابت يتألف من مقاتلين مدربين لتعويض النقص الدائم في الموارد البشرية التي يحتاجها^(٢٤)، بعد ذلك، كان على بولدوين أن يعالج مشكلة أخرى لا تقل خطراً على الفرنج من خطر المسلمين والكوارث الطبيعية، التدين الأخلاقي لفرنج المملكة الصليبية. فبالرغم من أن حياة الفرنج في الشرق كانت مخوفة بالخطر الإسلامي في كل وقت؛ إلا أن الخوف والقلق في حياتهم لم ينفصلا كثيراً عن حياة المرح والبذخ والخيانة، كما أن القلق شجعهم على الانغماس في اللهم والمبازل^(٢٥). وقد لاحظ المؤرخ اللاتيني المعاصر فولشر الشارترى مدى حرص الفرنج على الحياة أكثر من الموت في سبيل الدفاع عن الكيان الصليبي. وكان هذا من العوامل التي دفعت بولدوين إلى عدم مبادئ طغتكين بالقتال عند أسدود، لينتهي الأمر بانسحاب كل من الطرفين دون مواجهة الآخر^(٢٦). وربما لاحظ بولدوين تراخي قواته في القتال، الأمر الذي لاحظته أيضاً المسلمون وجزع منه المؤرخ فولشر الذي أيقن الروح العسكرية لدى الفرنج وعدم التزامهم سيمكن المسلمين من قهرهم حين أورد لنا على لسان أحد المقاتلين المسلمين فحوى كل ذلك حين وجه المسلم كلامه إلى جندي صليبي كان في مواجهته في موقعة هاب قائلاً له "أقول لك أيها الفرنجي، أحق أنت فتجهد نفسك عبثاً؟ فليس لكم بالفوز علينا قط، إذ أنكم قله ونحن كثرة. والحق أن إلهكم قد تخلى عنكم لعلمه بأنكم لا تقيمون شرائعه كما حق عليكم، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكم ولا ريب أننا سنقهركم في الغد ونهزمكم". ويرى فولشر بأن علاج ذلك لا يتأتى إلا إذا أقوم الفرنج أخطاءهم^(٢٧). ونفذ بولدوين ذلك. فلكي يضمن إخلاص أتباعه من نبلاء الفرنج وجنودهم، والتزامهم بالعلاقة الإقطاعية بينهم وبينه كملك لهم، بما يكون قد أصدر أول مجموعة قوانينه tablissement التي تسمح له بمصادرة إقطاع تابعة إذا ما

ارتكب أى من المخالفات التي وردت في مجموعة القوانين هذه دون محاكمة^(٢٨). وإذا كان هذا التشريع يضمن للملك ولاء أتباعه من الفرنج والتزامهم بتلبية داعي الحرب بصفة خاصة، فإن أهم إجراءات بولدوين قد جاء في صورة غالبية القرارات التي أصدرها مجلس نابلس، والتي تعالج التدني الأخلاقي لفرنج المملكة بصفة عامة، وليس النبلاء منهم فقط.

وقد بدأت فعاليات اجتماع الفرنج في مجلس نابلس بعظمة دينية ألقاها البطريرك جيرموند لإعلان الجميع الندم والتوبة عن ارتكاب المعاصي والذنوب، وطب الصفح من الرب الذي صب عليهم جام غضبه^(٢٩). وكان الجو العام الذي طغى على اجتماع مجلس نابلس قد اتسم بمسحة من الندم. ويتضح ذلك من الثلاثة قرارات الأولى من مجموع الخمسة وعشرين قرارا التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس. وحقيقة الأمر أن هذه القرارات الثلاثة الأولى لم تكن لمجرد التكفير عن الخطايا بل إنها تشارك بقية القرارات من حيث إلقاء الضوء على أحوال المملكة الصليبية في بداية عهد بولدوين الثاني، وتنفرد عن بقية القرارات في أنها تحدد طبيعة العلاقات بين الدولة والكنيسة، وتعبير أدق بين الملك بولدوين الثاني وبطريرك كنيسة بيت المقدس، وتوضح بجلاء الظروف التي دفعت الملك الصليبي الى إصدار هذه القرارات الثلاثة.

ففي القرار الأول "يرد" بولدوين إلى البطريرك عشر دخل الملك من كل مدن بيت المقدس، و نابلس، وعكا، حيث لم يكن قد تم تنصيب أساقفة في المدينتين الأخيرتين. وإذا تم انشاء أسقفيات في هاتين المدينتين، فعلى البطريرك أن يقرر لها العشور الكنسية المقررة على دخل كل منهم، والتي تقرر ردها الى الكنيسة، حسب احتياجات البرشيات الواقعة في إقطاعاتهم^(٣٠). وفي القرار الثالث، قرر البطريرك جيرموند أن يتسلم هذه العشور المستحقة له ولأساقفته، الحاضرين أو الغائبين عن الاجتماع، حسب احتياجات أبرشية كل منهم^(٣١). وبالرجوع الى تفاصيل هذه القرارات الثلاثة، نجد أن الملك- في القرار الأول- "يرد" العشور الى الكنيسة ونجده في القرار الثاني- يعترف وباروناته بأنهم يسعون الى التفكير عن خطيئة الغطرسة *superbia* التي ارتكبوها في حق رجال الدين عندما حبسوا تلك العشور عن الكنيسة. ولذلك فالملك وأتباعه يطلبون الصفح. وفي القرار الثالث نجد البطريرك وقد غفر لهم ذلك التصرف، وأحلهم من الالتزام بتأدية هذه العشور عن الفترة السابقة لانعقاد مجلس نابلس.

وفي الحقيقة لم يكن الندم أعلنه الملك بولدوين أو الاعتراف بالذنب في حق الكنيسة ورجال الدين لمجرد دافع من التقوى والورع،

أو التوبة والتكفير عن الذنوب، وإنما بدافع مختلف تمام، وهو التنازل عن سلطات لطالما مارسها سابقوه ولاحقوه من ملوك بيت المقدس في أمور تخص الكنيسة. فمن المعروف أن الملك بولدوين الأول كانت له السيطرة على الدخل الكنسي، ولم يتنازل عن ذلك أبداً^(٣٣). وبمقارنه فحوى القرارات الثلاثة الأولى فيما يخص العشور التي ردها الملك إلى الكنيسة بما كان يحدث قبل انعقاد مؤتمر نابلس يمكن التثبت من محاولة بولدوين الثاني شراء رضى الكنيسة في شخص البطريرك. فلم يكن هناك فرق بين الشعور التي ردها الملك، في القرار الأول، وبين تلك التي تقرر أن يردها بارونات، إلى الأبرشيات التي تقع في نطاق إقطاعهم-في القرار الثاني-، لأن القرار الثالث يوضح أن البطريرك والأساقفة هم الذين يتسلمون العشور لأنفسهم على أن تصرف حسب احتياجات أبرشياتهم. ولما لم يكن هناك-حتى عام ١١٢٠م- نظام محدد للأبرشيات التي تقع في المناطق الريفية، حيث ندر التنظيم الكنسي اللاتيني في الريف بسبب عادة استيطان اللاتين الذين تركزوا في المدن، حتى أن السيد الإقطاعي اللاتيني لم يكن يقطن الريف، وإذا ما استقر الفرنجة في الريف، فأنهم كانوا يعيشون في قرى مغلقة لا يخاطبون فيها نصارى الشام ولا مسلمة. وبذلك لم تتوفر الحاجة إلى كنيسة إلا في مواضع قليلة من الريف^(٣٤). وكانت الأسقفية تطابق الأبرشية؛ لذلك فإن العشر كان يخص الأسقف، على أن يضمن دخلا لكل أبرشية تنشأ في أي مكان يتبع الأسقفية.

ولكن اختلف الأمر بين العشور التي ردها الملك والعشور التي ردها البارونات من حيث النطاق الحدودي الذي يتصرف فيه البطريرك في أموال العشور التي يدفعها الملك، والنطاق الذي يتصرف فيه الأسقف في تلك الأموال. فبناء على ما جاء في القرار الأول فإن الملك قد رد العشور عن دخله من مدن بيت المقدس و نابلس وعكا إلى البطريرك حسب ما تقتضيه احتياجات أسقفية *sicut ratio diocesis exigit*^(٣٥). ومعنى ذلك أن البطريرك لم يكن يستطيع أن ينفق هذا الدخل أرج نطاق المنطقة التي تقع تحت نفوذه فعليا أي مقر كرسيه الكنسي. ولما كانت مدن بيت المقدس و نابلس وعكا هي مراكز الدومين الملكي، ولما كان الدومين الملكي يتطابق في حدوده مع أسقفية البطريرك فإن البطريرك ليس له الحق في التصرف في أموال العشور خارج نطاق هذه الحدود. وهي الحدود التابعة لكنيسة بيت المقدس فقط. ولكن القرار نص على أنه إذا نصب أساقفة في نابلس أو عكا فكان البطريرك-كما نص القرار بوضوح- مجبرا على أن يدع الأساقفة الجدد يحصلون على ذلك الجزء من العشر المفروض على دخل الملك عن نابلس وعكا. أي أن البطريرك حق التصرف في مال

العشور خارج نطاق كنيسة في بيت المقدس. أما البارونات، فإذا كانوا قد تنازلوا عن حق التحكم في العشور الكنيسة، فأثم قد حافظوا على واحدة من مصالحهم الرئيسية. فحدود الأسقفيات لم تكن في الغالب تتطابق مع حدود إقطاعات البارونات. كما أن أملاكهم انتشرت خارج مقار بارونياتهم لذلك رد البارونات أموال العشور إلى رجال الدين ليتصرفوا فيها حسب احتياجات أبرشية كل منهم Prout parochiarum suarum ratio exigit^(٣٦). أي أن رجل الدين لا يستطيع أن يصرف هذه الأموال خارج نطاق مقر أبرشيته حتى ولو كان سينفقها في موقع يتبع أبرشيته كنسيا، لكنه لا يدخل في نطاق المدينة التي تقع فيها أبرشيته. وبذلك يكون الملك قد تغاضى عن حق لم يتغاض عنه باروناته. وكذلك أقر مجلس نابلس مبدءا جديدا لم يكن معمولا به من قبل، ويدل على حجم التنازلات التي وافق عليها بولدوين الثاني إرضاءا للبطريرك. ففي القرار الثاني للمجلس جاء أن ملاك الأراضي من البارونات-وليس مستأجريها أو المتفعين بها أو الذين يعملون فيها كأتباع للبارون-هم الذين يؤدون ضريبة العشور للكنيسة. ولكن الكنيسة بفرض العشور على السادة من الفرنج، تكون قد وصلت إلى جمع المسيحيين من غير اللاتين والمسلمين، بحجم عشر ما يدفعونه لصاحب الإقطاع من اللاتين. وكان فرض العشور على اللاتين فقط من شأنه أن يمنح الكنيسة حصيلة أقل. لأن غالبية سكان الريف كانوا من المسيحيين الشرقيين والمسلمين. وبعد أن كانت الكنيسة-قبل عهد بولدوين الثاني-تجبي العشور من فلاحي الأرض التي تملكها فقط، أصبحت تجبيه بطريق غير مباشر من أقرانهم الخاضعين للسادة من اللاتين^(٣٧).

وإذا قارنا بذلك ما كان يحدث في عهد بولدوين الأول ندرك حجم التنازل الذي أقر به بولدوين الثاني للكنيسة في حقوق لم تنازل عنها سلفه أبدا. ففي الحقيقة لم يكن ملك بيت المقدس ليتدخل في تصرفات البطريرك في أية أمور كنسية، إلا إذا تعلق الأمر فقط بالدخل الكنسي، فهنا كان يتوجب على البطريرك أن يحصل على موافقة الملك حين التصرف في هذا الدخل. فعندما أراد البطريرك إبريمار Ebremar (١١٠٢-١١٠٨م) أن يحدد رواتب لكهنة القبر المقدس في عام ١١٠٢م، فقد حصل أولا على موافقة الملك بولدوين الأول، بل أنه وثق المرسوم الذي أصدره بشأن ذلك بخاتم الملك^(٣٨). وعندما أراد البطريرك أرنولف (١١١٢-١١١٨م) أن

يخص في عام ١١١٢م جزءا من العشور التي يؤديها له بعض ملاك الأرض من اللاتين لإعادة بناء كنيسة جوسفات Josphat التي تقع خارج نطاق مدينة بيت المقدس من جهة الشرق ، وعندما منح نفس البطريك في عام ١١١٤م عشور بيت المقدس الى كهنة القبر المقدس، في الحالتين، كان ذلك بمشاورة الملك consilio regis، وبعد أن قدم الى الملك التماسا بذلك، وأمره الملك بتنفيذ ذلك. وحتى عهد بولدوين لم يكن من حق رجل الدين أن يتصرف في أموال العشر إلا في حدود إقليم كنيسته فقط، فقد فرض أسقف بيت لحم ضريبة العشر على كونت عسقلان في عام ١١٦٠م في عهد الملك بولدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) ولكن لم يسمح للأسقف أن ينفق عائد هذه الضريبة في مدينة الخليل التي كانت أيضا تتبع أسقفية بيت لحم لكنها تقع خارج حدود كونتية عسقلان^(٤٠).

ومن المعروف أن الكنيسة في البداية قد واجهت متاعب كثيرة لتحمل البارونات اللاتين على الاعتراف بمبدأ العشر الكنسي^(٤١). فقد قام تنكريد أمير الجليل (١٠٩٩-١١٠١م) باستغلال كل أملاك دير جبل طابور^(٤٢) لأغراض خاصة. ولم يرد تنكريد هذه الأملاك للدير إلا برحيله إلى إنطاكية في عام ١١٠١م^(٤٣). وتم الاتفاق على أن يتسلم الدير إحدى عشرة قرة في إقليم الجليل، وأربعة أخرى تقع شرقي نهر الأردن ولم يكن-بالطبع-من السهل أن يترك تنكريد هذه القرى للكنيسة إلا لأن قرى الجليل كانت خربة تماما، بينما كانت قرى شرقي الأردن لا تزال بأيدي المسلمين. واحتفظ تنكريد بأربعة قرى أخرى لم يسلمها للدير، وبقيت في أيدي فرسانه، لندرة الاراضي والحاجة فرسانه إليها. ولم يحصل الدير من هذه القرى الأربعة إلا على العشر من دخلها فقط، وكان ذلك قد تم بموافقة الملك بولدوين الأول الذي لم يؤكد هذه الاتفاقية إلا في عام ١١٠٦م^(٤٤).

وهكذا، إذا كان الملك بولدوين الأول وغيره من ملوك بيت المقدس قد فرضوا سيطرتهم على دخل الكنيسة، وكذلك فعل أتباعهم من السادة اللاتين، فلم إذن تنازل الملك بولدوين الثاني عن ذلك؟. والإجابة على هذا التساؤل تقتضي تفحص الظروف التي أحاطت باعتلاء بولدوين الثاني عرش المملكة الصليبية.

فقد مات الملك بولدوين الأول دون أن يحدد من يخلفه في حكم المملكة وانعقد مجلس المملكة، وتقرر أن يعث الفرنج الى يوستاش الثالث Eustace كونت بولونيا، وهو الأخ الثالث لكل من جودفري وبولدوين الأول، ليحضر الى الشرق ويتولى أمر المملكة الصليبية. إلا أن يوستاش قد علم وهو في ابوليا بإيطاليا، باعتلاء بولدوين دي بورج عرش المملكة، فعاد

يوستاش الى بولونيا، ولم يشأ أن يواصل رحلته الى بلاد الشام ليقاتل في سبيل إرث بعيد. وفي الحقيقة، فقد تم اختيار الملك بولدوين الثاني ملكاً بعد مناورة قام بها جولسين كورتيناى أمير الجليل، أقوى أعضاء المجلس نفوذاً، وأيده في ذلك البطريك أرنولف، واستطاع الاثنان إقناع المجلس باختيار بولدوين الذي حضر جنازة الملك الميت في يوم الأحد ٧ أبريل من عام ١١١٨م^(٤٥). وفي يوم الأحد التالي ٧ أبريل ١١١٨م، قام البطريك أرنولف بإعلانه ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية^(٤٦). وإن كان البطريك جيرموند قد توجه رسمياً في ٢٥ ديسمبر من عام ١١١٩م^(٤٧).

وبالنسبة لوليم الصوري، الذي روى تفاصيل غالبية هذه الأحداث، فإن الطريقة التي اعتلى بها بولدوين العرش تعتبر غير شرعية، ويرى أن جولسين قد أبرم مع بولدوين صفقة ناجحة، فقد أيده في الحصول على تاج المملكة، في نظير أن يترك له بولدوين كونتية الرها^(٤٨). وإذا كان جولسين قد حصل على المقابل، فلماذا لا يكون البطريك أرنولف قد سعى إلى المقابل يخصه هو، أى أن يمنح بولدوين الكنيسة مطلق الحرية في التصرف في دخلها، أو على الأقل في الجزء الأكبر منه، وهو أموال العشور الكنيسة، وبذلك تنتهي سيطرة ملوك بيت المقدس على هذه الأموال. وقد واتت الفرصة البطريك، وكان عليه أن يستغلها. ففي عهد بولدوين الأول كان أرنولف اضعف الاثنين. ولم يشأ أن يختلف مع الملك الذي طالما تدخل في كل ما يخص دخل الكنيسة، والذي كثيراً ما اخضع لسلطوته كل بطارقة بيت المقدس السابقين. وقد واجهت أرنولف في عهد بولدوين متاعب كثيرة استمرت حتى عام ١١١٦م حتى ثبت نفسه في كرسي البطريكية^(٤٩). وكانت هناك أسباب كثيرة للهجوم عليه. وكانت أهم الاتهامات التي وجهت إليه هي الواقعة التي حاكها بين بولدوين الأول والبطريك دايمبرت البيزى، كما تصرف أملاك الكنيسة على هواه، فقد زوج ابنة أخته إما Emma من يوستاش جارنييه Garnier Eustace ومنح الأخير مدينة أريحا مهراً، على الرغم من أن المدينة كانت من أملاك كنيسة بيت المقدس؛ إلى جانب دخل المدينة الذي قدره ولیم الصوري بخمسة آلاف قطعة ذهبية. كما أتهم أرنولف بإقناع الملك بولدوين الأول بالزواج من امرأة أخرى بينما كانت زوجته على قيد الحياة. كما كان سجله الوظيفي في بطريكية بيت المقدس غير مشرف، فقد عين بطريكاً لأول مرة في عام ١٠٩٩م وعزل من منصبة بعد عدة أشهر، ثم عين مرة أخرى في عام ١١١٢م، وتم عزله في عام ١١١٥م، ولكنه عاد إلى منصبه بتوصية من البابوية، وبقي بطريكاً حتى مات في عام ١١١٨م. وكان

توليّه المنصب غمّا بمؤامرة يحكيها ضد البطريرك المعين، أو بتملقة للبابوية. هذا الى جانب سلوكه الشائن مع النساء^(٥٠). ولما كان تحكم السلطة العلمانية في العشور الكنيسة أمرا بغضاً بالنسبة لأرنولف، وهو الذي يريد أن يطمس سجله الحافل بالنقائص، الذي يضعف من موقفه أمام ملك بيت المقدس، فقد أراد يظهر بمظهر مصلح كنيسة قوية، بان ينهى تحكم الملوك في أموال الكنيسة، وقد وافته الفرصة في عهد بولدوين الثاني الذي رأى، وموقف أرنولف أقوى من موقفه، أن تحكم الملكية في دخل الكنيسة أمر لا يتفق والظروف الراهنة. من هنا، ومن موقف كل من الرجلين، الملك بولدوين الثاني، والبطريرك أرنولف، كان الجو مهينا لعقد صفقة مفيدة لكليهما، وتم عقدها بالفعل. وقد مات أرنولف في ٢٨ أبريل ١١١٨م^(٥١) أي بعد أسبوعين من اعتلاء بولدوين الثاني عرش المملكة، واعتلى البطريرك جيرموند كرسي البطريركية، وربما تمت مناقشة أتمام الصفقة وتنفيذها معه. إلا أن الملك اضطّر للذهاب الى شمال الشام لنجدة إمارة إنطاكية بعد موقعة ساحة الدم، وعاد الى بيت المقدس في ديسمبر ١١١٩م، حيث تم تتويجه رسميا كملك على يد البطريرك جيرموند وذلك في ٢٥ ديسمبر ١١١٩م. وفي الشهر التالي وبالتحديد في ٢٣ يناير ١١٢٠م قام الملك بدفع المقابل الخاص به في هذه الصفقة عندما دعا بمشاركة البطريرك الاجتماع مجلس نابلس. وبعد أن ألقى البطريرك بعظته، رد الملك بخشوع تام، وفي إعلان صريح عن توبته، العشور للكنيسة معترفا بخطيئة التحكم في هذه العشور. لذلك كله لم يكن تدين بولدوين الثاني، ولا كثرة صلواته التي أدت إلي تصلب ركبتيه- كما يصفه وليم الصوري- هما اللذان دفعاه الى التنازل عن سلطات مارسها بولدوين الأول، وإنما للحصول على رضى الكنيسة والتصالح معها في وقت كان نفس الأمر على وشك أن يتم بين البابوية والإمبراطورية، الأمر ما الذي أجهج المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى^(٥٢).

وإذا انتقلنا إلى بقية القرارات التي تضمنها مرسوم مجلس نابلس نجد انها في مجملها تعالج التدني الأخلاقي الذي تفشى بين الصليبيين في المملكة، الأمر الذي لا يتناسب وحجم المخاطر التي تحيط بها وبسائر الإمارات الصليبية في بلاد الشام. وكانت هذه القرارات لإصلاح أحوال المملكة التي كان عليها أن تنهض بمهمة حماية الكيان الصليبي ككل إلى جانب مهمة التوسع على حساب المسلمين في بلاد الشام. ولينجح الصليبيون في كل ذلك كان لابد من الارتقاء بالمستوى الأخلاقي- وبشكل ثابت- للفرنج. ولم يكن هذا يتأبى إلا بإصدار قانون يتخذ صفة رسمية ليلتزم به الجميع. وليس كما كان يحدث من قبل من مجرد دعوة يوجهها رجال الدين والقادة الى

أتباعهم من الفرنج بالتحلي بالأخلاق السوية فيما بينهم ليؤيدهم الرب في قضيتهم، وسرعان ما ينسون فحواها بعد انتهاء كل أزمة تحيط بهم.

فمن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى -منذ البداية- وعلى الأقل بالنسبة لمفهوم من شاركوا فيها- أنها رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، وعمل تكفيري تغفر في مقابلة كل الذنوب^(٥٣)، وأن الحرب ضد المسلمين هي حرب مقدسة^(٥٤). واعتقد الصليبيون أن مجرد المشاركة في الجهد الصليبي من شأنه أن يغفر لهم كل شيء. فانغمسوا في كثير من الانحرافات^(٥٥). وكان الجزء الأساسي من هذه الانحرافات، التي جبلوا عليها، يتضمن الخطايا الجنسية كارتكاب فاحشة الزنا أو اللواط، إلى جانب السرقة^(٥٦). واعتاد المؤرخون اللاتين ورجال الدين المشاركون في الحملة على إرجاع كل كارثة حربية أو طبيعية تحيط بهم إلى غلو الفرنج في ارتكاب المعاصي. فمرجع فولشر الشارترى سبب وقوع الفرنج في كمين السلاجقة عند دوريليوم إلى خلاعة الفرنج^(٥٧). وعند وصول الفرنج إلى إنطاكية عربدووا في شهوة عارمة، ونسوا معنى العفة وارتكبوا خطيئة الزنا، وانتشرت الدعارة بينهم^(٥٨). فيخيرنا جيراننا في نوجنت بقصة الراهب الذي ضبط يضاجع راهبة في المعسكر الصليبي^(٥٩). كما يخبرنا ألبيرت دكس بقصة رئيس الشماسة الذي وقع في أيدي السلاجقة خارج إنطاكية وهو يمارس الزنا مع عشيقته الفرنجية^(٦٠). ولما غضب الرب على الفرنج، اشتهت بهم المجاعة، ولما اصلحوا من سلوكهم كافأهم الرب بالاستيلاء على إنطاكية. ولما دخلوا المدينة نسوا الرب وعادوا إلى فواحشهم، فحاصروهم كربوغا^(٦١). وبعودتهم مرة أخرى إلى السلوك القوم كافأهم الرب مرة أخرى بالانتصار على كربوغا^(٦٢). واستمر هذا التناقض الأخلاقي بين الفرنج حتى استقرارهم في الشرق، وأصبح في مفهومهم أنهم يحرزون النصر في المعارك ضد المسلمين في الحياة الدنياء، ويضمنون الخلاص في الآخرة طالما تجنبوا الزلات الجنسية^(٦٣).

من هنا تضمن مرسوم مجلس نابلس بعض القرارات التي تحد من انغماس الفرنج في الرذيلة واعتداء بعضهم على شرف بعض. فالقرار الرابع يقضي بأنه إذا تخوف شخص من سوء سلوك زوجته فعليه أن يواجهه الشخص المشكوك في أنه على علاقة بها، ويحرم دخول منزله والحديث مع زوجته، وأن يكون ذلك بحضور شهود. وإذا ما اكتشف الزوج أو أحد أصدقائه أن الزوجة وعشيقها يلتقيان في منزل الزوج أو في منزل آخر، يساق الرجل إلى الكنيسة التي تقوم بالتفريق بين الطرفين. فإذا ما طهر الرجل الآثم نفسه بالحديد المحمي يطلق سراحه بلا جناح عليه. وإذا ما عزز الزوج

موقفة واكتشف-رغم ذلك-أمرا مشينا في الحديث مع زوجته، يكون له الحق في الانفصال عنها مقابل انتهاكا للمحاذير^(٦٤).

ويقضى القرار الخامس بأنه إذا ضاجع فرنجي زوجة فرنجي آخر، واعترف بذلك، فانه ينفي خارج البلاد بأمر قضائي، وتقتل الزانية، إلا إذا صفح عنها زوجها، فيكون لزاما عليهما (الزوج والزوجة) مغادرة البلاد إلى غرب أوروبا^(٦٥). ونلاحظ أن مسألة صفح الزوج عن زوجته أو حتى التغاضي عن المر كله كانت أمرا معتادا يحدث بين الفرنج حتى بعد صدور قرارات مجلس نابلس. فقد فسرنا أسامة ابن منقذ، أكثر المؤرخين المسلمين اقترابا من طبائع الفرنج، هذه الظاهرة حين يرجع سبب تكرار حدوثها إلى افتقار الفرنج إلى الغيرة على العرض، المر الذي جبلوا عليه، ويعطينا مثلا لذلك براويته عن الفرنجي الذي عاد إلى منزله ليجد زوجته في فراشة مع فرنجي آخر يمارسان الفاحشة، فلم يتعد رد فعل الزوج من هذا كله سوى أنه استفسر من الرجل عن سبب دخوله إلى منزله حتى وصوله إلى فراشة، ولامه على مضاجعة الأخير لزوجته، وأنذره بأنه لو كرر ذلك الأمر فسيخاضمه "فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته"^(٦٦).

أما القرار السادس فيقضي بأنه إذا راودت الشكوك فرنجيا حول ارتكاب رجل دين من الفرنج الفاحشة مع زوجته، فعلى الزوج أن يمنع رجل الدين من التردد على منزله أو الحديث مع زوجته. وإذا ما اكتشف الزوج أنهما لا يزالان يلتقيان، وضبطهما بعد ذلك يرتكبان الفاحشة أو متحاورين، فليعرض الأمر في الناهية على عدالة الكنيسة، وإذا لم تنصفه، يعرض الأمر لاحقا على محكمة علمانية^(٦٧). ونلاحظ هنا أيضا أن رجال الدين اللاتين لم يكونوا بمنأى عن ارتكاب المعاصي. فإلى جانب الدين حكى لنا عنهم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، فان من التهم التي التصقت بكل من البطريك أرنولف والبطريك هرقل (١١٨٠-١١٩١م) كانت علاقتهما غير شرعية بالنساء^(٦٨).

ومن القرار السابع نعرف أن المجتمع الفرنجي لم يخل من القوادين من الرجال والنساء الذين يسهلون أمر قيام علاقات غير شرعية بين الرجال والنساء من اللاتين. وكانوا يديرون بيوت الدعارة التي انتشرت في المدن الصليبية وخاصة في مدينة عكا^(٦٩). فيقضى القرار السابع بأن يخضع للمحاكمة كل قواد (أو قوادة) يقوم بإغواء زوجة أحد الأشخاص وجعلها تمارس خطيئة الزنا. وتحاكم كذلك الزانية^(٧٠). وبالطبع تكون العقوبة هي نفس العقوبة التي أقرها القرار الخامس^(٧١).

والى جانب ارتكاب الفاحشة مع زوجات الآخرين، والاعتداء على حرمة بيت رجل آخر، واجه مجلس نابلس مشكلة الشذوذ الجنسي بين الصليبيين. فقد جاء الصليبيون الى الشرق وقد جبلوا على ارتكاب خطيئة اللواط. فيخبرنا جيبيرت دى نوجنت بأن بعض صليبي الحملة الأولى فضل ممارسة اللواط مع الصبية البيزنطيين الذين وجدوهم في المواخير البيزنطية، على ممارسة الزنا مع النساء البيزنطيات^(٧٢). ولم يتخل الفرنج عن هذه العادة بعد استقرارهم في بلاد الشام. فنجد القرارات من الثامن إلى الحادي عشر تعالج هذه المشكلة. فقد قضى القرار الثامن أنه إذا ما اعترف فرنجي بالغ بأنه مارس رذيلة اللواط بكامل إرادته يحرق مع نفذ فيه فعل اللواط^(٧٣). ونلاحظ هنا من نص القرار أن الشخصين كانا-معاً- مريضين بالشذوذ الجنسي، لذلك كان الإتيان بفعل اللواط بإرادة كل منهما. فكان العقاب صارماً.

وكذلك يكون العقاب صارماً بالحرق لمن يمارس هذه الخطيئة عنوة مع شخص آخر غير مريض جنسياً. فيقضى القرار التاسع بأن يحرق اللوطي الذي يمارس اللواط عنوة مع طفل قاصر أو أي شخص متقدم في السن خاصة إذا ما أطلق المعتدى عليه صيحات الاستغاثة. أما إذا ارتكب اللوطي هذه الرذيلة بغير إرادته فإنه يخضع للمحاكمة دون أن يفقد حقوقه القانونية^(٧٤). أي أنه ينظر في أمره لبحث الدوافع الخارجة عن إرادته والتي جعلته يأتي بذلك الفعل التماساً لأي عذري له حتى تخفف عقوبة الحرق. وإذا تفتتحت المحكمة بهذه الدوافع فيحاكم كغيرة من اللوطيين.

أما القرار العاشر فإنه يقضى بأن يحاكم محاكمة اللوطي من يقترب خطيئة اللواط عنوة ويخفي الأمر ثم يعود إلى ممارسته ويعترف به^(٧٥). وهنا لم يشفع اعتراف المذنب لأنه ارتكب جريمة عنوة.

بينما يقضى القرار الحادي عشر بأنه إذا تم إعلان اللوطي بالخضوع أمام المحكمة لارتكاب خطيئة اللواط، يؤتى به إلى الكنيسة ليحاكم حسب الأحكام الكنيسة. وإذا ما عاود هذا الشخص ارتكاب هذا الجرم فإنه يحاكم للمرة الثانية، ولكنه يبعد عن مملكة بيت المقدس^(٧٦). وطالما كان الحرق هو عقوبة اللوطي الذي يرتكب جريمته بإرادة من يمارس معه الرذيلة أو عنوة، فإن تكرار القيام بهذه الجريمة وتكرار محاكمته كما يقضى القرار الحادي عشر يدل على عقوبة الحرق لم تكن تعني الحرق حتى الموت. وربما كانت تقتصر على وصمة بالحديد الحمى كما كان يحدث من قبل. هذا عن الجرائم الزنا واللواط التي انتشرت في المجتمع الصليبي في مملكة بيت المقدس.

ولما كان الصليبيون مضطرين إلى تغير سياستهم تجاه المسلمين من سكان المدن الشامية التي استولوا عليها أثناء فترة غزوهم لبلاد الشام، والتي بدأت بسفك دماء مسلمي هذه المدن كما حدث عن استيلائهم على مدن إنطاكية والبارة ومعرة النعمان (١٠٩٨م/٤٩٢هـ) وجبيل (١١٠٤م/٤٩٩هـ) وبيروت (١١١٠م/٥٠٢هـ) ^(٧٧)، وبدعوا بحافظون على العنصر البشري الإسلامي لمواصلة الحياة الاقتصادية. فقد بدأ في عهد بولدوين الأول، حيث خير المسلمون بين الهجرة من مدنها التي احتلها الصليبيون، وبين البقاء تحت الحكم الصليبي لمزاولة الزراعة والصناعة لخدمة الكيان الصليبي اقتصاديا. بدأ ذلك عند استيلاء الصليبيين على مدن صيدا (١١٠١م/٤٩٥هـ) وجبله وعرقه (١١٠٨م/٥٠١هـ) وطرابلس (١١٠٩م/٥٠٢هـ) والأثارب (١١١٠م/٤٩٩هـ) وصور (١١٢٤م/٥١٨هـ) ^(٧٨). وبذلك اضطر الصليبيون إلى التعايش مع المسلمين في مدن وأقاليم الشام التي خضعت للحكم الصليبي. وأيضاً مع من كان يقيم فيها من المسيحيين الشرقيين من الأرمن والسيوريان البيزنطيين ^(٧٩).

وقد كان من الطبيعي أن يقيم الفرنج ما اعتادوا عليه من علاقات بنساء ورجال من الشرقيين، شرعية كانت أم غير شرعية. وقد بدأ ذلك أيضاً منذ دخول صليبي الحملة الأولى إلى الأراضي البيزنطية، كما حدد المؤرخ جيبتر دي نوجنت، حين روى لنا كيف أن رجال الفرنج قد سقطوا فريسة لسحر نساء بيزنطة وفضلوهم على نساء اللاتينيات، واجتمعوا بهم في المواخير البيزنطية ^(٨٠). كما يخبرنا ألبرت دكس بقصة راهبة من تريف كانت ضمن أفراد حملة بطرس الناسك وصادفها الفرنج في مدينة نيقية بعد أن سلمها السلاجقة إليهم، واتهمت بأنها كانت على علاقة بأحد الأتراك، وبعد أن أعفى عنها هربت من المعسكر الصليبي لتلحق بالتركي الذي هامت به حباً ^(٨١). وبذلك يكون الرجال والنساء من الفرنج على استعداد لإقامة علاقات مع الشرقيين والشرقيات سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين. وبعد استقرار الفرنج في الشرق كان من الطبيعي أن يرتكبوا الفواحش مع نساء غير لاتينيات، بل أنهم تعدوا ذلك إلى الزواج بمسيحيات شرقيات وعربيات ارتددن عن الإسلام كما توضح لنا عبارة المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى الشهيرة التي تعالج استقرار الفرنج في الشرق. فقد اتخذ بعض الفرنج زوجات لهم من السيوريان والأرمن وحتى من العربيات اللاتسي ارتددن عن الإسلام ^(٨٢). وقد أقدم الفرنج من كل الطبقات على الزواج من الشرقيات. فقد تزوج قادة اللاتين من الشرقيات وشجعوا أتباعهم

على القيام بذلك. فقد تزوج كل من الملك بولدوين الأول، والملك بولدوين الثاني، وجوسلين الأول كونت الرها من أميرات أرمينيات. كما تزوج كل من الملك بولدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) والملك عموري الأول من أميرات بيزنطيات^(٨٣).

وكان لدى الفرنج تناقض وجداني بخصوص زواج الفرنج بالمسلمين الذين بقوا على دينهم. فنجد مجلس نابلس وقد حرص على عدم ارتباط الفرنجسي أو الفرنجية بمسلمة أو بمسلم بأي شكل من الأشكال، سواء كان ذلك عن طريق علاقة شرعية أم غير شرعية بين الطرفين. وقد عاجلت قرارات مجلس نابلس من الثاني عشر وحتى السادس عشر هذه المسألة بصرامة بالغة. فإذا ثبت أن أي شخص قد نام مع امرأة مسلمة بإرادتها يعاقب الاثنان معا بأن يخصى الرجل ويجدع أنف المرأة^(٨٤). وإذا قام فرنججي باغتصاب امرأة مسلمة تنتسب إلى فرنججي آخر بالقوة يعاقب نفس العقاب السابق^(٨٥). كما حدد المجلس أيضا عقوبة صارمة للفرنجية التي تقيم علاقة جنسية مع رجل مسلم. فإذا جامع امرأة فرنجية رجلا مسلما بإرادتها، فيقع عليهما معا جزاء الزناة. أما إذا أخذ المسلم المرأة الفرنجية عنوة، فلا تعد هي مذنبه، ويخصى المسلم^(٨٦). وهكذا نجد أن القرارات الخمسة الأخيرة تحرم على الفرنج، رجالا ونساء، إقامة أي علاقات جنسية مع المسلمين من الرجال والنساء. وهنا لابد أن نضع في اعتبارنا أن المسلمين الذين تعايشوا مع التفرنج كانوا فئتين. الأولى وتضم المسلمين الذين لم يرغبوا في ترك مدتهم عند استيلاء الصليبيين عليها. وهؤلاء عاشوا في الإمارات الصليبية أحرارا، وتركزت غالبيتهم في المناطق الريفية وعملوا بالزراعة، ومنهم من عاش في المدن وامتحن حرفة من الحرف. ومنهم من أتى من المدن الشامية الداخلية للتجار في المدن التي احتلها الصليبيون. أما الفئة الثانية فتضم أسرى الحرب من المسلمين الذين اتخذهم الفرنج عبيدا للقيام بالعمل الشاق أو للعمل في منازلهم كمربيات وطباخين^(٨٨).

وإذا كان الفرنج قد أقبلوا على الزواج من مسيحيات شرقيات من الأرمن والسوريين والبيزنطيين، ونتج عن ذلك ظهور شريحة جديدة في المجتمع الصليبي أطلق على أفرادها اسم المولدون Poulain وانتمت إلى الفرنج بحكم المولد، فإن القادة الصليبيين قد حرصوا على عدم ارتباط رعاياهم من الفرنج بالمسلمين لما قد ينتج عن هذا الارتباط من مشاكل لم تنتج عن الارتباط بالمسيحيات الشرقيات. فلم يكن من السهل مثلا الاعتماد على هؤلاء الذين يولدون نتيجة للزواج بين المسلمين والفرنج في

قتال المسلمين. كما أن مشكلة العقيدة وانتماء الابن لعقيدة أبيه عند المسلمين كانت تشكل مشكلة اكبر. ومهما يكن من أمر، فلم ترد أية إشارة في المصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية عن زواج مسلم أو مسلمة بفرنجي أو فرنجية. وإذا كان المؤرخ فولشر الشارترى قد أخبرنا بأن الفرنج قد اتخذوا زوجات من العربيات اللاتن ارتد عن الإسلام، فمعنى ذلك أن الفرنج لم يقترنوا أبداً بمن تمسك بدينه من المسلمين والمسلمات. وإذا كان قانون مملكة بيت المقدس قد منح العبد غير المسيحي حريته إذا ما ارتد عن دينه^(٨٩)، فإن الزواج من عربيات مرتدات عن دينهن لم يلق القبول من القادة الفرنج على طول الخط. لأنهم في الأصل لم يتقبلوا فكرة تعميم العبيد ير المسيحيين. وكان دافع الفرنج من وراء ذلك هو حاجتهم إليهم كعبيد. حتى أن بعض السادة من اللاتين كانوا يمنعون العبد المرتد عن دينه من حضور الطقوس الكنسية^(٩٠). وقد حاول البابا جريجورى التاسع في عام ١٢٣٧م أن يوفق بين مصالح السادة اللاتين وبين مصلحة العقيدة المسيحية وانتشرها، بأن أصدر مرسوماً ألغى به قانون المملكة الصليبية المؤلف، بأن سمح للعبد غير المسيحي باعتناق المسيحية دون أن تتغير صفة كعبد^(٩١). إلا أن السادة اللاتين لم يضعوا قرار البابا حيز التنفيذ. واستمرت معارضتهم لقبول العبد المرتد عن دينه - حتى بعد اعتناقه للمسيحية - كعضو في المجتمع الصليبي حتى عام ١٢٥٣، حين هددهم المندوب البابوي الذي جاء إلى الشرق لحل المشكلة بالحرمان من الكنيسة إذا لم يمثلوا لقرار البابا^(٩٢).

ومهما يكن من أمر، فإن قرارات مجلس نابلس، إذا كانت قد حرمت وقوع أي لقاء جنسي بين اللاتين والمسلمين، فإن الهدف من ذلك لم يكن بسبب الاتصال بجنس آخر غير الفرنج، وغنما لتحريم الارتباط بأهل عقيدة مخالفة. فلم يكن العنصر هو المانع وإنما العقيدة. لذلك كان قانون المملكة الصليبية يعطى الحرية للفرنج في الاقتران بمسيحيين شرقيين أو حتى عرب مرتدين عن دينهم، أما الزواج بالمسلمين فكان عقابه صارماً^(٩٣).

وحتى لا يدفع أحد من المتهمين بمعاشره الآخر جنسياً، بأنه أتى بهذا الفعل عن جهل بهوية شريكة، فقد أصدر المجلس قراراً لمواجهة هذا الإدعاء بأن حرم على المسلمين من الرجال والنساء أن يرتدى أي منهما زياً فرنجياً، وإلا تحول إلى القنية^(٩٤). وتكمن المشكلة هنا في أن القرار تعلق بالمسلمين فقط. وترك الحرية للفرنج ليرتدوا ما يشاءون من ملابس. وبذلك تكون الفرصة متوفرة للفرنجي - رجل كان أو امرأة - أن

يتعلل، إذا ما قام علاقة جنسية بمسلم أو مسلمة، بأنه لم يتعترف على هوية شريكة لارتداء الأخير ملابس فرنجية. وبذلك اتسم هذا القرار بالقصور، وبقيت مخالفته قائمة، خاصة أنه كان من السهل للفرنج أن يتخفوا في زي المسلمين. وكانت الظروف الجديدة، ومناخ الشرق المختلف تماماً عن مناخ الغرب، خاصة فصل الصيف الحار^(٩٥). فاضطروا إلى اتخاذ ما يخالف ما كان مألوفاً لهم من الملابس. فارتدى الرجال منهم العباءات والكوفيات العربية. أما النساء فقد اتبعن الزي الشرقي التقليدي لنساء الشرق وخاصة عند الخروج من منازلهن حيث ارتدين الحجاب شأن النساء المسلمات، وتعطرن بنفس عطورهن، وهذا ما دفع جاك دي فترى إلى توجيه لومه الشديد إلى الفرنج لتشبههم بالمسلمين واختلاط بهم واتباع عاداتهم، دون أن يضع في اعتباره عد استطاعة الفرنج تجنب ذلك^(٩٦). أما القرارات الثامن عشر والتاسع عشر، فقد عالجا العلاقة بين الزوجين من اللاتين. فإذا تزوج شخص من زوجة شخ آخر ودخل بها دون أن يعلم بأمر زوجها، لابد أن يتفصل عنها، ويصرح له بالزواج من أخرى^(٩٧). وإذا رغب شخص في الانفصال عن زوجته ليتزوج بأخرى رغم بقاء زوجته على قيد الحياة، فعليه أن يثبت -بشهود- خيانتها له، ويعرض الأمر على رئاسة الكنيسة^(٩٨). وبذلك يكون المجلس قد حرص على استقامة العلاقة الزوجية بين الفرنجي وزوجته، وشرعية هذه العلاقة، وعدم اتجاه أي منهما إلى ارتكاب الفاحشة. وكان القراران العشرون والحادي والعشرون يخصان مخالفات رجل الدين. فإذا ما أشهر أحد رجال الدين السلاح دفاعاً عن نفسه فلا يعتبر مخطئاً، ولكنه إذا ما استخدم جماعة مسلحة يقومون بالاعتداء على غيره، فعليه أن يسحب جماعته ويعترف بالأمر ثم يمثل أمام البطريك، وإذا أخفى الأمر أكثر منذ ذلك فعليه أن يمثل أمام المجلس الاستشاري للملك والبطريك^(٩٩). وإذا ما ارتد كاهن أو رجل دين نظامي، فغما أن يعود عن ذلك أو يعود إلى وطنه^(١٠٠).

أما القرارات الثلاثة الأخيرة فإنها تتصدى لجرائم السرقة. وتزخر المصادر اللاتينية التي عالجت تاريخ الصليبيين في الشرق بروايات عن قيام الفرنج بارتكاب هذه الجريمة. فيخبرنا ريمونداجيل عن قيام كثير من الفرنج بسرقة الأطعمة الخاصة بغيرهم من الفرنج أثناء حصارهم لإنطاكية، ومعرة النعمان، وبيت المقدس عندما كانت تقلل الأقوات لديهم^(١٠١). كما يخبرنا فولشر الشارترى أن الصليبيين بعد استقرارهم في الشرق قد اعتادوا على سرقة المحاصيل من حقول جيرانهم من بني جلدتهم من الفرنج، إلى جانب سرقة أدوات الزراعة^(١٠٢). وحتى يجد مجلس نابلس من انتشار هذه الجريمة

فقد تقرر أنه أدين شخص بتهمة بالسرقة أو قطع الطريق وكان ضحية فعلته ثلاثة أشخاص، يحرق بوصمة في وجهه ويضرب بالسياط، وتعاد المسروقات إلى أصحابها. وإذا عاد السارق أو قاطع الطريق إلى فعلته ثانية فتبتسر كل أعضاء جسده أو يقتل^(١٠٣). أما إذا كان السارق قاصرا، فيلقى القبض عليه ويعرض أمره على الملك ليقرر ما يمكن اتخاذه بشأنه من إجراءات^(١٠٤). وكذلك إذا كان السارق من البارونات، وقبض عليه متلبسا بجريمة السرقة، يرسل إلى الملك ليصدر حكما بشأنه^(١٠٥).

وهكذا، كانت كل القرارات مجلس نابلس من الرابع وحتى الخامس والعشرين، بمثابة قوانين أصبحت جزءا من قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية. ولما كانت كل المخالفات التي عاجلتها هذه القوانين، مخالفات أخلاقية، فقد كانت تنظر أمام الحاكم الكنسية. ونلاحظ أن بعض المخالفات قد أحيلت إلى محكمة الملك، وهي المخالفات التي عاجلتها القرارات السادس، والعشرون، والرابع والعشرون، والخامس والعشرون. وبعد هذا الإجراء توسيعا لنطاق صلاحيات محكمة الملك^(١٠٦).

أما القرار الثاني والعشرون فيؤكد على ضرورة إثبات أي تهمة يوجهها شخص إلى شخص آخر، وإلا تعرض للعقاب على اتهامه الجزافي لغيره دون تقديم دليل^(١٠٧).

وهكذا، إذا كان الفرنج ق اعتادوا على ارتكاب الفواحش والجرائم، وإذا كان رجال الدين والقادة اللاتين قد حاولوا الحد من هذا السلوك، فإن جموع الفرنج لم تكن تلتزم بالمحاذير التي يصدرها هؤلاء إلا حين صدورها، أي قبل القيام بحرب ضد المسلمين أو حين تحيط بهم مجاعة أو كارثة طبيعية كحدوث زلزال مدمر، أو بهجوم القوارض على أراضيهم فتأتى على الأخضر واليابس في الأقاليم التي احتلوا في بلاد الشام. وكانت هذه الإجراءات عادة تتضمن أعمال التوبة والتكفير مثل أداء الصلوات والصوم أو توزيع الصدقات^(١٠٨). وسرعان ما كان الصليبيون يعودون ما جلبوا عليه من التدني الأخلاقي. لذا تعتبر قرارات مجلس نابلس بمثابة أول تشريع صليبي ثابت يعالج هذه المشكلة. وإذا كانت عقوبات مجلس نابلس قاسية، فإن المقصود بها كان بالدرجة الأولى الزجر. إلا أنه كما رأينا فإن بعض القرارات كان يستعاض عنها بأحكام عقوبات أخرى في حالة التوبة. ولا تظهر القرارات المدرك السفلى الذي وصلت إليه أخلاق الفرنج فحسب، بل تشير أيضا إلى اضطراب القسانون وانعدام وحدته في المملكة الصليبية حتى انعقاد مجلس نابلس. وإذا كان هناك بعض القصور قد شاب بعض قرارات المجلس، إلى جانب ما جبل عليه الفرنج من تناقض أخلاقي لم

يقض على مخالفاتهم الدينية. وبقيت طبائع الفرنج وبقي التدنّي الأخلاقي يسود تصرفاتهم. فقد أباح المندوب البابوي أودو Odo of Chateauroux الذي وصل الى الشرق لمعالجة مشكلة العبيد غير المسيحيين المرتدين عن دينهم، في عام ١٢٥٣م، أباح لجوانفيل مؤرخ حملة ريتشارد عما انتابه من غضب لما لمسة من تدنّي في أخلاق الفرنج وأخبره بأن "لا أحد يعرف مثلي الخطاياا الشائنة التي ترتكب في عكا، ولا بد سيحدث أن ينتقم الرب بغسل مدينة عكا بدماء سكانها، وحيث سيأتي أناس آخرون للعيش فيها" (١٠٩).

وبينما كانت القرارات الثلاثة الأولى التي اتخذها المجتمعون في مجلس نابلس والتي أنهى بها الملك بمقتضاها تحكم السلطنة الزمنية في عشور الكنيسة التي دعمت موقفة الضعيف في مسألة اعتلاء العرش، فإن القرارات الباقية كلها جاءت مرتبطة أيضا بظروف الصليبيين بصفة عامة، وبظروف مملكة بيت المقدس بصفة خاصة، أي بما كان الملك بولدوين الثاني ينوي القيام به من أعمال، وما يتخذه من إجراءات. فقد كان بولدوين يسعى إلى تحسين أحوال المملكة لتمكين من حماية الكيان الصليبي بصفة عامة، وخاصة الإمارات الصليبية في شمال الشام، بعد ازدياد خطر المسلمين بعد دحرهم لجيش إنطاكية بعد أن انفض اجتماع مجلس نابلس لتلبية لاستغاثة البطريك الأنطاكي لنيل مساعدة الملك ضد هجمات إيلغازي الأرتقي عليها في مايو ١١٢٠م/صفر ٥١٤هـ. .. وكان بولدوين يتوقع ذلك ومستعدا له كما يخبرنا وليم الصوري (١١٢). وفي صيف ١٢٢١م/٥١٥هـ اضطر الملك إلى مواجهة طغتكين أتاك دمشق الذي أغار على إقليم الجليل (١١٣). ثم قام في أوائل عام ١١٢٢م/٥١٦هـ بالتوجه إلى إنطاكية مرة أخرى للتصدي لإغارات بلط ابن شقيق إيلغازي الأرتقي (١١٤). وأخيرا توجه عام ١١٢٣م/٥١٧هـ (١١٥). إلى جانب ذلك فهناك ما خطط بولدوين الثاني للقيام به، ويعد أهم أعماله السابقة، وهو التوسع على حساب المسلمين بعد النهوض بمهمة حماية الإمارات الصليبية الشمالية ومملكته من الخط الإسلامي. وكان ذلك هو محاولة الاستيلاء على مدينة صور. وتم بالفعل وإن كان دون مشاركة الملك فيه لوقوعه أسيرا لدى المسلمين (١١٦). فمن نص الاتفاقية التي وقعها البطريك جيرموند مع البنادقة الذين ساعدوا على احتلال صور، نعرف أن بولدوين كان يعد نفسه بالفعل للقيام بذلك. فنجد البطريك يعلن للبنادقة عن

تأكيد "وعود الملك المذكور بولدوين وفقًا للاقتراحات المقدمة في رسائله وكتبه التي كان نفسه قد أرسلها من قبل بواسطة رساله إلى البندقية" (١١٧). ومهما يكن من أمر، فإن ك هذه الأعمال كانت تحتاج لترتيب أمور المملكة فكانت قرارات مجلس الخطوة الأساسية لتنفيذ ذلك.

أما عن الإجراءات التي كان بولدوين ينوي اتخاذها بعد أن ينتهي من مجلس نابلس كانت قرارات هذا المجلس تعد تحسباً لتداعيات ربما تنشأ عن اتخاذ هذه الإجراءات. فقد لاحظ بولدوين الثاني قلة عدد سكان مدينة بيت المقدس التي تقل فيها المؤن، فعمل بناء على طلب البطريك على أن تزود المدينة بالمؤن بشكل أوفر، وعلى زيادة عدد سكانها، ثم على إرضاء البطريك في ذات الوقت. فأصدر في أوائل عام ١١٢١م قراراً بإعفاء سكان المدينة من اللاتين من الضرائب المفروضة على السلع التي كانوا يتاجرون فيها. كما سمح للتجار من الأرمن والسوريين والبيزنطيين وحتى المسلمين بالتروح إلى المدينة وجلب الحبوب دون فرض أية ضرائب عليهم. كما ألقى بولدوين الضرائب المفروضة على المكاييل والموازين (١١٨). كل ذلك لينعش الحياة الاقتصادية في المدينة، ويكون في نفس الوقت قد حرص على إرضاء البطريك الذي لعبت مصلحته المالية، فضمن له بولدوين انتعاش خزائنه (١١٩). وبذلك تكون قرارات مجلس نابلس قد ارتبطت تماماً بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية والصليبيين بصفة عامة، وبظروف الملك بولدوين الثاني الذي عمل في المقام الأول على شراء رضى الكنيسة.

أما عن موقف المؤرخين من مجلس نابلس وقراراته، فإن فولشر الشارترى كان من المفروض أن يرحب -مرجل دين- بهذا الحدث الذي يعتبر صلحاً بين السلطتين الزمنية والدينية في المملكة الصليبية. إلا أنه لم يذكر عنه شيئاً بالمرّة. وربما بدا له -كقسط خاص للملك- الأمر على أنه هزيمة للملك أمام البطريك (١٢٠).

أما عن وليم الصوري الذي كرس حوليته لسرد تاريخ الصليبيين بصفة عامة ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة، فقد أخبرنا بقصة مجلس نابلس، وكرس لها فصلاً كاملاً من كتابه، كما أخبرنا كيف اجتمع المشاركون في الاجتماع، وكيف ألقى البطريك في بداية الاجتماع عظمه التحذيرة، وكيف شعر المجتمعون بأن عليهم أن يتوبوا عن آثامهم، وكيف أصدروا خمسة وعشرين قراراً. إلا أن وليم لم يأت بإشارة واحدة عن تفاصيل هذه القرارات. وكتب أنه "يمكن لأي شخص يرغب في قراءة هذه القرارات

أن يجده بسهولة في سجلات كنائس كثيرة^(١٢١). وإذا كانت هذه العبارة تفيد بأن وليم نفسه كانت لديه نسخة، على الأقل النسخة التي كانت تخص سجلات كنيسة صور التي كان هو رئيسا لها؛ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يورد وليم نصوص هذه القرارات، مع أنه أورد لنا تفاصيل قرارات اتخذها مجالس ملوك بيت المقدس الآخرين؟ أورد نص القرارات التي أصدرها التي أصدرها مجلس الملك عموري الأول في نهاية عام ١١٦٦م حين فرض ضريبة العشر على دخل رعاياه استعدادا لحملة المرتقة على مصر في عام ١١٦٧م^(١٢٢). كما أورد وليم تفاصيل فعاليات مجلس الملكة برئاسة الملك بولدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م) المنعقد في فبراير ١١٨٣م لدراسة الموقف الصليبي بعد تمكن صلاح الدين الأيوبي من تحقيق نجاحات كبيرة تهدد الكيان الصليبي^(١٢٣). ورأى المجلس أن تكاليف الدفاع المستزايدة عن المملكة تستنفذ كل مواردها، لذلك تقرر فرض ضريبة عامة يخضع لها كل سكان المملكة من رجال دين وعلمانيين. كما أورد وليم النص الكامل لقرارات ذلك المجلس^(١٢٤). وإذا كان مؤرخنا معاصرا لمجلسي عموري وبولدوين الرابع، ولم يكن معاصرا لمجلس نابلس، فإنه لم يكن معاصرا أيضا لحدث وقع اجتماع مجلس نابلس بأربعة أعوام، ويقع في عهد بولدوين الثاني نفسه، وهو توقيع اتفاقية التعاون بين مملكة بيت المقدس والبنادقة التي وقعها البطريرك جرموند نيابة عن الملك. وقد أورد وليم النص الكامل لهذه الاتفاقية، حتى أنه سجل أسماء من وقع عليها من رجال المملكة^(١٢٥). وللوقوف على حقيقة رد فعل وليم الصوري تجاه مجلس نابلس وقراراته، يجدر بنا الانتباه إلى تأثير كون وليم رجل دين، وفي نفس الوقت كونه رجل الملكية الصليبية، على كتابته التاريخية. فإذا كنا قد ذهبنا من قبل إلى أن قرارات مجلس نابلس تعد تنزلا من قبل الملك بولدوين الثاني عن سلطات مارسها سابقوه ملوك بيت المقدس للكنيسة، فإن وليم الصوري كرجل دين مناصر للحرية الكنيسة *libertas ecclesiae*، فإنه أيضا كان مؤرخا ملكيا، ومثل فولشر الشارترى، وربما اعتقد أنه من القطة أن يحذف من روايته عن مجلس نابلس نص القرارات التي اتخذها المجلس حتى لا يظهر الملكية في روايته وقد ضعفت أمام الكنيسة، وبذلك يكون وليم قد تجاذبه تأثير ارتباطه بالكنيسة، وتأثير ارتباطه بالملكية في آن واحد؛ وهذا ما دفعة إلى أن يعدل بينهما على مدى كتابه^(١٢٦). إلى جانب ذلك، إذا كانت محاولة الملك بولدوين الثاني استرضاء الكنيسة نظرا لضعف موقفه من مسألة اعتلائه العرش عند اختياره ملكا بمساندة جوسلين والبطريرك أرنولف-التي اعتبرها وليم نفسه وسيلة غير شرعية-قد بدأت في عهد

أرنولف، وأن تفاوضا بين الملك والبطريك قد تم بشأن هذه القرارات ثمنا لتأييد البطريك لعملية اختيار بولدوين ملكا، وأن تنفيذها-لموت أرنولف- قد بدأ في عهد خلفه البطريك جيرموند، فإن طلب إنهاء التحكم العلماني في العشور الكنسية يعد من إنجازات أرنولف. ولما كان وليم يتخذ موقف الرفض من اعتلاء أرنولف نفسه كرسي البطريكية^(١٢٧). فإنه من السهل أن نفهم لماذا تحدث وليم عن مجلس نابلس بصفة عامة دون ذكر القضية الأساسية، وهى العلاقة بين الملك والبطريك، ومحاولة بولدوين تحسين العلاقة بين السلطين الزمنية والدينية في المملكة، لضعف موقفه أمام البطريك. وربما كان إحجام وليم عن ذكر نصوص القرارات قد أوحى لكثير من المؤرخين الحديثين بعدم أهميتها الأمر الذي أدى إلى عدم شد انتباههم إلى مجلس نابلس.

وهكذا جاء مجلس نابلس اجتماعا شاملا ضم كل رجالات مملكة بيت المقدس الصليبية وعقد بسبب المحن التي أحاطت بها-وبالكيان الصليبي ككل. من قبل الطبيعة من جهة والمسلمين من جهة أخرى، لتحقيق أهداف معلنة، وهى إصلاح أحوال المملكة المتردية، ورفع المستوى الأخلاقي للفرنج والمحافظة على النظام استعدادا لمواجهة الخطر الإسلامي المهدق بهم. إلى جانب أهداف لم تعلن وهى إصلاح ذات البين الكنيسة والدولة. وشكلت قرارات المجلس-وإن شاب بعضها القصور-قانونا وضع ليفى باحتياجات المجتمع الفرنجى بالمملكة الصليبية. وارتبط ارتباطا وثيقا بظروفها وبظروف الملك بولدوين الثاني نفسه، وبظروف الكيان الصليبي ككل. وأهم ما تحقق من الأهداف التي سعى المجلس إلى تحقيقها هو التصالح بين الكنيسة والدولة، ونتج عن ذلك قيام التعاون بين الطرفين. وكانت درجة هذا التعاون، التي أدت إلى وضع هذه التشريعات، فألا حسنا لوحدة الفرنج في مواجهة المشاكل التي أحاطت بهم، تلك الوحدة التي لم يكن هناك أى دليل على قيامها منذ عام ١٠٩٩م. وظهرت قيمة هذا التعاون بين الدولة والكنيسة في عام ١١٢٤م. فقد تفاوض البطريك جيرموند مع البنادقة باسم الملك. ومنحهم مقابل مساعدتهم للفرنج في الاستيلاء على صور، امتيازات أكدها الملك بعد فك أسره. وتم الاستيلاء على صور. وحفظ البطريك المملكة من الخطر حتى يطلق سراح عاهلها. وفي كل ذلك تصرف البطريك

كرئيس للدولة^(١٢٨). وكان ثمن كل ذلك قد دفعة الملك مقدما حين تنازل عن حقوق وسلطات لم يتنازل عنها سلفه من قبل. وهذا ما دفع وليم الصوري، مؤرخ المملكة، ورجل المملكة الصليبية، ورجل الكنيسة في آن واحد، إلى أن يتغاضى عن تسجيل قرارات المجلس التي وقف على نصوصها حتى يحفظ للملكية وقارها دون يمس وقار الكنيسة.

بيان بالمختصرات

BED	-Bulletin des Etudes Orientale.
Chron Anon Syr	-Anonymous Syriac Chronicle, ed. A.S. Triton, in Journal Royal Asiatic Society (London, 1933).
CHR	-The Catholic Historical Review.
CS	-Crusade and Settlement papers read at the First Conference of the Society for the study of the Crusade and the Latin East and presented to R.C. Smail, ed. P.W. Edbury (Cardiff, 1985).
JA	-Journal Asiatic.
JEH	-Journal of Ecclesiastical History.
Outmer	-Outmer. Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer eds. B.Z. Kedar, H.E. Mayer, and R.C. Smail (Jerusalem, 1982).
PPTS	- Palestine Pilgrims Text Society (London, 1896- 1907).
RHC Oc.	-Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux. 5 vols. Paris, 1844-95.
RHC Lois	-RHC Lois. Les Assises de Jerusalem. 2 vols. Paris, 1841-3.
RHC Doc Arm	-RHC Documents armeniens. 2 vole. Paris, 1869-1906.
RRH	-Regesta Regni Hierosolymitani (1097-1291), Compiled by R. Rohricht, Insruck, 1893, Additamentum, 1904.
RS	-Rolls Series: Rerum Britannicarum Medi Aevi Scriptores. (London, 1858-96).
WT	-Wiliam of Tyre. Chronicon, ed. R.B.C. Huygens, Corpus Christianorum, Continuatio Mediaevalis, 63163 A, 2 vols. (Turnhout, 1986)

الهوامش

(١) William of Tyre, *A History of Deeds Done beyond the sea*, 2 Vols., trans. E. Babcock and A.C. Krey (New York, 1943), vol.1, pp. 535-536.

(٢) وجاء ذلك في عدة أسطر قليلة، وهناك من مر على هذا الحدث في صمت تام. ولم يتناوله بشكل أوسع إلا المؤرخ الألماني هانز ماير من خلال معالجته للقوارات الثلاثة الأولى التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس، ليوضح مدى تأثير الصراع بين السلطين الزمنية والدينية في غرب أوروبا حول مشكلة التنصيب على مملكة بيت المقدس الصليبية دون التعرض لأحوال المملكة الصليبية. وانظر :

H.E. Mayer, *The Concordat of Nablus*, in *JEH* 33 (1982), pp. 531-43.

WT, 563-4. (٣)

Ibid., p. 563. (٤)

Cerbanus Cerbani, *Translatio mirifici martyris Isidori a chio insula in civitatem venteam* in *RHC Oc.* 5, pp. 322-3. (٥)

J.C. Mansi, ed., *Sacrorum Consiliorum nova et amplissima Collectio* (Paris 1901-1927) xxi, p 261. (٦)

(٧) وكذلك اعتبره كل من براور وجان ريشار "برلمانا" بينما اعتبره لاموننت اجتماعا للمحكمة العليا يرأسها الملك، وجلسا كنسيا الذي كان يرأسه البطريك. أنظر

Mayer, *op. Cit.*, p. 53; J. Prawer, *Crusader Institutions* (Oxford, 1980), p. 15; J. Richard, *The Latin kingdom of Jerusalem*, Trans. J. Shirlet, 2 vols. *Europe in the Middle Ages: Selected Studies*, 2 (Amsterdam, 1979), p. 68; J.L. La Monte, *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (1100 To 1291)* (Cambridge, 1932), p.9.

William of Tyre, vol. 1, pp. 535-536. (٨)

Ibid., vol. 1, p. 536. (٩)

Fulcher of Charters, *Gesta Francorum Iherusalem* . (١٠)

Frances Rita Rayan as *A History of the Expedition to Jerusalem*, Tennessee, 1969, p. 225; Albert d Aix, *Historia Hierosolymitana*, in *RHC Oc* 5, p. 706.

Fulcher of Chartres, pp. 210-218-219; William of Tyre, vol. I, (١١)
p. 535.

Fulcher of Chartres, pp. 218-219. (١٢)

Daniel, Russian abbot, «The Pilgrimage of the Russian abbot (١٣)
Daniel in the Holy land», trans. C.W. Willson, in PPTS., 4.
(London, 1888).

وقد رجعنا للترجمة العربية لهذا الكتاب. أنظر :

-دانيال الراهب: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة،
ترجمة سعيد البشاوي وداود إسماعيل أبو هديّة، عمان ١٩٩٢م. ص ٦٨،
١٠٨. راجع أيضا :

J. Prawer, «Agricultural Conditions in the Crusader states»,
in *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, 6 vols.
(Madison, 1989), 5, p. 262.

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد
العربي في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٠٠؛ محمد محمد مرسى
الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية
١٩٧٤م، ص ٥٥، ٩.

Chron. Anon. Syr., p.86. (١٥)

William of Tyre, vol. 1, pp. 523-4. (١٦)

Fulcher of Chartres, pp. 225-6 (١٧)

(١٨) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢ ج، القاهرة ١٣٠١هـ، ج ١٠، ص
٢٣٠-٢٩

(١٩) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٣٥.

William of Tyre, Vol. I, p. 528. (٢٠)

(٢١) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م،

ص ١٩٩-٢٠٠؛ ابن العلم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ ج، تحقيق
سامي الدهان، دمشق ١٩٥١م، ج ٢، ص ١٨٧-١٨٩. راجع أيضا:

Walter the Chancellor, «Bella Antiochena, in *RHC Oc.*, Vol.
5, pp.101ff; William of Trye, vol. 1, pp. 530-1.

(٢٢) ابن العلم: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٢-١٩٦. راجع أيضا

Walter the Chancellor, op. cit., p. 120-122.

(٢٣) بعد موقعة ساحة الدم. اجتمع بولدوين مع نبلاء إنطاكية اللاتين وبطريرك
كنيستها برنارد وتقرر أن يتولى الملك الوصاية على إنطاكية حتى وصول

- بوهيمند الثاني من العرب . وفي هذا الاجتماع تقرر أيضا أن يبعث الفرنج بطلب المساعدة من الغرب. التي نتج عنها وصول الأسطول البندقي في عام ١١٢٣م ومساعدته للفرنج في الاستيلاء على صور فلا عام ١١٢٤م. أنظر :
- Fulcher of Chartres, p. 231; CF. also J. Riley-Smith, «The Venetian Crusade of 1122-4», in *the Italian communes in the Crusading kingdom of Jerusalem* eds. G Airaldi and B.Z kedar (Genoa, 1986), p. 340; J. Phillips, «*Defenders of the Holy land*» (Oxford, 1998), p. 14.
- William of Tyre, vol. 1, pp. 424-7. CF. also, Steven Runciman- (٢٤) an, «A History of the Crusade», 2 vols. (Cambridge, 1968), vol. 2, pp. 156-8.
- Ibid., vol. 2, pp. 519-21. (٢٥)
- Fulcher of Chartres, 226 . (٢٦)
- Ibid., pp. 228-9. (٢٧)
- “Le liver au roi” in *RHC Lois*, Vol. I, pp. 616-617. CF. also, kingdom P.W. Edbury, «The baronial coinage of the Latin of Jerusalem», in *Coinage in the Latin East*, ed. P.W. D.M. Metcalf. (Oxford, 1980), pp. 66-9; J. Edbury and Riley-Smith, «Further Thoughts on Baldwin II's établissement on the Confiscation of Fiefs», in *CS*, pp.176-180. (٢٨)
- William of Tyre, Vol. I, p. 536. (٢٩)
- Mansi, xxi, C. 2, 263 (٣٠)
- Mansi, xxi, C. 1, 263 (٣١)
- Mansi, xxi, C. 2, 263. (٣٢)
- Mayer, op. cit., p. 539. (٣٣)
- H. Mayer, «*The Crusades*» (Oxford, 1972). (٣٤)
- وقد رجعنا للنسخة العربية لهذا الكتاب ، أنظر
- هانز ماير: تاريخ الصليبية، ترجمة وتعليق، عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا ١٩٩٠م، ص ٢٥١
- Mansi, xxi, C. 1, 263 (٣٥)
- Mansi, xxi, CC. 2,3,263. (٣٦)
- Mayer, The Concordat, op. cit., p. 534; J. Parwer, «*The Latin Kindom of Jerusalem*» (London, 1972), p. 337; B. Hamilton, «*The Latin church in the crusalder satated; the secular church*», (London, 1980), p. 145 (٣٧)
- RRH, no. 40, p. 7. (٣٨)
- RRH, nos. 67,74-75 pp.15,17. (٣٩)

- RRH, no. 67, pp. 14-15, no. 74-75, pp.16-17, CF. Also, Mayer, (٤٠)
op. cit., p. 541.
- J. Richard, op. cit., p. 107. (٤١)
- يقع على مسافة ٥٢,٥ كيلو متر غربي بحيرة طبرية. أنظر: دانيال الراهب، (٤٢)
المصدر السابق، ص ١٢٠.
- RRH. no. 36, pp. 5-6. (٤٣)
- RRH, no. 51, p. 10. (٤٤)
- تحمل الوثيقة التي تتضمن نص الاتفاقية بين بوهيمند ودير القديس
سلفادور بجبل طابور تاريخ ٢٥ مارس / ٣١ أغسطس ١١٠٠م. ولما
كان الملك بولدوين لو يكن قد وصل من الرها بعد ليتسلم مقاليد
حكم مملكة بيت المقدس الصليبية إلا في ٩ نوفمبر من
نفس العام وتزوج ملكاً في ١١ نوفمبر. فمن المؤكد أن
تكرر قد عقد الاتفاقية مع الدير قبل وصول بولدوين.
وأكد بولدوين الوثيقة بعد ذلك. في ٣١ أغسطس من عام ١١٠٦م.
راجع أيضاً: سعيد البشاوي: الممتلكات الكنيسة في مملكة بيت المقدس
الصليبية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ١٨٩-١٩٠.
- Fulcher of Chartres, pp. 222-3; William of Tyre, vol. 1, pp. (٤٥)
518-9; Albert d'Aix, op. cit., pp. 606-609.
- Fulcher of Charters, pp. 225; William of Tyre, vol. 1, pp.520. (٤٦)
- Fulcher of Charters, p. 232. (٤٧)
- William of Tyre, vol. 1, p. 520. (٤٨)
- ما من بطريك تولى منصبه في كنيسة بيت المقدس إلا وانتهى أمره بالعزل بعد (٤٩)
وقوع خلافات بينه وبين الملك بولدوين الأول. وكثيراً ما انتصر بولدوين.
وعن علاقة الملك بالبطارقة أنظر:
- Hamilton, «The Latin Church», pp. 55-58, 61-63, 67-68.
راجع أيضاً: سعيد البشاوي: الممتلكات الكنيسة، ص ١٠٧-١٢٩.
- كل النقائص التي التصقت بالبطريك أرنولف أوردها وليم الصوري وحده. (٥٠)
وقد اتخذ موقف الرفض والعداء من البطريك على طول الخط. أنظر .
- William of Tyre, vol. 1, pp. 489, 505-6. CF. Also; J.
Richard, «The political and Ecclesiastical Organization of
the Crusader States», in Setton, vol. 5, pp. 61, 237; P.W.
Edbury and J. Row, «William of Tyre: Historian of the Latin
East» (Cambridge, 1988), p. 112.
- William of Tyre, vol. 1, p. 520. (٥١)
- Fulcher of Charters, pp.237-8; William of Tyre, vol. 1, p. 522. (٥٢)

- راجع أيضاً : هايتز ماير: تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢١ .
- (٥٣) هذا ما أعلنه كل من البابا أوربان الثاني، والبابا إيوجنيوس الثالث، وسار على نهجهم كل دعاة الحروب الصليبية في الغرب واصبح تعبير *reissio peccatorum* «غفران الذنوب» شائعا في خطابات هؤلاء. أنظر الترجمة الإنجليزي لهذه الخطابات في :
- Louise and J. Riley-Smith, (eds.) «*The Crusades: Idea and Reality*» (London, 1981), pp. 37-53, 57-59.
- (٥٤) Marshal, W. Baldwin, «*Western Attitude towards Islam*», in *CHR*, vol. xxvii, n.y, p. 405.
- وعن تطور فكرة الحرب المقدسة في غرب أوروبا وارتباطها بالحروب الصليبية، راجع: قاسم عبده قاسم : الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١١ وما بعدها.
- (٥٥) J. Riley, Smith, «*What were the Crusades*» (New Jersey, 1977), pp. 54-62.
- وعن تطور مفهوم الغفران عند الصليبيين راجع البحث الشامل الذي أجراه الدكتور قاسم عبده قاسم في هذا الصدد. أنظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد ١٤٩، الكويت ١٩٩٠م، ص ٢٨-٣٤.
- (٥٦) James A. Brundage, «Prostitution, Miscegenation and sexual Purity in the First Crusade», in *CS*, p. 57-62.
- (٥٧) Fulcher of Charters, p. 85.
- (٥٨) «*Historia et gesta ducis Godfrid*», in *RHC Oc.*, Vol. 5, p. 466.
- (٥٩) Guibert de Nogent, «*Historia que dictur Gesta Dei per Francos*», in *RHC. Oc.*, vol. 1, p. 181.
- (٦٠) Albert d'Aix, op. cit., pp. 370-371.
- (٦١) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتعليق، حسن عطية، الاسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٢٠؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٨١. راجع أيضاً:
- Robert Monachus, «*Historia Ecclesiastica*», ed. M. Chibnall, 6 vols. (Oxford, 1969), vol. 5, p. 98.
- (٦٢) ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٤٣.
- (٦٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 416.

- (٦٤) Mansi, xxi, C.4,263.
- (٦٥) Mansi, xxi, C. 5, 263.
- (٦٦) راجع ايضاً: أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، الولايات المتحدة الأمريكية، برنستون ١٩٣٠، ص ١٧٤.
- (٦٧) Mansi, xxi, C.6, 264-264.
- (٦٨) كانت للبطريك هرقل علاقات غرامية مثيرة للدهشة. وخاصة مع باشيا دى ريفيرى Pasque de Riveri زوجة فرنجى صاحب حانوت فى نابلس، التي هام بها البطريك حبا، وجعلها تأتيه الى بيت المقدس أكثر من مرة وبقيت عنده أكثر من خمسة عشر يوماً في إحدى زياراتها له. وبعد موت زوجها استقدمها البطريك إلى بيت المقدس واشترى لها بيتاً وجعلها تقيم بالقرب منه. أنظر:
- «Etoire d'Eracles», in *RHC Oc.*, vol. P. 60. CF. Also, B. Z. Kedar, «The Patriarch Eraclius», in *Outermer*, pp. 180-183.
- (٦٩) وشاهد هذه البيوت مؤرخو الحملة الصليبية الثالثة.
- «Itinerarium Peregrinorum et gesta regis Ricardi», ed. W. Stubbs, in *RS* (London, 1865) pp. 248,283-6; Ambroise, «*The Crusade of Richard Lion-Heart*», trans. H. J. Hubert (New Yourk, 1928), pp. 233,277-278.
- (٧٠) Mansi, xxi, C.7,264.
- (٧١) أنظر ما سبق ، ص ١٣.
- (٧٢) Guibert Nogent, op. Cit., p. 133.
- (٧٣) Mansi, xxi, C. 8, 264.
- (٧٤) Mansi, xxi, C. 9, 264.
- (٧٥) Mansi, xxi, C. 10, 264.
- (٧٦) Mansi, xxi, C. 11, 264.
- (٧٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٠، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٢-٢٢٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص ١٤١، ١٤٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ١١٥-١٣٥، مجهول: أعمال الفرنجة، ص ١٢٠؛ ريمونداجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٦٩، ٢٤٧.
- (٧٨) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧، ٢٧٣، ٢٤٣، ٢٦١-٢٦٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص ١٠١، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢، ٢٦٣-

٢٦٥؛ العظيمى: تاريخه، نشرة كلود كاهن (بالعربية) في الجريدة الآسيوية.
أنظر:

Al-Azimi, «Chronique», ed., C. Cahen, in *JA*, tom. ccxxx, 1938, p. 380.

راجع أيضاً: جوزيف نسيم يوسف: معركة حطين، خلفياتها ودلالاتها،
مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول، الكويت ١٩٨٩م، ص ٢٤٥.

H. Mayer, «*Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem*», in *History*, vol. 63 (1978), pp. 175-92P J. Praver, «*Social classes in the Latin Kingdom of Jerusalem: the Minorities*», in *Setton*, vol. 5, pp. 61-66.

Guibert de Nogent, op. cit., p. 133. (٨٠)

Albert d'Aix, op. cit., pp. 327-328. (٨١)

Fulcher of Charters, p. 271. (٨٢)

Albert d'Aix, op. cit., p. 361. (٨٣)

William of Tyre, vol. 1, pp. 415-16, 522; vol. 2, pp. 344-5. CF. also, Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 208-9; vol. 2, pp. 36, 292, 377.

Mansi, xxi, C. 12, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60. (٨٤)

Mansi, xxi, C. 13, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 61. (٨٥)

Mansi, xxi, C. 14, 264. (٨٦)

Mansi, xxi, C. 15, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60. (٨٧)

(٨٨) أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٨٠، ابن جبير: الرحلة، بيروت ١٩٨١م، ص ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥١-٢٥٣، راجع أيضاً:

J. Parwer, «*Social Classes*», pp. 61 FF.

B.Z. Kedar, «*Ecclesiastical Legislation in the Kingdom of Jerusalem*» in *CS.*, p. 226. (٨٩)

B.Z. Kedar, op. cit., p. 226. (٩٠)

B.Z. Kedar, «*Crusade and Mission, European Approaches toward the Muslims*» (Princeton, 1984), pp. 76-8, 146-51, 212-15. (٩١)

B.Z. Kedar, «*Ecclesiastical legislation*», p. 226. (٩٢)

J. Brundage, «*prostitution*», p. 61. (٩٣)

Mansi, xxi, C. 16, 264. (٩٤)

Runciman, op. cit., vol. 2, 317-18 (٩٥)

- Jaques de Vitry, «*History of Jerusalem*», ed. A. Stewart, in PPTS, vol. Xi, pp. 64-65. (٩٦)
- Mansi, xxi, C.18,264. (٩٧)
- Mansi, xxi, C. 19,264-265. (٩٨)
- Mansi, xxi, C. 20,21,265. (٩٩)
- ريموندانجيل : تاريخ الفرنجة ، ص ٩٠-٩١ ، ١٦٦ ، ٢٣٧-٢٣٨. (١٠٠)
- Fulcher of Charters, p. 219 (١٠١)
- Mansi, xxi, C. 23, 266. (١٠٢)
- Mansi, xxim C. 24,266. (١٠٣)
- Mansi, xxi, C. 25, 266. (١٠٤)
- ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢١. (١٠٥)
- Mansi, xxi, C. 22, 265. (١٠٦)
- مجهول: أعمال الفرنجة، ص ٩٢؛ ريمواندجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٠٦، ١٤٣؛ راجع أيضاً: (١٠٧)
- Orderic Vitalis, «*Historia*», vol. 5, pp. 105,164-8,178. Guibert of Nogent, «*Gesta Dei*», p. 205.
- جوانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٦٦. (١٠٨)
- Fulcher of Charters, pp. 232-3, William of Tyre, vol.1, pp. 536-7; (١٠٩)
- ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ١٩٥-١٩٦؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ٢٠٢. (١١٠)
- Fulcher of Chartres, pp. 234-5, William of Tyre, vol. 1, pp. 538-9. (١١١)
- Walter the Chancellor, «*Bella Antiochina*», pp.131-2; Fulcher of Chartres, pp. 235-7. (١١٢)
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٩. راجع أيضاً: (١١٣)
- Fulcher of Chartres, p. 240; Mathew of Edessa, «*Chronicle*», in *RHC Doc Arm*, vo. 1, pp. 132-133.
- وقع بولدوين أسيراً لدى ملك ابن شقيق إيلغازي الأرتقي في ١٨ أبريل ١١٢٣م/١٩ صفر ٥١٩ هـ. أنظر: ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٩. راجع أيضاً

Fulcher of Chartres, p. 240; William of Tyre, vol. 1, pp. 540-1; Mathew of Edessa, p. 132- 133.

William of Tyre, vol. 1, pp. 553,556 (١١٤)

Fulcher of Charters, p. 232, William of Tyre, vol. 1, pp. 537- 8. (١١٥)

(١١٦) بعد استيلاء الصليبين على مدينة بيت المقدس بفترة وجيزة، منح جودفرى حاكم مملكة بيت المقدس الصليبية، منح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية في حدود المدينة إلى جانب جميع مخازن بيت المقدس عدا ثلاثة مخازن، اثنان منها للضيافة، والثالث للدير البندكتي المعروف باسم القديسة مريم St. Maria Latina . وقد قدمت هذه المنحة للكنيسة أثناء تولى أرنولف مالكورون بطريركية بيت المقدس عام ١٠٩٩م/١٩٢ هـ، قبل عزلة من منصة بعد عدة أشهر. أنظر: سعيد البيشاوي الممتلكات الكنسية، ص ١٤٢.

Mayer, op. cit., 541. (١١٧)

William of Tyre, vol. 1, p. 536. (١١٨)

Ibid., vol. 2, pp. 313 ff. (١١٩)

وكانت هذه الحملة الثالثة التي يحاول بها عموري الاستيلاء على مصر قبل أن تسقط في ايدي نور الدين محمود. وكانت في يناير ١١٦٧م/ربيع ثان ٥٦٢ هـ. عن أحداث هذه الحملة وظروفها. أنظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج١١، ص ١٤٥-١٤٧؛ ابو شامة: كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزآن في مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨ هـ، ج١، ص ١٤٢-١٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٤٨-١٥٢.

(١٢٠) كان صلاح الدين قد حقق نجاحات كبيرة في إقليم الجزيرة، حيث أخضع لسلطته مدن الرها وقرقة وسروج ونصيبين وسنجار تمهيدا لإخضاع الزنكيين في حلب والموصل حتى يتفرغ للصليبيين تمام بعد أن يحيط بأملاكهم من كل

جانب، وفتح صلاح الدين حلب ليكمل حصاره لهم وذلك في
١١٨٢م/٥٧٩ هـ. أنظر، ابن العديم زبدة الحلب، ج ٢، ص ٦٢-٦٣؛

مؤرخ مجهول: البستان الجامع تواريخ الزمان نشره كلود كاهن: C.
Cahen, "Un chronique Syrien de VI^e siecle" in *BEO*, vol. 8, p.
144.

William of Tyre, vol. 2, pp. 486-489. (١٢١)

راجع أيضا: حسين عطية: عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية في غرب
أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة المؤرخ المصري، يصدرها قسم
التاريخ-جامعة القاهرة-العدد السادس ١٩٨٩، ص ١٢٣ وما بعدها.

William of Tyre, vol. 1, pp. 525-6. (١٢٢)

Edbury and J. Row, "*William of Tyre*", pp. 105-6. (١٢٣)

Mayer, op. cit., p. 542. (١٢٤)

Hamilton, "The Latin Church", p. 65. (١٢٥)

الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم (١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/ ١١ رجب سنة ٦٩١هـ)

د. / فايز نجيب إسكندر

كلية الآداب-جامعة بنها

كانت مملكة أرمينية الكبرى بمثابة دولة حاجزة ETAT TAMPON، أي دولة واقعة بين دولتين متصارعتين تحول دون تصادمهما، وقد أدى الجيليون الأرمن هذا الدور أحسن أداء. وكان لمصلحة الإمبراطورية البيزنطية الحفاظ على كيان تلك الدولة الحاجزة، خاصة بعد نجاحها في صد هجمات الأتراك السلاجقة في مراحلها المبكرة وكبح جماح تلك القبائل الطموحة إلا أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية العقيمة واستراتيجيتها الخاطئة حطمت ذلك الحاجز الواقى وذلك بغزوها أرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ^(١)، فكان هذا التحطيم باهظ الثمن، إذ تمكن السلاجقة في ١٦ أغسطس سنة ١٠٦٤م/٢٩ شعبان سنة ٤٥٦هـ^(٢) من الاستيلاء على "آنى" Ani عاصمة مملكة أرمينية الكبرى، ثم تقويض بنيان الإمبراطورية البيزنطية في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ ونجاح السلاجقة في ابتلاع آسيا الصغرى وتأسيس سلطنة سلاجقة الروم بعاصمتها قونية^(٣).

ولقد ترتب على الأحداث السالفة الذكر هجرة الأرمن نحو الجنوب الى "الرها" الواقعة في إقليم الجزيرة الغربي، بالقرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتد على الفرات. كما اتجه الأرمن من قبل إلى قبادوقيا وذلك أوائل القرن العاشر الميلادي/أوائل القرن الرابع الهجري؛ وكذا الى إقليم قيليقيا والذي كان البيزنطيون قد هجروا إليه من قبل كثير من الأرمن وذلك عقب غزوهم أرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ؛ وكان من هؤلاء بطريك الأرمن الذي كان قد ترك العاصمة "آنى" Ani منذ سنة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ وأخذ مقره يتنقل حتى استقر ١١٥٠م/٥٤٥هـ بقلعة الروم على نهر الفرات^(٤).

(١) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: غزو الإمبراطورية البيزنطية الأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ — الإسكندرية ١٩٨٨م.

(٢) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آنى" سنة ١٠٦٤م/٤٥٦هـ — الإسكندرية ١٩٨٧.

(٣) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد — الإسكندرية، ١٩٨٤.

(٤) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المساليك الأولى (١٢٥٠-١٣٧٥م/٦٤٨-٧٧٦هـ) — الإسكندرية ١٩٨٠.

ولقد قامت «مملكة أرمينية الصغرى» LE ROYAUME DE LA PETITE ARMENIE في المنطقة التي عرفت قديماً باسم «قيليقيا»^(١). CILICIE، وتقع تلك المملكة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى. وتكاد تكون حدودها طبيعية^(٢). فمن شرق يحدها جبال الأمانوس^(٣). ومن الشمال والشرق جبال طوروس؛ أما في الجنوب، فالبحر المتوسط تمتد سواحله من مدينة طرسوس^(٤) إلى جنوب

(١) كان من بين نتائج فتوحات الأتراك السلاجقة للأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة جموع غفيرة من الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غرب وشمال نهر الفرات، ليستقروا جنوباً إلى جنب مع إخوانهم الأرمن المستقرين من قبل في تلك المواضع. وعقب معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٤هـ، انتحأ الكثير من الأرمن إلى جبال طوروس وإقليم قيليقيا وشمال بلاد الشام. علماً بأن جميع المواضع السابقة تواجد بها زعماء من الأرمن كانوا قد سبقوا إليها واستقروا فيها. وهكذا غدا الأرمن في قيليقيا قوة عظيمة وكبيرة حتى أطلق المؤرخ الفرنسي المحدث رينيه جروسية RENE GROUSSET على «قيليقيا» آنذاك اسم «أرمينية الجديدة» LA NOUVELLE ARMENIE للتفاصيل أنظر CH. 65, P.78, Dans R.H.C., Doc.. ARM., 1; Matthieu D'EDESSE, EXTRAITS, NERSES DE Lambron, DANS R.H.C., Doc.. ARM., 1, P. 576. CF. Grousset, HISTOIRE DE L'ARMENIE, PARIS, 1947, P. 522; IDEM, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, PP. 175, 385; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE, PP. 87-88; CAM. MED HIST., VOL. IV, P. 638; PASDERMADJIAN, HISTOIRE DE L'ARMENIE, P. 198.

(٢) RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES, Doc. UMENTS ARMENIENS, PARIS, 1869-1806, T.I, P. XIX.

× وسنشير إلى «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» اختصاراً بـ: R.H.C., Doc. ARM.,

(٣) «جبال الأمانوس» هي شعبة من جبال طوروس، تتصل بقيليقيا من جهة الشرق وتتصلها عن بلاد الشام. وما اشتهرت به جبال الأمانوس من الدروب إنما يرجع إلى أن جميع الغزاة اجتازوها، فمنها فتح المسلمون قيليقيا وما يليها من جهات آسيا الصغرى، وكان لابد للإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس NICEPHORE PHOCAS أن يجتازها ليهاجم سيف الدولة الحمداني في صميم دولته. (انظر: R.H.C., Doc. ARM., T. 1, PP. XXVI-XXVIII. CF. SCHLUMBERGER, UN EMPEREUR BYZANTIN AU DIXIEME SIECLE, NICEPHORE PHOCAS, PARIS, 1870, P. 207.) والجدير بالذكر أن ممرات الأمانوس كانت دائماً الممر البري الجنوبي لكل الحملات المصرية نحو قيليقيا-أي أرمينية الصغرى-وبذلك تشابهت أهميتها الاستراتيجية بشعبة جزيرة سيناء بالنسبة لمصر، فقد كانت شعبة سيناء الممر البري الشرقي لغزو مصر طوال العصور.

(٤) «طرسوس» من المدن القديمة، وبها قبر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد، لأنه كان قد وفد عليها غازياً مرة بعد أخرى، فمات بموضع يعرف باليدنلون، وقريب من طرسوس في سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر-تحقيق عبد العزيز الخويطر-الرياض ١٩٧٦ ص ٤٣٨-٤٣٩؛ النويري: نهاية الأرب من نهاية الأدب-مخطوط بدار الكتب المصرية-رقم ٥٤٩ معارف عامة - ج ٢٨، ورقة

الإسكندرية^(١). وتبلغ مساحتها حوالي أربعين ألف كيلو متر مربع بطول ٤٠٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب، وعرض مائة كيلو متر من الشمال الى الجنوب. كان ذلك في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي/أوائل القرن السابع الهجري^(٢). وقد أطلقت المصادر الإسلامية على هذا الأقليم اسم "الدرب"^(٣)، أي الطريق الذي يسلك ما بين طوروس والإمبراطورية البيزنطية؛ لذا لقب "ابن الأثير" (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) في مصدرية "التاريخ الباهر" و "الكامل في التاريخ" أمير أرمينية باسم "صاحب بلاد الدروب"^(٤).

١٠٧؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد-تحقيق بلوشيه - BLOCHET باريس ١٩١١-١٩٣٢-ص ٣٩٢) وتقع تلك المدينة الأرمينية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، بالقرب من حلب غربا . وهي مدينة مسورة وفي غاية الخصب، بناها الرشيد في سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وأكملها في سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م. ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصفصاف، وباب الشام ، وباب البحر والباب المسدود. والنهر يشق في وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد. وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين السروم والمسلمين. أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا- القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠ - ج ٤ - ص ١٣٣ البغدادى: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق على محمد البجاوى - القاهرة ١٩٥٤ م - ج ٣، ص ٨٨٣. أنظر أيضا: R.H.D., Doc. ARM., T.I., P. XL. وكذلك: فايز نجيب إسكندر: موقعة ملاذكرد وصداها في القسطنطينية - القاهرة ١٩٨٨ - ص ١٩، حاشية رقم ٥٩.

(١) "الإسكندرية" مدينة في شرقي إنطاكية، على ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبين إنطاكية على ساحل بحر الشام ثمانية فراسخ. (أنظر: البغدادى: مرصد الاصلاح، ج ١، ص ٧٦) وتعد الاسكندرية "أول حدود بلاد سيس" (أنظر: الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده- تحقيق بربارة شيفر- القاهرة ١٩٧٨ - ص ٨؛ المقرئى: السلوك، ج ٢، ص ٤٢٨). وهو الممر الوحيد الذى يصل بين قيليقيا وإنطاكية. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٣٩.

(٢) R.H.C., DOC. RAM., T.I, PP. II-III, XVIII-XIX. CF. TOURNEBIZE, HISTOIRE POLITIQUE ET RELIGIEUSE DE L'ARMENIE, PARIS, 1910, P.6; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE PARIS 1930, PP. 9-10: BASMADIAN QUELLES ETAIENT LES FRONTIERES DE L'ARMENIE? PP. 21-25 DANS LA VOIE DE L'ARMENIE, PARIS, 1919; KHERUMIAN, INTRODUCTION A L'ANTHROPOLOGIE DU CAUCASE-LES ARMENIENS, PARIS, 1943, PP. 11-12; ERMONI, L'ARMENIE, DANS R.O.C., PARIS, 1896, T.I, P. 318; VEOU, LA PASSION DE LA CILICIE, PARIS, 1954, P.47.

(٣) هناك أكثر من مكان عرف باسم "الدرب" ذكر بعضها "ياقوت الحموى" في "معجم البلدان". ولكنه قال

إذا ذكر الدرب وحده دون أن يضاف إليه اسم موضع يحده، يكون المقصود به ما بين

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ-القاهرة ١٢٩٠ هـ - ج ١١، ص ١٤٥ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل-

تحقيق عبد القادر احمد طليمات - القاهرة ١٩٦٣ - ص ٣٠٧.

لقد ناصبت مملكة أرمينية الصغرى ^(١) سلطنة المماليك العداء، إذ ساعدت بفاعلية المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، وتحالفت مع تار فارس لغزو بلاد الشام ومصر، هذا إلى جانب مساهمتها بفاعلية في فرض الحصار الاقتصادي على سلطنة المماليك بمنعها تصدير الأخشاب والحديد وكافة أنواع السلع الاستراتيجية من آسيا الصغرى إلى مصر والشام. فقد سار الصراع العسكري بين مملكة أرمينية الصغرى وسلطنة المماليك جنبا من الصراع التجاري، إذ وقف ثغر الاسكندرية شامخا في وجه ثغر اياس، كما كانت حلب واقفة بالمرصاد في وجه العاصمة الأرمينية سيس SIS. وكان من الطبيعي -نتيجة تلك السياسة العدائية - أن يتبع سلاطين المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى سياسة قائمة على العنف والقسوة ومحاولة الإبادة، كحال السياسة التي اتبعوها مع المستعمرات الصليبية في بلاد الشام ومع التار. لذا توالت إغارات جيوش المماليك على مملكة أرمينية الصغرى طوال عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ^(٢) (٦٥٧-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، وقلاوون الألفى ^(٣) (٦٧٨-

(١) سميت باسم "أرمينية الصغرى" للتمييز بينها وبين "أرمينية القدمة" المعروفة باسم "أرمينية الكبرى" و "أرمينية القدمة" هي أواسط أجزاء آسيا الصغرى وأكثرها ارتفاعا. وهي محصورة بين سلسلتين من الجبال هما: سلسلة جبال بنطس شمالا وسلسلة طوروس جنوبا؛ وتمتد ما بين آسيا الصغرى إلى الغرب من نهر الفرات، وبين أذربيجان والإقليم الجنوبي الغربي من بحر الخزر، في اتجاه ملتقى نهر الكر ونهر الرس شرقا، وبين إقليم بنطس إلى الشمال الغربي والقوقاز، ومن ثم يفصلها خط نهر ريونة والكر شمالا، وبين سهل الجزيرة أي ما بين النهرين جنوبا، وهي منطقة دجلة الأعلى. أنظر : فايز نجيب أسكندر. مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - الإسكندرية ١٩٨٠ - ص ب.

(٢) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي في مواجهة تحالف المغول والارمن - مجلة الثقافة اليمنية - العدد ١٩ - سبتمبر ١٩٩٥.

(٣) بعد الهزائم المتلاحقة التي مني بها الجيش الأرمني ووصول المنصور قلاوون إلى أبواب الاسكندرية "أول حدود بلادسيس"، واعتناق تار فارس الاسلام، أدرك الملك الأرمني ليون الثالث (١٢٧-١٢٨٩م/٦٦٩-٦٨٨ هـ) ضرورة عقد صلح مع ممالك مصر. فعقدت هدنة لمدة عشر سنوات اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٤ هـ/ ٧ يونيو ١٢٨٥م (راجع نص الهدنة في ابن عبد الظاهر : شريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور - تحقيق مراد كامل - القاهرة ١٩٦١ - ص ٩٣ وما بعدها ؛ المقرئى : السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٨٥ وما بعدها ؛ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٠ وما بعدها . أنظر أيضا LANGLOIS, LE TRESOR DES CHARTES D'ARMENIE, VENISE, 1863, PP. 217-218; IDEM, ESSAI HISTORIQUE ET CRITIQUE SUR LA CONSTITUTION SOCIALE ET POLITIQUE DE L'ARMENIE, ST PETERSBOURG, 1860, P. 15; REINAUD, EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES, PARIS, 1829, PP. 552-558; TOUR NEBIZE, PP. 217-218)

وكانت شروط الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم من الفضة. وأن يخلى الملك الأرمني سبيل جميع التجار والمواطنين المسلمين المعتقلين في قيليقيا ويعيد إليهم أملاكهم.

٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) وابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٢هـ / ١٢٩٠-
١٢٩٢م) واستمر حال الإغارات قهراً حيناً لتزداد أحياناً إلى أن تمكن
السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ / ١٣٦٣-١٣٧٦م) من
فتح مملكة أرمينية الصغرى، وضمها نهائياً لسلطنة المماليك وذلك سنة
١٣٧٥م/٧٧٦هـ^(١).

والذي يهمنا في هذا الموضوع هو تتبع كيفية تمكن السلطان الأشرف خليل
بن قلاوون من الاستيلاء على "قلعة الروم"^(٢). HOROMKLAY. ومما يذكر أن
الأشرف خليل^(٣) سار على نفس سياسة والده العدائية تجاه الصليبيين والأرمن والتسلر.
ففي مملكة عكا الصليبية، والتي تمثل البقية من المستعمرات الصليبية في بلاد الشام
آنذاك. فترل عليها يوم الخميس الخامس من أبريل سنة ١٢٩١ م/الثالث من
ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ، فنصب عليها اثنين وتسعين منجنيقاً، محكما بذلك
حصارها. وقد بذلت حامية عكا جهوداً مضنية في سبيل الدفاع عن المدينة؛ إلا أن
مماليك الأشرف خليل نجحوا في اقتحام أسوارها وذلك يوم الجمعة الثامن من عشر من
مايو سنة ١٢٩١ م/السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ بعد حصار دام أربعة
وأربعين يوماً؛ كما نجح الأشرف خليل في فتح صور، وحيفا، وصيدا، بيروت،
وعثليث وأنطربطوس.

ومقابل ذلك يطلق السلطان قلاوون سراح جميع الأسرى الأرمن، ولكن لا تعاد إليهم أملاكهم. وعلى الملوك
المتعهدين أن يسلموا الممارين من الطرفين كل إلى الآخر، على أن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام.
وللمماليك حق شراء الرقيق من مملكة أرمينية الصغرى. ووقع ليون الثالث على هذه المعاهدة مرغماً، ولكنه
منع بيع الرقيق للمماليك، حتى لا تقوى بهم عليه. أنظر :
TOURNEBIZE, P. 218.

(١) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، ص ٩٩-٢٥٠.

(٢) تحدث العالم الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور- أستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى- عند
هذا الموضوع في سبعة أسطر. أنظر : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى. محاضرة منشورة في بحوث
ودراسات العصور الوسطى-بيروت ١٩٧٧ ص ٢٦٠.

(٣) ولي "الأشرف خليل بن قلاوون" أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك من النواحي
الإسلامية، وجلس على التخت، وركب بشعار السلطنة في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ / نوفمبر ١٢٩٠م بعد
وفاة والده قلاوون الألفى. أنظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنه-تحقيق محمد محمد أمين-
القاهرة ١٩٧٦- ج١، ص ١٣٦؛ الكنتي: فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-ج١، ص ٤٠٦-٤١٥.

أنظر أيضاً GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1936, III, p. 750.

وبسقوط عكا في قبضة الأشرف خليل، انتهى الفصل الختامي في تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى مصر التي قامت-طوال عهد الحروب الصليبية-بدور إيجابي فعال، كحالتها إلى مر العصور، إذ كانت محور المقاومة الإسلامية حتى تم على يديها أخيراً "سقوط عكا" وطرد المستعمر الصليبي من بلاد الشام^(١)، بعد أن زجت به مياه البحر المتوسط على حد قول المؤرخ الفرنسي المحدث "رينيه جروسيه"^(٢) RENE GROUSSET.

وكان من أهم نتائج سقوط عكا أن استعد المماليك لتوجيه سلاحهم صوب مملكة أرمينية الصغرى، بعد أن أضحت تلك المملكة المعقل الصليبي الأخير في قارة آسيا، وقاعدة مرتقبه لكل حملة صليبية جديدة. ومما لا شك فيه أن هذا الفتح العظيم قد أكتسب الأشرف خليل ومماليكه مجداً وعظفاً من ربوع العالم الإسلامي آنذاك، لذا رغب الأشرف في توجيه هذا الحماس المتدفق صوب مملكة أرمينية الصغرى من ناحية وأسيادهم التار من ناحية ثانية.

وبالفعل بدأ السلطان المملوكي بالخطر الأول المتمثل في مملكة أرمينية الصغرى. بدأ المعركة بنوع من "الحرب النفسية"، إذ أرسل كتاباً إلى ملك مملكة أرمينية الصغرى^(٣) "هيتوم الثاني (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١هـ—)

(١) للتفاصيل أنظر : GORUSSET, OP. CIT., T.III, pp. 750-776 .

(٢) GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, P. 400.

(٣) رفض المسلمون عامة الإشارة إلى حاكم "أرمينية الصغرى" بلفظ "ملك" وإنما أطلقوا عليه في أغلب الأحيان لقب "متملك" بمعنى أن الأرمن امتلكوا تلك البلاد قهراً من المسلمين أصحاب السيادة الشرعية عليها وعليهم. وقد عير "شهاب الدين بن العمري" عن ذلك بقوله: "... وكانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة الروم، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة، والعمال والشحاق على البلاد من جهة الملك السلجوقي، حتى ضعفت تلك الدولة {صاحب أرمينية الصغرى} .. واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوق واستهلكها". (أنظر: التعريف بالمصطلح الشريف-مصر، ١٣١١هـ-ص ٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكر عن أرمينية الصغرى ما نصه: "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم اللعين {صاحب أرمينية الصغرى} ... واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوق واستهلكها". (أنظر: التعريف بالمصطلح الشريف-مصر، ١٣١٢هـ-ص ٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكر عن أرمينية الصغرى ما نصه: "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولاً بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فتملكها من أيدي المسلمين". (أنظر: صبح الأعشى، ج ٨،

HETUM^(١) أخبره فيه بفتح عكا، وذكره بقوة سلطنة المماليك وعظمة جيوشها التي أحكمت الأطباق على ذلك المعقل الصليبي الأخير وفتحة؛ كما دعاه ألي سرعة أرسلل القطعية المقررة، والحضور لمقابلته. وأخيراً طلب منها أن يعتبر بما حل بعكا، وإلا "تندم ندامة أهل عكا حيث لا ينفع الندم"^(٢).

ونستشف من هذا الكتاب أن الشرف خليل أراد أن يؤكد ما للسلطنة المملوكية من السيطرة على مملكة أرمينية الصغرى. أمام هذا التهديد والوعيد، طلب الملك الأرميني هيثوم الثاني مساعدة البابا نيقولا الرابع^(١) (١٢٨٨-١٢٩٢م / ٦٨٧-٦٩١هـ)

ص ٣٢). ولقد تعددت الألقاب التي أطلقها المسلمون على ملكة أرمينية الصغرى، منها ابن لاون أو ليفون. ولاون هنا تحريف للفظ ليون LEON أول ملوك أرمينية الصغرى، فصار كل ملك من ملوكها يعرف بـ "ابن لاون". ومن هذه الألقاب أيضاً "متملك سيس" - كما سبق أن أشرنا - أو "صاحب سيس". كذلك أطلق عليه اسم "تكفور"، وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة، مثلما لقب إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية بـ "الاشكري"، وملك الحبشة بـ "الخطي" أو "النحاشي". أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ٢٦٩، ٣٢٩، ٣٣٩ وما بعدها؛ العمري: التعريف، ص ٥٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٣١.

(١) اعتلى "هيثوم الثاني" (١٢٨٩-١٣٠١م / ٦٨٨-٧٠١هـ) HETUM II عرش مملكة أرمينية الصغرى بعد أبيه ليون الثالث LEON III سنة ١٢٨٩ سنة ١٢٨٩م / ٦٨٨هـ، ولكنه تنازل عنه سنة ١٢٩٢م / ٦٩١هـ لأخيه طوروس THOROS ودخل أحد أديرة الفرنسيسكان. ولكن طوروس والبارونات كانوا يذهبون إليه في الدير ويستشرونه في مهام الأمور، وأضطره أخيراً إلحاحهم عليه أن يعود إلى الحكم سنة ١٢٩٥م / ٦٩٤هـ. وفي سنة ١٢٩٧م / ٦٩٦هـ ذهب هيثوم الثاني إلى القسطنطينية واصطحب معه طوروس وترك أخاه الأصغر سمباد SEMBAD لإدارة شؤون المملكة، فاغتصب سمباد العرش. لكن البارونات الأرمن اضطروا هيثوم الثاني إلى اعتلاء عرش مملكة أرمينية الصغرى وذلك للمرة الثالثة. وبذلك تشبه هيثوم الثاني بالناصر محمد بن قلاوون في ولاياته الثلاث. للتفاصيل أنظر: LE ORI HETHOUM II, PP. 541-545; SEMPAD, PP. 655-657; MARDIROS DE CRIMEE, LISTE RIMEE DES ORIS DE LA PETITE ARMENIE, P. 685; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETOUM DE HETOUM, P. 490. CF. TOURNEBIZE, PP. 220-228; GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, P. 400.

(٢) أنظر: "ذكر مكاتب السلطان الأشرف صلاح الدين إلى صاحب سيس عند فتح عكا" في: مرفع مجهول: تاريخ سلاطين المماليك - نشر. ف. زترستين - لندن ١٩١٩ م - ص ٨. وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك والأرمن، ص ٢٦٠؛ الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢١٦. وعن تفاصيل سقوط عكا أنظر: ابن إلياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، ص ١٢٣، ابن تقي بردي: مورد اللطافة - تحقيق كارليل CARLYLE ١٧٩٢ م - ص ١٤٥ ابن حبيب: حرة الأسلاك في دولة الأتراك - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ ج - ج ١، ورقة ١١٦٣-١١٦٦ أ. أنظر أيضاً SCHIL UMBERGER, PRISE DE SAINT JEAN D'ACRE EN L'AN 1291 PAR L'ARMEE DU SOUDAN D'EGYPTE, PARIS, 1914; STUBBS.

NICOLAS IV، الذي استاء إستيئاً بالغـاً لسقوط "طرابلس" ثم "عكا" في قبضة المماليك، لذا حرص - كعادة البابوات عقب كل كارثة صليبية - على إثارة الرأي العام الأوروبي ضد سلطنة المماليك. إلا أن جهود البابا في إثارة الغرب لإرسال حملة صليبية إلى الشرق الأدنى الإسلامي باءت بالفشل الذريع. وكان قد خطط للدعوة ملوك أوروبا إلى التحالف والتعاون مع التار والأرمن^(٢) والكرج^(٣) للقضاء على سلطنة المماليك، لكنه مات في إبريل سنة ١٢٩٢م/ ربيع الثاني سنة ٦٩١هـ أثناء الإعداد للحملة. وعقب وفاته، توقف مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك، لخلو السدة الرسولية لمدة عامين^(٤)، وقعت فيهما أحداث جسام أثرت تأثيراً مباشراً على العلاقات المملوكية الأرمنية.

(١) أغتلي "نيقولا الرابع" NICOLAS IV السدة الرسولية في ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. وكان سلفه هونوريوس الرابع HONORIUS IV قد تولى في ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م، فظل الكرسي البابوي شاغراً طوال الفترة من ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م إلى ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. أنظر: GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, P. 716

(٢) اشتهر الأرمن بنشاطهم البناء في المجتمع الإسلامي، ويؤكد ذلك أن أسامة بن منقذ ذكر أخبار كثيرين من الأرمن اشتهروا بالمهارة والرمية، واستعان بهم آل منقذ في الصيد والحرب على السواء. أنظر الاعتبار - لندن ١٨٨٤-١٠٦.

(٣) "الكرج" هم جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القيق وقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة "تفليس" (أنظر: ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠ حاشية رقم ٢). وتقع بلاد "الكرج" على السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز. فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فهي تناخم بلاد داغستان الجبلية وسهول أذربيجان؛ وتحدها جنوباً أرمنية ومقاطعة قرص KARS؛ أما حدودها الغربية، فتطل على البحر الأسود. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج - القاهرة ١٩٨٨م - ص ٧-١٨؛ أرمنية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة في عهد داود الثاني - العدد الأول من مجلة المؤرخ العربي - مارس ١٩٩٣ - ص ٢٥٢-٢٥٣؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمنية "آني" الإسكندرية ١٩٨٧ - ص ٣٤، حاشية رقم ٤٧؛ مملكة أرمنية الصغرى، ص ١٣٧، حاشية رقم ٢.

(٤) للتفاصيل أنظر: LE ROIHETHOUM II, P. 542, CF. GROUSSET, HISTOIRE: DES CROISADES, T. III, PP. 716-747; DEDEYAN ET THIERRY, LE TEMPS DE LA CROISADE, DANS HISTOIRE DES ARMENIENS, TOULOUSE, 1982 P. 311; LODGE, THE CLOSE OF THE MIDDLE AGES, PP. 29, 51-54; KING, THE KNIGHTS HOSPITALERS, PP. 75-79; MOWAT, THE LATER MIDDLE AGES, PP. 75-79; ATIYA, THE CRUSADES IN THE LATER MIDDLE AGES, P.45.

وكان من الطبيعي أن ينعكس فشل مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك على مصير مملكة أرمينية الصغرى خاصة وإن السلطان الأشرف خليل كان قد علم باستنجات الملك الأرمني هيثوم الثاني.

ومما زاد الطين بلة أن وصل كتاب إلى القاهرة أرسله نائب حلب يفيد أن ملك مملكة أرمينية الصغرى تعرض لبعض تجار المسلمين، وألقى القبض عليهم بعد أن استولى على أموالهم، ونهب ما يحملونه من بضائع؛ وإن نائب حلب أرسل يطلب منه إطلاق سراح الأسرى وإعادة أموالهم وبضائعهم المستولى عليها، وإلا فليستعد لمواجهة جيوش المماليك. فجاء رد الملك الأرمني^(١) بأن أحداً لم يتعرض لأحد من التجار المسلمين، وأنه ليس هناك أسرى وأموال^(٢). ولما وقف السلطان الأشرف خليل على ما جاء في كتاب نائب حلب، غضب غضباً شديداً، وأمر بعقد مجلس استشاري عسكري ضم كبار الأمراء لاستشاورهم في الأمر. فأشاروا على سلطانهم بغزو سيس^(٣) SIS، عاصمة

(١) "الأرمني" وليس الأرمني، يؤكد ذلك قول الشاعر :

ولو شهدت أم القديد طعائنا
بمرعش خيل الأرمني أرغت

أنظر: ياقوت: معجم البلدان-بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧-ج١، ص ١٦٠؛ البغدادى: مرصد الاطلاع، ج١، ص ٦٠، حاشية رقم ٤٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض-بيروت ١٩٧٩-ص ٢٩٤-٢٩٥؛ القريني: آثار البلاد وأخبار العباد-دار صادر بيروت-ص ٥٢٤، أنظر أيضاً: فايز نجيب اسكندر: السلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ المعاصر سبيوس-بيروت ١٩٩٤-ص ٦٨، حاشية رقم ١٦٢؛ الحياة الاقتصادية في أرمينية إبان الفتح الإسلامي-القاهرة ١٩٨٨-ص ٨، حاشية رقم ٤؛ الفتوحات الإسلامية لأرمينية في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيفونند، ج١، ص ١٠١، حاشية رقم ١٦٦؛ غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ-الإسكندرية ١٩٨٨-ص ٢٨، حاشية رقم ١.

(٢) العيني: عقد الجمان، ق١، ج١، ورقة ٥٥-٥٦.

(٣) "سيس" SIS وصحة هذا الاسم "سيسية" SISIYYA، غير أن عامة الناس يسقطون الهاء، ويقولون "سيس"، وهي عاصمة مملكة أرمينية الصغرى-أي قيليقييا، وتقع بين إنطاكية وطرسوس. ولها

قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل، ولها بساتين ونهر صغير؛ -البلدان، ص ٢٥٦-٢٥٧؛ ابن أبي الفضايل: النهج السديد، ص ١٠٦، حاشية رقم ٢؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٤٩، حاشية رقم ٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٣٩، حاشية رقم ١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٣٤-١٣٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٣٤. وقد ذكر الشجاعى أن "باب إسكندرونة هو أول حدود بلاد سيس". أنظر: تاريخ الملك الناصر محمد، ص ٨.

مملكة أرمينية الصغرى، وتأديب ملكها هيثوم الثاني^(١).
تحقيقاً لتلك الغاية، رحل السلطان المملوكي من مصر
قاصداً بلاد الشام في يوم السبت ٢٨ مارس سنة
١٢٩٢م/ ثامن من ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ^(٢) على رأس جيش
كبير، وبصحبه وزيره صاحب "شمس الدين بن السلعوس"^(٣)،
الذي كان قد سبق أن كلفة بأن يكتب إلى نواب الشام
بالاستعداد للغزو وجمع المجانيق^(٤) وآلات الحصار المتنوعة
والمرؤن، ونادى بالنفير للجهاد، ودخل دمشق وعرض العساكر^(٥). وبعد
يومين، وصل نائب حلب إلى دمشق، وأخبر أن رسل الملك الأرمني في طريقهم لمقابلة
السلطان المملوكي. وبالفعل دهش الرسل الأرمن عند وصولهم دمشق لضخامة

(١) العيني : عقد الجمان، ق ١، ج ١٢، ورقة ٥٦.

(٢) ابن أبيك: كثر الدور، ج ٨، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٠ الكتي: عيون التواريخ،
ج ١، ق ١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج ٨، ص ١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة
الإنسان في ذكر الملوك والأعيان - مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس - رقم FOND'S ARABE 1769 - ورقة
٢١ب.

(٣) اشتغل "شمس الدين بن السلعوس" في أول أمره بالتجارة في دمشق، ثم تنقل في عديد من الوظائف إلى أن ولى
الحسبة والنظر في ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام. ويمكن من جمع الأموال الطائلة لقيامه باستجار ضياع
لحسابه الخاص. ثم قدم إلى مصر في عهد السلطان قلاوون الألفي، فعين ناظراً للديوان، لكنه عزل لابترازه
أموال بعض المقطعين، وعين قلاوون بدلاً منه فخر الدين بن الخليلي. عقب ذلك توجه ابن السلعوس إلى
الحجاز وعاد إلى مصر بعد أن تولى الملك الأشرف خليل سلطنة المماليك وكان قد كتب إليه بخطه "ياشقر يا
وجه الخير، تعجل بحضورك لتسلم وزارة الديار المصرية والشامية". أنظر: التويري: نهاية الأرب، ج ٢٩،
ورقة ٢٩٤-٢٩٤ب؛ الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ورقة ١٦٧ب-١٦٨أ؛ ابن كثير: البداية والنهاية،
ج ١٣، ص ٣٣٢؛ ابن أبيك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٨٦، ترجمة رقم ١٥٥٥؛ ابن حبيب: درة
الأسلاك، ورقة ١٩٠ب؛ القيسرائي: النور اللامع والدر الصادح في اصطفا مولانا السلطان الملك الصالح -
مخطوط بالمكتبة الوطنية بتاريخ رقم FOND'S ARABE 1708 ورقة ٥٣أ، ٥٤ب، الصقاعي: تالي كتاب
وفيات الأعيان، ورقة ٧١أ-٧٢أ.

(٤) "المجانيق": جمع "منحنيق"، وهو آلة من خشب، لها دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف
وفيه كفة المنحنيق الذي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى أساقفه على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة
فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه.

(٥) العيني : ج ٢١، ورقة ٥٦؛ الكتي : عيون التواريخ، ج ١، ق ١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة
الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٢٧٢.

استعدادات الأشرف خليل؛ ودخلوا إلى حضرته، وقبلوا الأرض بين يديه، وانخرجوا كتاب ملكهم، فإذا فيه: إن ما نُقِلَ عنه إلى السلطان غير صحيح، وأنه ما تعرض لأحد من التجار؛ وإذا ثبت خلاف ذلك، فإنه مستعد لدفع أضعاف ما نسب إليه من اخذ أموال التجار وبضائعهم. وأكد الملك الأرمني في كتابه أيضا أنه سيطلق سراح جميع الأسرى المسلمين المتواجدين في مملكته، وأنه على استعداد لمضاعفة الجزية المقررة عليه كسبا لود السلطان، وأن مملكة أرمينية الصغرى تعد بلاد ملاء الأشرف خليل، وهو نائب عنه فيها. وقد تقدم الرسل الأرمن بالهدايا الثمينة من الأواني الذهبية والفضية والأواني المرصعة بالفصوص والبللور الفاخر، وغير ذلك من التحف النادرة^(١).

ورغم الموافقة على مضاعفة القطعية^(٢)، والهدايا الثمينة، وفروض الولاء والطاعة، والاعتراف بالتبعية الكاملة لسلطنة المماليك؛ إلا أن الأشرف خليل صمم على المضى قدما في حملته، وكان قد سبق له أن رحل من مصر قاصدا بلاد الشام في يوم السبت ٢٨ مارس ١٢٩٢م/ثامن ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ^(٣)، ودخل دمشق وعرض العساكر ومضى منها في يوم الاثنين ٥ مايو ١٢٩٢م/١٦ جمادى الأولى ٦٩١هـ^(٤)، فسار منها إلى حلب فدخلها في ١٧ مايو ١٢٩٢م/الثامن والعشرين من جمادى الأولى، ثم غادرها في ٢٣ مايو ١٢٩٢م/الرابع من جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ^(٥) لمحاصرة "قلعة الروم" فزل عليها يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٢٩٢م/٨ جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ^(٦).

(١) العيني: ج٢١، ورقة ٥٥-٥٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٥٩.

(٢) "القطعية" هي إتاوة سنوية، تعهد ملك مملكة أرمينية الصغرى بدفعها لسلطنة المماليك. وقد ذكر القلقشندي نقلا عن العمري أن القطعية المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت "ألف ألف ومائتي درهم، مع أصناف". أنظر: صبح الأعشى، ج٨، ص ٣٠؛ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٥٦.

(٣) ابن أيك: كثر الدرر، ج٨، ورقة ٢٨٤؛ زرتستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٠؛ الكتي: عيون التواريخ، ج١، ق ١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص ١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص ٢٦.

(٤) العيني: عقد الجهان، ج٢١، ورقة ٥٦؛ الكتي: عيون التواريخ، ج١، ق ١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٢٧٢.

(٥) ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٠٩؛ محمد بن أبي بكر الصديق: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب؛ الكتي: عيون التواريخ، ج١، ق ١٢، ورقة ٦٤؛ ابن أيك: كثر الدرر، ج٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزي: السلوك،

لقد عول السلطان الشرف خليل على ضم "قلعة الروم" الى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار، ويمدوهم بالهدايا، ويمالكونهم على الممالك، ويكثرون من الإغارة على الأطراف الشامية. ولا أدل على المصاعب التي كان يثيرها أهالي هذه القلعة ضد سلطنة الممالك أكثر مما ورد في الكتاب الذي أرسله "علم الدين سنجر الشجاعى" ^(٢) نائب السلطنة ^(٣) بدمشق الى شهاب الدين ^(٤) بن الخويسي

جـ ١، ق ٣، ص ٧٧٨. أنظر أيضاً: LE ROI HETHOUM II, DANS. R.H.G., ARM., T.I, P. 542.

(١) الكتي: جـ ١، ق ١٢، ورقة ٦٤ ابن أليك: جـ ٨، ورقة ٢٨٤ المقرئى: جـ ١، ق ٣، ص ٧٧٨ تاريخ الفرات، جـ ٨، ص ١٣٦-١٣٩ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ ٩، ورقة ٢٩٦-٢٩٧ ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور، ص ٢٧٢ ابن الجوزى: جواهر السلوك، ورقة ١٠٩؛ محمد بن ابى بكر الصديق: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب. أنظر أيضاً، LE ROI HETHOUM II, PP. 542-543; MAKRIZI, HISTORIE DES SULTANS MAMLOUKS DE L'EGYPTE, TRAD. M. QUATREMERE, PARIS, 1845, T. II, 1^{RE} PARIS., P. 141.

(٢) هو "سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى" ينسب الى "عز الدين الشجاعى" مشد الديوان. قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٢م وكان من ممالك المنصور قلاوون. ترقى حتى ولى شد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية فى أوائل دولة الناصر محمد، وساءت سيرته وكثر ظلمه. ثم ولى نيابة دمشق فتلطف بأهلها وقل شره، ودام بمدة سنين ألى أن عزل بالأمير عز الدين أليك الحموى، وقدم ألى القاهرة. وكان موكبه بضاهى السلطان من التحميل. أنظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ٥١-٥٢ ابن أليك: كثر الدرر، جـ ٨، ورقة ٣٥٣ وما بعدها؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٢٠؛ تذكرة النبيه، جـ ١، ص ١٧٢ الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٤٣ب- ٤٤ أ. أنظر أيضاً: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، الملحق الثانى، ص ٢٦١، حاشية رقم ١.

(٣) "نائب السلطنة" وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحيائها السلطان "الظاهر بيبرس" مع ما أحياء من الوظائف الأيوبية. كان نائب السلطنة فى ذلك العهد- كما يقول القلقشندى- "سلطاناً مختصراً بل هو السلطان الثانى" ويعد نائب السلطنة أكبر أمراء المئين، ويضعه "الخالدى" على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة للتفاصيل بالعاصمة أنظر: القلقشندى: جـ ٤، ص ١٦-١٧.

(٤) هو "شهاب الدين" ابن قاضى القضاء "شمس الدين الخوى الشافعى" قاضى قضاة دمشق وابن قاضيه. ولد فى سنة ست وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) وتوفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٣م). أنظر: الكتي: فوات الوفيات-تحقيق إحسان عيسى- جـ ٣، ص ٣١٣-٣١٤، ترجمة رقم ٤٣٤ الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ ٢، ص ١٣٧ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٣٢٧ ابن العماد: شفرات الذهب، جـ ٥، ص ٤٣٣ ابن خلدون: العبر، جـ ٥، ص ٣٧٩ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٥٤٣ المقدسى: الأئس الجليل، جـ ٢، ص ٤٦٦.

(١) قاضى القضاء لهذه المدينة على أثر نجاح الأشرف خليل فى الاستيلاء عليها. إذ جاء فى هذا الكتاب^(٢):

"..... وكانت هذه القلعة المذكورة

للغور الإسلامية بمنزلة الشجأ

فى الحلق والغلة فى الصدر،

والخسوف الطارئ على طلعة البدر،

لا تخلو من غلٍ تُضمّره، فى لين

تظهره، وغدر تستره،

فى غدر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها

الى مخادعة الجار، وموادعة التتار،

وممالأهم على الاسلام بالنفس والمال،

ومساواتهم لهم حتى فى الزى والحال،

ويعدوهم بالهدايا والألطف، ويدلوهم

على عورات الأطراف وهم يقفون بمسألة

الأيام، ويدعون أن قلعتهم لم تنزل

الحوادث فى ذمام....."^(٣)

(١) نسبة إلى "خوى"، وهى مدينة بأذربيجان. (أنظر: القلقشندي: جـ ٤، ص ٣٥٩). وفى ياقوت "خوى، بلد مشهور من أذربيجان، حصين كثير الخير". أنظر: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٤٠٨؛ البغدادي: جـ ١، ص ٤٩٣. أنظر أيضاً: فلير نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ٧٩. وكذلك: خريطة رقم ١، ص ٧٧، وخريطة رقم ٢، ص ٨١..

(٢) يوجد نص الخطاب فى كل من ابن أليك: كثر الدرر، جـ ٨، ورقة ٣٢٧-٣٣٣؛ ابن الفرات: جـ ٨، ص ١٣٩، ١٤١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٦، ورقة ١٠٣ ب-١٠٧ أ؛ وملاحق السلوك. ص ١٢-١٦؛ ابن حبيب: تذكره النبى، جـ ١، ص ١٥١-١٥٢؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٤؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ ٣، ورقة ١١ ب-١٣ ب. انظر أيضاً:

DANIEL DE THAURISIO FRATIS DANIELIS ADERRORES IMPOSITOS HERMENIS, P. 648, NOTE A; GESTES DES CHIPROIS, P. 839, NOTE C; R.H.C., DOC. ARM, T. I, P. LII; SEMPAD, P. 654. CF. REY, LES COLONIES FRANQUES, P. 318. وقد ذكر ابن الفرات أن هذا الكتاب من إنشاء الفاضل شرف

الدين القدسي. أنظر: تاريخ ابن الفرات، جـ ٨، ص ١٣٩.

(٣) زترستين: ص ١٤؛ النويرى: جـ ٢٩، ورقة ١٠١؛ الياقنى: مرآة الجنان، جـ ٤، ص ٢١٩؛ تاريخ ابن الفرات، جـ ٨، ص ١٣٩-١٤٠.

وعقب ذلك، تحدث "علم الدين سنجر الشجاعى" عن حصانة قلعة الروم مما جعل سكانها يعيشون فى أمن وأمان، إذ يصعب على أى عدو الوصول إليها تنعم بحماية طبيعية، فيحيط بها الجبال الشاهقة، بل أن نهر الفرات ساهم بفاعلية فى حمايتها من أى عدوان آت من الشرق وزاد من مناعتها أن استدار نهر حولها الغرب "فلنعطف معها كالسور"؛ إضافة إلى أن الخنادق تحيط بأوديتها. وقد أدرك السلطان الأشرف خليل مدى حصانتها^(١)، ففي كتابة إلى قاضى القضاة "شهاب الدين الخسوي" قارون بين قلعة الروم ومدينة عكا فقال: "كانت أحصن من عكا"^(٢). أما بيارس الدوادار^(٣) المنصورى^(٤) (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) - الذى شارك بشخصه فى حملة الأشرف خليل على قلعة الروم - فقد ذكر أنها :

"... من أحصن^(٥) القلاع
وأعظمها فى الارتفاع
والامتناع ولا تتوصل إليها إلا من
طريق صعبه المرتقى^(٦) كثيرة

(١) نزل السلطان الأشرف خليل بجيشه على قلعة الروم فى يوم الثلاثاء ٨ من جمادى الآخرة سنة ٦٩١هـ/٢٧ مايو ١٢٩٢. أنظر : تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٦؛ المقرئى: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٧٨؛ ابن أيلك: كثر الدرر، ج ٨، ورقة ٣٢٣.

(٢) زترستين : ص ١١.

(٣) "الدوادار" أى ممسك الداوة، والوظيفة اسمها "الداوادية" وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقدم القصص والشكاوى إليه. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٦٢.

(٤) عن ترجمته أنظر: بيارس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ المجر - تحقيق زبيدة محمد عطا - ص ٢١-٢٩؛ التحفة المملوكية فى الدولة التركية - نشر عبد الحميد صالح حمدان - لبنان ١٩٨٧ - ص ٥-١٣؛ فائز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصفري، ص ٢٣-٢٥.

(٥) فى الكتبى "من أحسن"، والصحيح ما أثبتناه. أنظر: عيون التواريخ، ق ١، ج ١٢، ورقة ٦٤. والجدير بالملاحظة أن الكتبى نقل نقلا يكاد يكون حرفيا عن بيارس الدوادار، مع حذف القليل من الجمل القصيرة التى لا تخل من المعنى؛ حتى أن مخطوط "عيون التواريخ" قد ساعدنا على فك بعض طلاسم مخطوط "زبدة الفكرة"، إذ كان بمثابة نسخة ثانية له.

(٦) فى الكتبى "المرتقا". عيون التواريخ، ق ١، ج ١٢، ورقة ٦٤..

العقاب والصوى^(١) ، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلا

لوعورة^(٢) مسالكها

وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات

يجرى من تحتها ولا متزلة لمن ينازلها

إلا في لحفها...^(٣)

في حين كان "أبو الفدا" في مصدره "المختصر في أخبار البشر" شديد الإيجاز في وصف
حصانة قلعة الروم، إذ أورد

:"... وهي حصن على جانب الفرات

في غاية الحصانة ...^(٤) "

وكان حريصا أيضا على إظهار دوره^(٥) ودور عسكر حماة على وجه الخصوص في
فتح قلعة الروم فقد ذكر في مصدره أن

:"... هذا الحصار أيضا من جملة

الحصارات التي شاهدها،

وكانت متزلة الحمويين على

رأس الجبل المطل على القلعة من

شرقها^(٦) ، فكنا نشاهد

أحوال أهلها في مشيهم وسعيهم

(١) هكنا في بيبس الدوادار، وجملة "كثيرة العقاب والصوى" ساقطة من الكتي.

(٢) "لغور مسالكها" في عيون التواريخ، ق ١، ج ١٢، ورقة ٦٤.

(٣) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٢٩٧؛ الكتي: عيون التواريخ، ق ١، ج ١٢، ورقة ٦٤؛ بيبس الدوادار: تحقيق زبدة عطا، ص ٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص ١٣٠-١٣١. ويلاحظ اختلاف أسلوب بيبس الدوادار في مصدره الثاني عن مصدره الأول، إذ أورد: "... وهي أحصن القلاع وأشهرها بالامتناع لأنها مرتفعة غاية الارتفاع، موضوعة في جبال صعبة المسالك ممتعة عن السالك، لا يتخلص إليها الراحل إلا بعد التعب الشديد والجهد الأكيد، وليس حولها فسحة لتزول العساكر وبحر الفرات يمر من تحتها ملاحفا ولمن يحاولها مزاحفا". قارن: زبدة الفكرة ج ٩، ورقة ٢٩٧ مع النص السابق ذكره والوارد في: التحفة المملوكية، ص ١٣٠-١٣١.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٢٧.

(٥) أبو الفدا : ج ٤، ص ٢٦. وقد أشار إلى ذلك اليوناني: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ورقة ١٠ ب؛ المقرئزي:

السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٧٨.

(٦) في المقرئزي: "كان منحنيق صاحب حماة على رأس الجبل". أنظر : السلوك: ج ١، ق ٣، ص ٧٧٨.

في القتال وغير ذلك ... وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبل
المطل على القلعة. فتقدم مرسوم
السلطان إلى صاحب حماة أن يرمى
عليهم المنجنيق. فلما وترناه لنرمى
عليهم طلبوا الأمان من السلطان..^(١)

ولقلعة الروم أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والاستراتيجية، لتحكمها في
الطريق البري إلى بلاد الشام من جهة الشرق؛ ولذلك كانت تسمى "مفتاح بلاد
الشام"^(٢)، وهي ذات موضع حصين، وتقع في البر الغربي الجنوبي للفرات، شمال غربي
حلب، على خمس مراحل منها، على مرحلة غربي البيرة^(٣)، ويمر بها نهر المرزيان^(٤)
الذي يصب في الفرات. وتقع بين البيرة وبين سميساط^(٥).
وكان يسكن قلعة الروم أخلاط من الأرمن والتار^(٦). وكانت الكونتيسة
"بياتريس" BEATRICE قد أنعمت على بطريك الأرمن^(٧) - أي الكاثوليكوس

(١) أبو الفداء: ج-٤، ص ٢٧؛ اليوناني: ج-٣، ورقة ١٠ ب.

(٢) LE ROIHETHOUM II, DANS R.H.C., DOC. ARM., T. I, P. 543. (٢)

(٣) "البيرة" بلد قرب سميساط، بين حلب ومنطقة الثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. (أنظر:
باقوت: ج-٢، ص ٣٣؛ البغدادي: ج-١، ص ٢٤). وفي الكامل أنها قلعة متيعة على الفرات من الجانب
الجزري. أنظر: ابن الأثير: ج-٩، ص ١٥٦. أنظر أيضاً :

DUSSAUD, TOPOGRAPHIE HISTORIQUE DE LA SYRIE ANTIQUE ET
MEDIEVALE, PARIS, 1924, P. 461.

(٤) "مرزيان" عرف هذا اللفظ "أبو الفداء" في "تقوم البلدان" في الكلام عن قلعة الروم، فقال بأنه نهر يجيء من
ناحية الجبل ويصب في الفرات تحت قلعة الروم. أنظر: أبو الفداء: تقوم البلدان، ص ٢٦٩.

(٥) "سميساط" بضم أوله، وفتح ثانية، وياء مثناه ساكنه وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطئ
الفرات في طرف الروم، على غربي الفرات؛ ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. أنظر: فايز إسكندر: أرمينية
بين البيزنطيين والأتراك والسلاجقة، ص ٢١٥، حاشية رقم ٤٦٣؛ وص ٢٣؛ حاشية رقم ٥٤٨.

(٦) WIET, HISTOIRE DE LA NATION EGYPTIENNE, PARIS, 1937, T. IV, P. 461 (٦)

(٧) يسمى بطريك الرمن "كاثوليكوس" CATHOLOCOS، وهو الرئيس الأعلى لطائفة الأرمن. ويطلق
الأرمن عليه "الكاتاغيكوس". أما المصادر الإسلامية فتارة تلقبه "بترك الأرمن" (أنظر: السلوك، ج-١، ق ٣،
ص ٧٧٨؛ ابن الفرات: ج-٨، ص ١٣٧)؛ وتارة ثانية "بطرك الأرمن" أنظر: النويري:
ج-٢٩، ورقة ١٠١ أ؛ عيون التواريخ، ق ١، ج-١٢، ورقة ٦٥؛ ابن أبيك: زبدة، زبدة
عطا، ص ٢٦٨)؛ وتارة ثالثة "كيتاغيكوس" أخذنا من الأرمن (أنظر: زيرمستن، ص ١٥،
١٧)، وتارة رابعة "الكاغيكوس" (أنظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٤-١٢٥؛

CATHOLICOS- بهذا الموضع الحصين ليتخذ مقراراً له، كان ذلك سنة ١١٥٠م/٥٤٥هـ^(١). ومن هنا كان اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم ليجعل منها حصناً لصد غارات التتار على سلطنته وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عمق الخبرة لذلك العاهل المملوكي.

على أية حال، عندما علو الملك الأرمني "هيثوم الثاني" بمغادرة جيوش السلطان المملوكي حلب في طريقها لمحاصرة "قلعة الروم" أسرع باحتلال ممرات جبال الأمانوس، وهي مفتاح الدخول إلى مملكة أرمينية الصغرى^(٢)، كذلك أردف ذلك التصرف الإستراتيجي بالإلحاح في طلب النجدة من خلفائه التتار، ولكنهم تأخروا عن إسعافه في الوقت المناسب. ففي هذا الصدد يذكر "رشيد الدين" (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) في مصدرة "جامع التواريخ" أنه

"..وصلت الأنباء من الروم تفيد

إن جيش العداء قد وصل من الشام،

وأن الملك الأشرف قد حاصر قلعة

الروم. وفي شهر رجب توجه

"تايجو أغول بن منكوتيمور" و "طعارجار"

و "يوقداني الاقتاجي" و "تماجي ايناق"

مع جيش مجهز للقضاء على هؤلاء الأعداء.

وفي نفس شهر شعبان توجه المير

"سوكاي" والأمير "تيمور بوقا"

و "قراجة" إلى قلعة الروم عن طريق

ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٣٢٠؛ وتارة خامسة "كينا غيلومس" (أنظر:

أبو الفدا: ج٤، ص ٢٧)؛ وتارة سادسة "خليفة الأرمن" أنظر: زترستين، ص ١٧.

(١) SMBAT, LA CHRONIQUE ATTRIBUEE AU CONNETABLE SMBAT,

TRAD. GERARD DEDEYAN, PARIS, 1980, P. 55, N 34. VAHRAM DEDESSE, CHRONIQUE RIMEE DES ROIS DE LA PETITE ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., I, P. 518; VARTAN LE GRAND, DANS R.H.C., DOS. RAM., I, P. 435.

LE ROI HETHOUM II, P 542.

(٢)

أخلاق^(١) وأرجيش^(٢). ولكن الملك الأشرف استولى على قلعة الروم في
أواخر رجب، وقتل بعض سكانها، وأسر
البعض، وسلم القلعة إلى حراس من قبله ،
ثم عاد^(٣)...."

هذا بينما تحدث المؤرخ بييرس الدوادار في مصدرية "زبدة
الفكرة في تاريخ الهجرة" و "التحفة المملوكية في الدولة التبركية"^(٤)
عن تلك النجدة التبرية، إذ قال إن هدفها مفاجئة جيوش
المماليك، وإكراههم على فك حصارهم لقلعة الروم؛ وارجع
سبب انسحاب التتار إلى ضخامة جيوش المماليك، إذ جرد
السلطان الأشرف خليل أربعة من مقدمي الألوف، وانخرط

(١) "أخلاق" أو "خلاق" هي قصبة أرمنية الوسطى، وتقع الشاطئ الشمالي لبحيرة وان VAN، جنوب غرب ملاذكرد.

للتفاصيل أنظر: BRYENNIOS TR. GAUTIER, I, CH. XIV P. 108, N.2;

CONSTANTINE PORPHORIGENITUS, VOL. II, COMMENTARY, PP. 167-168. CF. CANARD, HISTOIRE DE LA DYNASTIE DES HAMDANIDES, PARIS, 1953, 184

أنظر أيضاً: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات العربية الأرمنية - دراسة تاريخية مع عرض وتحليل ودراسة مقترنة للمصادر والمراجع - مجلة سيرتا - العدد ٩/٨ - الجزائر ١٩٨٣ ص ٣٨، البيزنطيين والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد - الإسكندرية ١٩٨٤ ص ٧١-٧٤، حاشية رقم ٧٢؛ الحياو الاقتصادية في أرمنية إيان أرمنية إيان الفتح الإسلامي، ص ٤٠-٤١.

(٢) "أرجيش" مدينة من نواحي أرمنية الكبرى، قرب خلاق، وتقع على الشواطئ الشمالية لبحيرة وان VAN، وأكثر سكانها من الأرمن. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمنية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢١١، حاشية رقم ٤٤٦.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثاني - نقلة عن الفارسية فواد عبد المعطي الصياد - القاهرة ١٩٦٠ - ج ٢، م ٢، ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) "التحفة المملوكية" ما هو إلا موجز المخطوط زبدة الفكرة، إلا أن بييرس الدوادار توقف فيه عن أحداث سنة ٧١١هـ/١٣١١م. وبمقارنة المصنفين نلاحظ أن "التحفة المملوكية" فيه تفسير وتوضيح لبعض موضوعات "زبدة الفكرة" الموجزة؛ وغير مثال على ذلك، تناول المصنفين لثورة المماليك السلطانية الأشرفية سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م؛ إذ جئنا الدوادار إلى سرد أحداثها بإيجاز في "زبدة الفكرة" في حين زدنا بتفاصيلها في "التحفة المملوكية".

المؤرخ بييرس الدوادار المنصوري في تلك التحريفة^(١)، وكان من مضافي الأمير بدر الدين بكتاش^(٢) أمير سلاح^(٣).
هكذا حاصرت جيوش الشرف خليل قلعة الروم، واستمر حصارها حوالي ثلاثة وثلاثين يوما، وضربت أسوارها بعشرين منجنيقا. وقد عين "النويري" (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م) في مخطوطة "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنواع هذه المجانيق فقلل أن

"... خمسة منها فرنجية وخمسة عشر
قرايغا لصحتها "قرايغري". أنظر: أرنبغا
الزرد كاش: الأنيق في المنلحيق، ص ٨، ٧، ٣ {
وشيطانية...^(٤)"

(١) "التحريفة" جمعها "تجاريد" بمعنى الحملة الحربية. أنظر: خليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك-باريس ١٨٩٤- ص ١٣٦.

(٢) هو "بكتاش بن عبد الله الفخري"، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخير وكان مقدما على الجيوش. أصله من ممالك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل إلى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى في الخدمة حتى صار من أكابر الأمراء، وغزا غير مرة. ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فامتنع وأشار بعود السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. للتفاصيل أنظر: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي-تحقيق نبيل عبد العزيز-القاهرة ١٩٨٥- ج ٣، ص ٣٨٥، ترجمة رقم ٦٧٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٤، ترجمة رقم ١٣٠١؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٧٢؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2061 - ورقة ٥٦، ترجمة رقم ٨٦؛ المقرئ: المقفى الكبير-مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 - ورقة ٢٥٤ أ - ٢٥٥ ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٢٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) يلي الأتابكية في المكانة وظيفة "أمير سلاح"، وصاحبها هو رئيس السلاحدارية من المماليك السلطانية، ووظيفته حمل سلاح السلطان في المواقب العامة والأشراف على السلاح خاناه. ويأتي بعده "أمير مجلس" ثم "الدوادار الكبير" الذي يتولى تبليغ الرسائل للسلطان، ورفع القصص، وتقدم البريد إليه؛ كما يحصل على تصديق السلطان على المناشير والتواقيع. أنظر: القلقشندي: ج ٤، ص ١٨-١٩.

(٤) النويري: ج ٢٩، ورقة ١٠٠ ب. أنظر أيضا: ابن الفرات: ج ٨، ص ٣٦ أ؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١١٩؛ ابن أبي الفضائل: ص ٢٨٩؛ الباعوني: أرجوزة لطيفة في التاريخ-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1615 - ورقة ٢٣؛ الذهبي: العبر في أخبار من غير مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1680 - ج ٢، ورقة ٢٢٤ ب، الصديقي: نزهة الأبصار وجهينة الأخبار-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1561 ورقة ١٠٦ ب-١٠٧ ب؛ محمد بن

هذا وقد زودنا "المفضل بن أبي الفضائل"^(١) (توفي في منتصف القرن الثامن الهجري/منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) في مصدره "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العمد" بتفاصيل عن مواضع تلك المجانيق، إذ جاء في مصدره

:"... وحكى الأمير سيف الدين بن المحفدار، قال إن مدة المقام على حصار قلعة الروم ثلاثة وثلاثون يوما، وعدة ما نصب عليها من المجانيق تسعة عشر، فرنجية خمسة، وقا بغاية {هكذا في الصل وصحتها كما وردت في معظم المصادر: قرابغرى} وشيطانية أربعة عشر، خارجا عن منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل^(٢)، ومن الجهة البحرية الفراتية الأفرام إثنان، والسلطان واحد فرنجي، ومن الجهة الشرقية وعلى جانب الفرات بيسرى واحد، ومن الجهة الغربية

أبي السعادات: تاج المعارف وتاريخ الخلايق، ورقة ٦٤ ب، اليافعي: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ ب؛ المقدسي: نزهة الناظرين، ورقة ٤١ أ. والفرنجية، والقراغا، والشيطانية ضرب من السلاح وهو نوع من المجانيق. (أنظر: ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور، ص ٧٨، حاشية رقم ٢). وقد تحدث "أرنيفا الزردكاش" في مصدره "الأنيق في المناجيق"-الذي يعد أهم المصادر الإسلامية على الإطلاق عن تلك الآلة المنجنيق المختلفة فقال: "... ومنه الكبير والصغير: فمنه المنجنيق الحربي "القرابغرى"، وهو عبارة عن آلة من خشب جيد لها دفتان قائمتان، تقع فوق كل واحد منهما حجرة من خشب وثيق، وبينهما سهم-عريض، فتقبل من جهة الذنب، نحيف، فخفيف من ناحية الرأس-قد زود بأصبع (ص ٣)... والمنجنيق الحربي "القرابغرى" على شاكله المنجنيق الفارسي أو التركي، إلا أن هذا الأخير بدفة وجزيرة واحدة (ص ٧-٨) ... ومنه أيضا "الفرنجي"، وهو على ثلاثة أنواع: الأول بصندوقين وسهم يدور من أي جهة يريد الإنسان (ص ٣) ... والمنجنيق الفرنجي مماثل للمنجنيق السلطاني (ص ٧) للتفاصيل أنظر : الأنيق في المناجيق-تحقيق نبيل محمد عبد العزيز-ص ٣ وما بعدها .

(١) عن ترجمة "مفضل بن أبي الفضائل" وتحليل مصدره أنظر : فايز نجيب إسكلندر : مملكة أرمينية الصغرى، ص ٣٦-٤٠.

(٢) في أبي الفداء : "... وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبل المطل على القلعة..." أنظر: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٢٧.

خمس قوا بغاييه {صحتها: قرايغري} وشيطانية في الروادي
خمسة عشر. (١)

وقد سلط "ابن الجوى" في مخطوطة "جواهر السلوك في الخلفاء والملوك" الأضواء على
الصعوبات التي لاقاها جيش المماليك أثناء حصار قلعة الروم إذ أورد
: "...حكى لي الأمير سيف الدين بن المحفدار أمير
جاندار (٢) قال : ومما جرى لنا من العجائب على
قلعة الروم في شهر أيب وهو تموز والعسكر نازل
عليها قال: فبينما نحن عليها وإذ لقد هبت رياح
مزعجة قوية جدا وشرار وشعب إلى أن رمت
ساير الخيام وباتت الناس على وجل، وأصبح في
الغد رعدت السماء رعدا قويا إلى أن ظنوا أن
السماء تقع على الأرض، وزلت صاعقة أحرقت
ثلاثة أنفس أحدهم مات والآخر احترق نصفه
والآخر من الخوف انخلع قلبه ومات (٣)"

على أية حال، ضرب الأشرف خليل الحصار حول "قلعة الروم"، وأخذت
المنجنيقات ترميها بالأحجار. وقام الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق
بعمل برج خشبي تعلوه قبة، وغطاه باللبود، وحصنه من كل جانب، وأدخل
فيه جنودا يقاتلون وهم بداخله. واستمرت الجيوش المملوكية
عشرين يوما في حصارها للقلعة، ولكنها لم تنل منها منالا.
فأجمع الأمراء على توصيل النقاين (٤) إلى سور الحصن، وأدخلوا من

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٣٨٩، أنظر أيضا: المقرئى: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٧٨؛ زرنستين:
ص ١٦.

(٢) "أمير جاندان" هو الأمير الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم في الديوان، ويقدم البريد
مع النوادر وكاتب السر. أنظر: القلقشندي: ج ٤، ص ٢٠؛ ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ابن الجوزي: جواهر السلوك في الخلفاء والملوك - مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FOND 7639 ARABE -
ورقة ١١٩-١٢٠. أنظر أيضا: اليونى : ذيل مرآة الزمان، ورقة ١٣ ب - ١٤ أ.

(٤) طريقة "نقب الأسوار" من الطرق المعتادة التي استعملها الجيش الأيوبي والمملوكي. وكانت قائمة على نقب أسوار الحصن نقبا
حيث تصبح محمولا على قوائم من الخشب المدهون بالنفط يتم دقها بواسطة النقاين عقب ذلك، تملأ المسافة بين القوائم بمواد سريعة
الاشتعال كالقش والحطب ونشارة الخشب، ثم تشعل فيها النيران التي بدورها تلتهم القوائم الخشبية، فيسقط السور، ويجد المهاجرون
طريقهم إلى الحصن. وحفاظا على أرواح النقاين وخوفا من وقوع السور عليهم، وحماية لهم من التعرض لسهام المدافعين
عن الحصن ونيرانهم في محاولة منهم لوضع حد لعملية النقب، كان يتقدم النقاين ستار واق أطلق عليه

الزحافات^(١) نحواً من ثمانين حجراً بمعاولهم، وتقدم الجنود نحو الأسوار. كما قام فريق آخر من الجند برمي السهام إلى القلعة حتى يشغلوا الأرمن عن النقاين. وأخذ النقاين يعملون بمعاولهم في الأسوار، ولكنهم لم يستطيعوا نقيبها لصلابة أحجارها^(٢). وأتفق في ذلك الوقت أن وصل المعسكر السلطاني نقر من "آل مهنا"^(٣) وأخبروا السلطان أنهم رأوا جيشاً تترى ثان في طريقة إلى قلعة الروم. فجمع خليل الأمراء للتشاور في الأمر. وفي نفس الوقت أسرت آل بيدار^(٤) أن يشير على الأمراء بالرحيل وترك القلعة على أن يرجعوا إليها في العام القادم وذلك لشدة البرد وغزارة الأمطار والثلوج هذا العام، بالإضافة إلى خطر التار الذي يهدد الجيش السلطاني المحاصر للقلعة. فلما سمع الأمراء كلام بيدار سكتوا؛ فقال لهم خليل:

- ماذا تقولون في كلام بيدار؟

الصليبيون اسم "تستودو" TESTUDO ؛ بينما عرف في المصادر الإسلامية بعدد من الأسماء منها: المتراسف، والجنوبة، والطورق والدبابة، والأبراج الخشبية المجلدة الخ.. راجع في ذلك: فايز نجيب اسكندر: فن الحرب والقتال، ص ١٠١، حاشية رقم ٤. وأيضاً:

OMAN, ART OF WAR, II, P. 50; ARCHER & KINGSFORD, THE CRUSADES, P. 352.

(١) "الزحافات" مفردتها "زحافة" وهي آلة من آلات الحرب والحصار. أنظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٤٢٢.

(٢) العيني: جـ ٢١، ق ١، ورقة ٤١-٤٢؛ السلوك، جـ ١، ق ٣، ص ٧٧٨.

(٣) "آل مهنا" من عشائر البدو المنتشرة في بادية الشام. (للتفاصيل أنظر: القلقشندي: جـ ٤، ص ٢٠٣-٢٠٨). وكان عرب آل مهنا وعرب آل فضل من أبرز من جلبوا للسلطان الناصر محمد الخيول مسن بلاد الشام، فأصبحوا أصحاب خطوة لديه، وأقطعهم عدة ضياع بأرض حماه وحلب. أنظر: المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٤؛ السلوك، جـ ٢، ق ٢، ص ٥٢٦-٥٢٧. وأيضاً: حلمي محمد سالم: اقتصاد مصر الداخلي وأنظمة في العصر المماليكي، ص ٢٢٣؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ٢٠٦.

(٤) هو "بيدار بن عبد الله المنصوري" نائب السلطنة في الدولة الأشرفية، وهو الذي خرج على الأشرف خليل وقتله سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م وتسلطن بعده وتسمى بالملك الأوحده لمدة يوم واحد تقريباً حتى قتله خاصكة خليل وعلى رأسهم زين الدين كتبغا الذي تسلطن بعد سلطنة الناصر الأولى. للتفاصيل أنظر: ابن الفرات: جـ ٨، ص ٧١٧-١٨٨؛ المقرئ: السلوك جـ ١، ق ٣، ص ٧٨٢-٧٩٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ٩٨؛ الإسحاقى: لطائف أخبار الأول، ورقة ١٥٨؛ مؤلف مجهول: كتاب في تاريخ العالم من آدم إلى الغزو العثماني، ورقة ٨٩ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ١٩؛ المقرئ، المقفى، ورقة ٢٧٦-٢٧٧؛ التلمساني: سكر دان السلطان، ورقة ٩٥ب؛ الطولوني: الزهرة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية، ورقة ١٩٨.

- فقال الأمراء إنهم مصممون على البقاء حتى تسقط قلعة الروم، لأن رجوعه بدون أخذها يعد ذلك الجهد والحصار الطويل فيه خسار ومهانة لكرامة السلطان وجيشه. ثم قال خليل :
- وما العمل مع التار الذين عبروا الفرات ؟
- فقال الأمير سنقر الأشقر^(١)، السلطان يأمرنا وأنا مستعد أن أركب مع بعض الأمراء لنقابل التار، على أن يستمر السلطان في حصار القلعة حتى لا يشمت فينا الأعداء^(٢).

(١) كان "سنقر الأشقر" مقيماً بصهيون منذ سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد انتهى ما بينه وبين السلطان قلاوون من الجفاء والصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م؛ واعتقد السلطان وهو بالمرقب أن سنقر الأشقر سيسير إليه وهو بها، أداء لواجب التابع نحو المتبوع، لكنه لم يفعل شيئاً منذ ذلك. وعاد السلطان إلى مصر حائفاً على سنقر، لما ظهر منه من قلة الوفاء وكثرة الجفاء. وحدير بالذكر أن السلطان قلاوون كان قد ولاه نيابة السلطنة في دمشق في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وتوفي سنقر مقتولاً في سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. للتفاصيل عن خروج سنقر الأشقر على الملك المنصور قلاوون، راجع: ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٥٧؛ نهاية الأرب، ج٢٩، ورقة ٦٩-٧٠، ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١١٢؛ كثر الدرر، ج٨، ورقة ٣٤٠؛ السلوك، ج١، ق ٣ ص ٧٨١-٧٨٢؛ تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص ١٥١؛ الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ورقة ١٤٩-١٥٠؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٨٥، ترجمة رقم ١٢٧؛ ابن الوردي: تمة المختصر، ج٤، ص ١٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٣٩٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٩٨-٢٩٩؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ورقة ١١٠-١١٣. أنظر أيضاً: DARDEL, CHRONIQUE D'ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., T.H. PP. 14-15, NOTE 2.

(٢) العميني: عقد الجمان، ج٢١، ق ١، ورقة ٤١-٤٢. ونستخلص مما أورده العميني أ، بيبرس الدوادار لم يكن شاهد عيان إلا في التحريفة التي أرسلها الأشرف خليل لمواجهة النجدة الترية، وكان من مضاي الأمير بدر الدين بكثاس- كما أوردنا في المتن- أما أوائل عمليات الحصار لقلعة الروم، فلم يكن شاهد عيان لها. أضف إلى ذلك أنه لم يكن على علم بكتابات البشري بفتح تلك القلعة، ومنها كتاب أرسله الأمير علم الدين الشجاعى (جاء في ابن الفرات والنويرى أن هذا الكتاب كان من انشاء الفاضل "شرف الدين القدسي". أنظر: تساربخ ابن الفرات، ج٨، ص ١٣٩؛ نهاية الرب، ج٢٩، ورقة ١٠١ أ) إلى قاضي قضاة دمشق (ورد ذكر هذا الكتاب في تاريخ سلاطين المماليك-تحقيق زترستين-ص ١٢-١٦، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ورقة ١١-١٣؛ النويرى: ج٢٩، ورقة ١٠١ أ-١٠١ ب؛ ابن أيك: كثر الدرر، ورقة ٢٨٧-٢٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٥٠-١٥١؛ درة الأسلاك، ورقة ١١٠-١١١؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك في الخلفاء والملوك، ورقة ١١٣-١١٩؛ ابن الفرات: ج٨، ص ١٣٧-١٣٨) وكذلك الخطاب الذي أرسله السلطان الأشرف خليل إلى تقس القاضي؛ (عنه أنظر: زترستين، ص ١٠-١٢؛ ابن أيك: كثر الدرر، ورقة ٢٨٤-

وبالفعل، رسم السلطان لسنقر الأشقر وبدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح للزحف لملاقاة التار. وكان عدد ذلك الجيش ألفى فارس، انضم إليهم جنود من البلو من آل مهنا، وآل فضل^(١)، وآل مرا^(٢)، وبني كلاب^(٣)، وأمراء التركمان^(٤). وجد الجيش في المسير نحو الفرات وغيره، وسار إلى البر الشرقي نحو يوم وليلة فلم يجد أثراً للتار الذين ولوا مدبرين بعد تلك المجاهدة الثانية^(٥).

١٨٧؛ النويري: جـ ٢٩، ورقة ١٠٠ ب-١٠١ أ) وأخيراً الكتاب الذي كتبه الإمام شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمي. (أنظر: ابن حبيب: تذكره النبيه، جـ ١، ص ١٥٢-١٥٣؛ درة الأسلاك، ورقة ١١١). -
ففي الكتب الثلاثة إشارات مختصرة عن المجهودات الأولية التي قام بها الجيش المملوكي في سبيل الاستيلاء على قلعة الروم، والتي أغفل المؤرخ بييرس الدوادار ذكر تفاصيلها رغم كونه شاهد عيان لها.

(١) "آل فضل" هم بنو "فضل بن ربيعة"، ومنازلهم من حصص آل قلعة جعير إلى الرحبة آخذين على شقي الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبله بشرق آل الوشم آخذين يساراً إلى البصرة. أنر: القلقشندي: قلائد الجمان في قبائل الزمان، ص ٧٦؛ صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠٤-٢٠٨. بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي الفرات.

(٢) "آل مرا" نسبة إلى "مرا بن ربيعة"، وهو أخو "فضل بن ربيعة" ومنازلهم في حوران. للتفاصيل أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠٨-٢١٠؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان-تحقيق محمد مصطفى-القااهرة ١٩٦٢-١٩٦٤ جـ ١، ص ٩٨، ١٠٤، ١٩٦. ويدعى آل فضل وآل مرا وآل مهنا وآل علي أنهم من ولد جعفر بن يحيى البرمكي من العباسية بنت المهدي، واتباعهم من أشقات العرب، ودونهم عربان بني مهدي بالبقاء وزيد بجوران وبنو خالد بمحص. أنظر: العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٧٩؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٠٥؛ العمري: مسالك الأبصار، جـ ٣، ورقة ٢٣، ٣٤.

(٣) "بنو كلاب" من أعراب حلب، وكانوا بشمال الشام. للتفاصيل أنظر: ابن ميسر: أخبار مصر-نشر هنري ماسيه-القااهرة ١٩١٩-١٩٢٠ جـ ٢، ص ٤٠؛ القلقشندي ك جـ ٤، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) كان "التركمان" يتشرون في معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعدد القلقشندي عشر طوائف من تركمان الشام. (للتفاصيل أنظر: القلقشندي: جـ ٧، ص ١٩٠، ٢٨٢؛ ابن شاهين الظاهري: ص ١٠٤-١٠٥)، وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان، ووفرت لهم الإقطاعات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء التاحين وهو. الصليبيون والتار والأرمن، هذا فضلاً عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الأمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء أشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل أنظر: القرمان: أخبار الدول، ص ٣٢٩-٣٤٠. أنظر: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر بريقوق، ص ٥-١٩). ولم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمة بسبب النزاع المستمر بينهما، والذي كان يتج عنه زيادة ونقصانا في بعض هذه الأملاك. أنظر: حلمي محمد سالم: المرجع السابق، ص ٩-١٩.

(٥) الدوادار: جـ ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩؛ العمري: جـ ٢١، ق ١، ورقة ٤٢.

ولما بلغ السلطان المملوكي خبر فرار التار ، زاد في عزمه وفي عزم جيشه على مواصلة حصار القلعة. ومما ساعد جيوش خليل على النصر أن الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" -الذي كان له النصيب الأوفى في فتح قلعة الروم- تحيل في عمل سلسلة عظيمة علقها بأسوار بواسطة هذه السلسلة حتى تمكنوا من دخول القلعة، وبذلك نجحوا في تخريبها، ورفعوا أعلام السلطان عليها^(١).

"... ثم تابعت العساكر فملكوا

القلعة ولعت السناجق^(٢) بسرعة وقتل

من وجد فيها من المقاتلة^(٣)..."

وكانوا من الأرمن والتار، وأسروا مائتي رجل وطف وامرأة، وأحرقوا قصر البطريك الأرمني وكنيسة، كما أسروا بطريك الأرمن ستيفانوس الرابع^(٤) (١٢٩٠-١٢٩٣م) STEPHANOS IV وأرسل إلى القدس حيث صلب. أما القساوسة وباقي الأسرى فد أرسلوا إلى القاهرة^(٥).

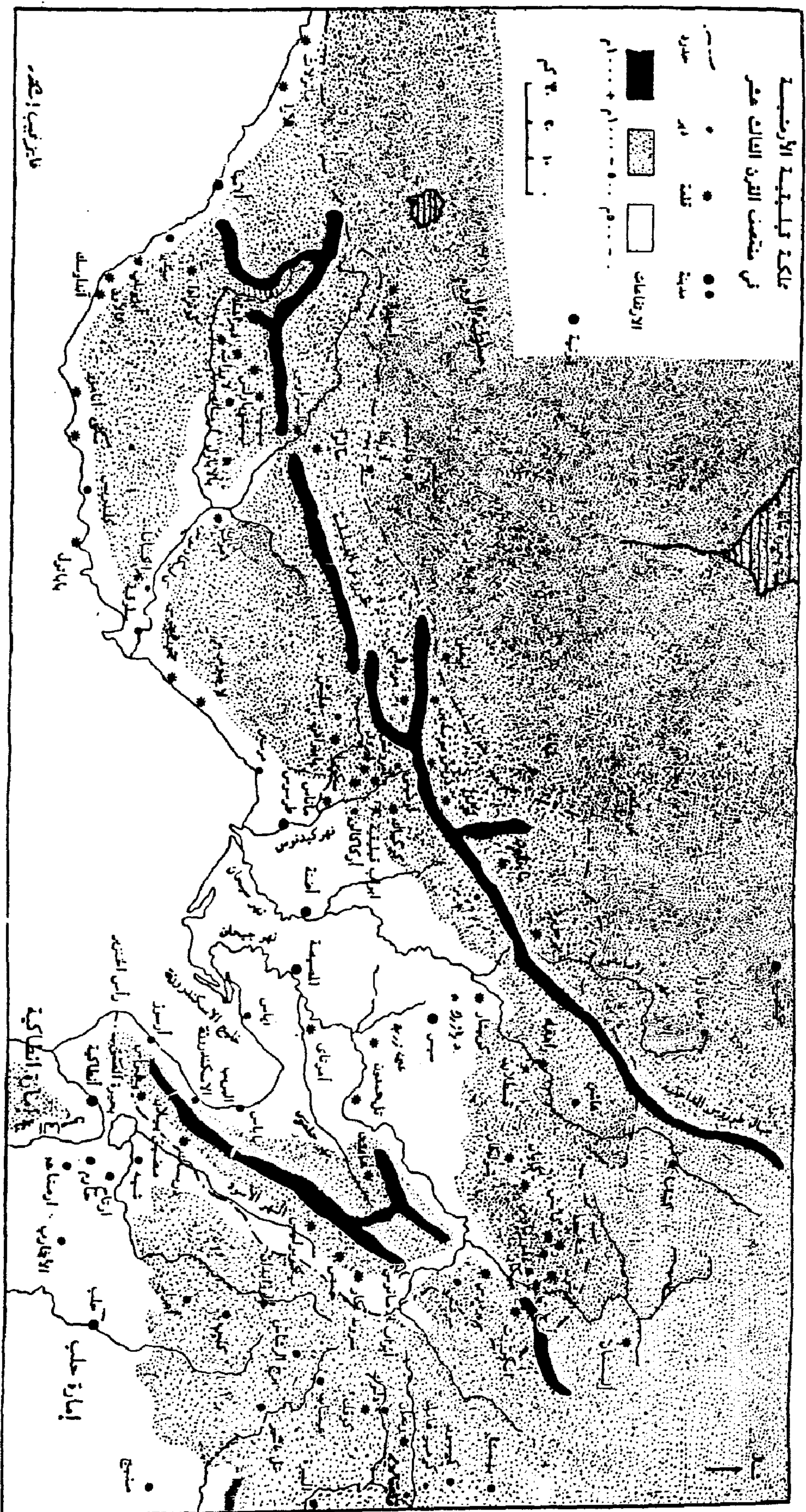
(١) ابن الفرات: جـ٨، ص ١٣٦؛ الكتي: عيون التواريخ، جـ١، ق ١٢، ورقة ٦٤؛ المقرئى: السلوك، جـ١، ق ٣، ص ٧٧٨؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) "السناجق" مفردا "سنجق"، وهو لفظ تركي كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايات الصفراء الصغار التي تربط بطرف الرمح ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدي السلطان في مواكبته. أنظر: القلقشندي: جـ٤، ص ٤٨؛ جـ٥، ص ٤٥٦-٤٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٩٠، حاشية رقم ٢.

(٣) الكتي: جـ١، ق ١٢، ورقة ٦٥.

(٤) يدعى "ستيفانوس الرابع كلايتسى" KLAIETSI أي من "قلعة الروم" تولى كرسي بطريركية الأرمن خلال الفترة من ٢٩٠م إلى أن توفى سنة ١٢٩٣م. للتفاصيل أنظر: BAR HEBRAUS, CHRONICON SYRIACUM, PARIS, 1789, P. 579, TOURNEBIZE, P. 221; HONIGMANN, RUMQAL'A ENC. ISLAM, P. 1258.

(٥) الصديقي: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٧؛ ابن الحوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٢١؛ المقرئى: السلوك، جـ١، ق ٣، ص ٧٧٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص ١١٣٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٤٩؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٧. والجدير بالذكر أن المؤرخ الفرنسي المحدث رينيه جروسيه ذكر أن البطريك الأرمني ستيفانوس الرابع اقتيد أسيرا إلى دمشق حيث توفى في العام التالي. أنظر: L'EMPIRE DU LEVANT, P. 412. ويسقط قلعة الروم، انتقل مقر بطريرك الأرمن الجديد ألا هو جريجور السابع (١٢٩٣-١٣٠٧م) GRIGOR VII إلى "سيس" عاصمة مملكة أرمينية الصغرى. وظلت سيس عاصمة لبطاركة الأرمن حتى سنة ١٤٤١م. أنظر: TOURNEBIZE, P. 221; GROUSSET, P. 412.



واتفق بعد ذلك وصول الأمير "سيف الدين جنكلى" الى القاهرة، فذكر أنه كان فى تلك السرية، وكان عدد التار حوالى عشرة آلاف فارس بقيادة أحد الأمراء ويدعى "بيتمش" وكان هدف التار مباغته الجيش المملوكى وأخذه على غرة أثناء حصاره لقلعة الروم. ولكن لما رأى الجيش الترى كثرة عدد جيش المماليك قفل راجعا. وفى غضون ذلك، أصاب الجمال مرض مميت فأباد أكثره، فاضطر الجيش المملوكى الى حمل الأثقال على البغال^(١).

وعقب سقوط قلعة الروم يوم السبت ١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/ ١١ رجب سنة ٦٩١هـ أمر السلطان بأن يمحها عنها سمه الرومية وأن تسمى "قلعة المسلمين"، ورتب الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب الشام لعمارها. فعمر ما هدمته المجانيق والثقوب وخرب روضها^(٢). كما عين الأمير "جمال الدين أثنى" نائبا على "قلعة المسلمين"^(٣).

(١) هو الأمير "سيف الدين جنكلى بن محمد بن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد الله" المعروف بـ "أبن الباب العجلى" أتاكك العساكر. وكان أصله من بلاد الروم. طلبه الملك الأشرف خليل وكتب له منشورا بالإقطاع الذي عينه عليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد فى سنة أربع وسبع مائة. فأمره وأكرمه ولا يزال يرقه حتى صار نائب الكرك. وتوفى سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م. للتفاصيل انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص ١٣١. أنظر أيضا HOWORTH, HISTORY OF THE MONGOLS, LONDON, 1876, T.III, P. 336.

(٣) أدرج ربنه جروسى سقوط قلعة الروم م ٢٩ يونيو ١٢٩٢م، أنظر L'EMPIRE DU LEVANT, P. 412 وصحة ذلك ما أثبتناه فى المتن استنادا إلى إجماع كافة المصادر الإسلامية على ذلك. أنظر: الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص ١٣١؛ أبو الفداء: ج ٤، ص ٢٧؛ النويرى: ج ٢٩، ورقة ١٠٠ب؛ السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٧٨؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ورقة ١٠ب؛ النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٢؛ ابن الفرات: ج ٢، ص ٢٨؛ العيني: ج ٢١، ورقة ٥٦؛ أنظر أيضاً: SEMPAD P. 654; LE ROI HETHOUM II, P. 543; SAMUEL D'ANI, P. 463

(٤) "الربض" سوق القلعة أو المدينة وما حولها من بيوت ومساكن. أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٩٠ حاشية رقم ٢.

(٥) أبو الفداء: ج ٤، ص ٢٧؛ الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص ١٣١؛ النعمى: كتاب دول الإسلام تحقيق فهدى محمد شلتوت- القاهرة، ١٩٧٤- ج ١، ص ١٣٩؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ج ٣، ورقة ١١٤أ؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٧؛ كتاب تاج المعارف وتاريخ الخلفاء، ورقة ٦٤ب؛ قلماز: العبر، ورقة ٢٢٤ب؛ اليافعى: غريال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ نزهة الأبصار، ورقة ١٠٧أ؛ الكنى: عيون التواريخ، ورقة ٦٥.

هكذا سقطت قلعة الروم في قبضة المماليك بفضل الحيلة الحربية الماكرة التي ابتدعها "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق. وكان السلطان قد رحل إلى حلب فأقام بها بقية رجب وشعبان. ومالبت أن عاود إلى دمشق فرحب به أهلها، وبسطوا شقق الحرير التي لم تجر العادة بأعدادها إلا عند قدومه من مصر. ولكن وزيرة "شمس الدين بن السلعوس" أشار بوضعها في طريقة احتفاء بفتح قلعة الروم. وأمضى الأشرف خليل في دمشق شهر رمضان المبارك وعيد الفطر، ثم عاد إلى مصر فدخل "قلعة الجبل" في يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر سنة ١٢٩٢م/ ثاني ذى القعدة سنة ٦٩١هـ^(١). وتحدث "النويرى" في مخطوطة "نهاية الأرب في فنون الأدب" عن أعداد الأسرى الأرمن بعد استيلاء المماليك على قلعة الروم قائلا:

"... ووصل إلى الزردخاناه { أى يبيت
السلطان من الأسرى ألف أسير
ومائتا أسير... }"^(٢)

كان هذا درسا لمملكة أرمينية الصغرى وعقبا على مواقفها المعادية لمماليك مصر؛ كما كان في ذات الوقت أنذارا لها بالمصير الذي ينتظرها وكان وشيك الوقوع بعد أن فرغ المماليك في تصفيه الوجود الصليبي في بلاد الشام، وإضعاف شوكة التار بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك.

وبعد أن تم للسلطان الأشرف خليل الاستيلاء على قلعة الروم، بعث إلى "شهاب الدين بن الخوي" قاضى القضاة بدمشق كتابا جاء فيه.

"... فإنه بفتح هذه القلعة وحياسة ثغرها
ومعلقها تحقق من سيحون
وجيحون^(٣) أنهم بعد فتح باب

(١) ابن أبي الفضايل : النهج السديد، ص ٣٨٩-٣٩٠؛ السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٧٨؛ ابن الفرات : ج ٨، ص ١٣٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٩، ورقة ١٠١-١٠١ب.

(٣) أطلق المسلمون على نهرى سارس SAROS وبرامس PYRAMUS اسم سيحون وجيمون. وكانا في صدر الإسلام حدا مائيا بين الخلافة الإسلامية والدولة البيزنطية. للتفاصيل أنظر: البغدادى ج ٣، ص ١٢٢٣؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٧٦-١٧٧؛ ابن رسته: الأعلاقي النفسية، المجلد السابع، ص ٩١، " فنهر جيحون" يمر ببلاد الأرمن حتى يتجاوز الدروب، ثم يمر بطرطوس فالمصيبة، ثم ينعطف هابطا إلى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر المتوسط جنوب سلوقية. (أنظر: ابن خلدون : المقدمة، ص ٦٣؛ القلقشندي، ج ٤، ص ٨٢؛ أبو الفداء: ص ٥٠؛ المعبر في أنباء من غير، حاشية رقم ٦٦؛ سهراب: كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة، ص

الفرات بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون انهم ينجون، وما يكون
بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق
والروم والعراق^(١) وملك البلاد من
مغرب الشمس الى مطلع الإشراف...^(٢)

يتضح لنا من الخطاب السابق الذي أرسله السلطان الشرف خليل الى قاضي
قضاة دمشق بعد سقوط سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـ، وبعد استيلائه على قلعة الروم^(٣) في
السنة التالية والذي يشره فيه بالنصر، أن سلطنة المماليك-وقد خلالها الجو بعد الهزائم
المتلاحقة التي أنزلتها بالتتار وبعد تخلصها من الصليبيين-بدأت في التوسع شرقا على
الحساب ايلخانات فارس. وهي لم تنس بعد مواقفهم السابقة ضدها، وتعاونهم الواضح
مع مملكة أرمينية الصغرى في سبيل أضعاف شوكتهم. ويؤيد هذا القول أن
"كيخاتو"^(٤) (١٢٩١-١٢٩٤م/٦٩٠-٦٩٣هـ).

١٤٣-١٤٤). وهو نمر بيراس القلم. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروضى الزاهر، ص ١٥٠). وقد أطلق الأرمن
عليه نمر الفرات، لأنه نمر كبير. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروضى الزاهر، ص ٢٧٠) ونمر "سيحون" دون "نمر
جيحون" في الكير، وعليه قطرة حجارة عجيبة البناء طويلة جدا. أنظر: الاصطخري: المسالك والممالك،
ص ١٤٧، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٨٣.

(١) أوضح مؤلف مجهول في مخطوطة أطماع السلطان الأشرف خليل في التوسع على حساب تار فارس إذ يقول:
"... ولو طالت أيامة لا فتح غالب بلاد العراق". أنظر: كتاب الجواهر الثمين في اخبار الخلفاء والسلاطين،
ورقة ١٧٢. كذلك لم يخف الكتي الاتجاه التوسعي للأشرف خليل وذلك عند ترجمته له إذ يقول: "... ولو
طالت مدته ملك العراق وغيرها" أنظر: الكتي: قوات الوفيات تحقيق إحسان عباس، ج ١، ص ٤٠٦.
(٢) زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١١-١٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ورقة ١٠٠ ب-١٠١ أ؛
ابن الفرات: ج ٨، ص ١٣٨.

(٣) امتدح الشهاب محمود السلطان الشرف خليل على فتحة قلعة الروم بقصيدة طويلة أرودها البرزلى في تاريخه.
أنظر المقفى لتاريخ أبي شامة، ورقة ٤٥٨-٤٥٩ أ. أنظر أيضا: ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٧٤-
١٧٥ ب؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٧-٢٠.

(٤) لم تكن حالة دولة تار فارس في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجري تسمح لها بمتابعة
سياسة الغزو والإغارة على بلاد الإسلام، ذلك لأسباب منها الصراع الداخلي بين ملوك فارس حول الاستيلاء على
العرش. وكان "كيخاتو" خان التار الذي خلف أخاه "أرغون" سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـ، وقد أنفق الأموال الكثيرة على
ملذاته، مما أدى الى ضعف دولته. فخرج عليه "بيدو" والتقى معه في قتال شديد انتهى بمقتل "كيخاتو" سنة
١٢٩٤م/٦٩٣هـ واستقل "بيدو" بالملك، فخرج عليه نائب خراسان المسمى "غازان بن أرغون" وجمع
الجيوش وقاتل "بيدو" حتى أخذ الملك منه. وقتل "بيدو" سنة ١٢٩٥م/٦٩٤هـ بعد معركة حامية قرب همدان للتفاصيل
أنظر: ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٢٢-١٢٤؛ المقرئ: الملوك، ج ١، ق ٣، ص ١٨١٠ ابن الوردي: تمة

خان^(١) التار بعث برسول الى السلطان الأشرف خليل يحمل
كبا يتضمن المطالبة بحلب لأن أباه هولاكو كان قد قام
بغزوها من قبل ، ويهدد- إن لم يسمح له بذلك- بغزو بلاد الشام.
فأجابه السلطان الأشرف بأنه قد

"وافق ألقان ما كان في
نفسى ، فأنى كنت على عزم من اخذ
بغداد وقتل رجاله، فإنى أرجو أن اردها
الى "دار الإسلام" كما كانت وسينظر
اينا يسبق الى بلاد صاحبه"^٢

وواضح من هذه الرسالة عزم الأشرف خليل على التوسع
شرقا على حساب التار، ومدى القوة التى كان يشعر بها تجاه
خصمه، حيث يظهر فيها روح التحدي والمبادرة نتيجة
لانتصارات الباهرة التى أحرزها حتى أنه - كما يتضح من ردة
السابق- طالب التار بتسليم بغداد للإقامة بها ونقل الخلافة
العباسية إليها .

ولقد أدرك الملك الأرمني هيثوم الثانى جسامته الخطر
الذى يحيق ببلاده من قبل المماليك عندما بسقوط قلعة الروم
فى قبضة السلطان الأشرف خليل. ولا شك أن الضربات
الناجحة التى وجهها المماليك الى بقايا المستعمرات الصليبية
فى بلاد الشام وحلفائهم التقليديين قد هزته هزا عنيفا؛ وزاد الطين بلة أن أمر

المختصر فى أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٩-٢٤٠. أنظر أيضا D 'OHSON, HISTOIRE DES
MONGOLS, AMSTERDAM , 1852, T.IV, PP. 101-106, 132, 141; CHABOT
RELATION DU ROI AGROUN AVEC L'OCCIDENT, DANS R.O.L., 1894, PP.
127-128; BARTHOLD, GAIKHATU, DANS ENC.ISL., T. II, P. 135; HOWORTH,
T. III, PP. 387-388.

(١) "خاقان" لقب أطلقه التار على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان العظيم" و "خاقان" يختلف عن "خان"
الذى أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التار. وقد استعمل التار لقب "خان" أيضا بمعنى
"خاقان" وربما كان ذلك من باب الرغبة فى الاختصار . انظر ابن ابى الفضائل : النهج السديد ، ص ٧٣، حاشية
رقم ١١؛ المقرئى: السلوك ، جـ ١، ص ٣٠٧، حاشية رقم ٤. أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامى

فى مواجهة تحالف المغول والأرمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩/سبتمبر-ص ١٠٧، حاشية رقم ١٢. وكذلك
GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.C., DOC. ARM, T. II, P. 841, N.D.

(٢) المقرئى: السلوك، جـ ١، ق ٣، ص ٨٧٦. أنظر أيضا :
D'OHSON, T. IV, PP. 88-90

السلطان المملوكي سنة ١٢٩٣م/٦٩٢هـ - بأنقاذ حملة لاستعادة بهسنا^(١) من الأرمن^(٢). فلما وصلت الى "سيس"^(٣)، بعث الملك الأرمني برسله الى السلطان - وللمرة الثانية - طالبا العفو والأمان. فاستشار السلطان المملوكي الأمراء في ذلك، فشفعوا في صاحب سيس، فاشترط الأشرف: "إن كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع - وهي قلعة البهسنا وقلعة مرعش^(٤) وتل

(١) "قلعة بهسنا" تقع شمالي حلب، على نحو أربع مراحل منها، وهي حصينة مرتفعة، لها بساتين ونهر صغير وأسواق وورستان متسع، وبها مسجد جامع. وهي بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب، وهي في الغرب والشمال الغرب من عيتاب، وبينهما نحو مسيرة يومين، وبينها وبين سيس نحو ستة أيام. وكان لثابتها مكانة جليلة. (أنظر: القلقشندي: جـ ٤، ص ١٢٠-١٢١ ياقوت: جـ ١، ص ٧٧٠؛ البغدادى، جـ ١، ص ٢٣٤). وقلعة "بهسنا" من اعظم قلاع "سيس"، وهي في فم الدربينات وباب حلب. وكانت في زمن الناصر صاحب حلب في ديوانه. فلما ملك هولاكو حلب، كان في بهسنا نائب يقال له "سيف الدين العقرب" فأباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم، فأعطاه ستين ألف درهم وتسلم القلعة منه ومنعه الباقي. واستمرت في أيدي الأرمن الى هذا التاريخ، وكان على المسلمين منها ضرر عظيم". أنظر: كتر الدرر، جـ ٨، ورقة ٢٩٨؛ النهج السديد، ص ٣٩٣؛ زرتستين: تاريخ سلاطين المماليك، المقدمة الألمانية، ص ٤٤٥؛ الجعفرى: التزهة السنية، ورقة ١٩٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ورقة ٨٨؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ ٣، ص ١٠٤، حاشية رقم ٣.

(٢) المقرئى: جـ ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٣٣٢؛ ابن أبي الفضايل: ص ٣٩٣؛ ابن عبد الظاهر: تشرىف الأيام والعصور؛ زرتستين: ص ٢٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ١، ص ١٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ١٤. وقد أخطأ "أبو المحاسن بن تغرى بردى" وصنفها تحت أحداث سنة ٦٩٠ هـ بدلا من سنة ٦٩٢ هـ. أنظر أيضا: LE ROI HETHOUM II, P. 543; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489. CF. KURKJIAN, A HISTORY OF ARMENIA, NEW YORK, 1958, PP. 250-251.

(٣) الكنى: جـ ١، ق ١٢؛ ورقة ٨٢؛ اليونينى: جـ ٣، ورقة ٢٧؛ أبو المحاسن، جـ ٨، ص ١٤؛ ابن إياس: جـ ١، ص ١٠٥؛ ابن الخوزى: جواهر السلوك، ورقة ١٦٩؛ النويرى: جـ ٢٩، ورقة ١١٢ ب.

(٤) تقع "مرعش" شمال بلاد الشام، على أطراف آسيا الصغرى. يحدها غربا جبل اللكام، وتطل المدينة على الطريق المؤدى الى مدينة حلب، والثاني المتجه ناحية الجنوب الشرقي الى مدينة الرها، والآخر المتجه شمالا الى الحدث. مما تقدم، يتضح أن مرعش تقع في المنطقة التي تفصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة؛ وبين بلاد الشام وقيليقية من جهة أخرى. (للتفاصيل أنظر: القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول-بيروت ١٩١٩-ص ٤٨٨؛ البلاغرى: فتوح البلدان: ص ٢٢٤-٢٢٥؛ ابن الشحنة: الدر المتعب في تاريخ مملكة حلب-بيروت ١٩٠٩-ص ١٩١؛ الحمورى: الروض المعطار في خبر الأقطار-تحقيق إحسان عيسى-بيروت ١٩٧٥-ص ٥١٠؛ البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع-تحقيق مصطفى السقا-بيروت ب.د. - جـ ٢، ص ١٢١٥؛ البغدادى: جـ ٣، ص ١٢٥٩؛ ياقوت: جـ ٥، ص ١٠٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة - بغداد ١٩٨١-ص ١٣٩. أنظر أيضا: عبد الرحمن محمد عبد الغنى: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية - الكويت ١٩٩٠-ص ٣٧ وحاشية رقم ٦٣). ويذكر العيني أن املك الأرمني هيثوم الثاني طلب من السلطان الأشرف خليل أن يكون نائبا عنه في بهسنا، فلم يلق هذا الطلب قبولا. أنظر: عقد الجمان، جـ ٢١، ق، ورقة ٥٦.

حمدون^(١) - فأعطوه الأمان، وأن لم يسلم فحاصروه^(٢)."

فتم الاتفاق على أن يتزل الأرمن للمماليك عن بهسنا ومرعش وتل حمدون. ورجع العسكر المملوكي من سيس؛ فضلا من ملك مملكة أرمينية الصغرى أعلن ولاءه للسلطان، ليضع حدا لهجمات الجيوش المملوكية، وليحمي بلاده من الدمار والخراب. لذلك "ضاعف الحمل والجزية"؛ ففرح الناس بتسلم خاصة "لأنه كان على المسلمين من بهسنا أدى عظيم^(٣)" وقد سلط "اليوناني" الأضواء على الأهمية الاستراتيجية البالغة للقلاع الثلاث وثرواتها الزراعية حين قال

"... وهذا مرعش وباهسنا {هكذا في
الصل، وصحتها: بهسنا} من أحصن
قلاعهم وأعظمها، لاسيما باهسنا
{صحتها: بهسنا} فإنها حصينة وبها
ضياح كثيرة تزرع، وهو فم الدرب
وباب حلب...^(٤)"

عقب ذلك الاتفاق، سير الشرف خليل المير "سيف الدين طوغان" ورلى دمشق مع رسل صاحب سيس حتى يسلم الملك الأرمني القلاع

(١) "تل حمدون" قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حصة البناء، وهي على تل عال ولها ربض وبين وبتين ونهر يجرى عليها، وهي على القرب من جيحان على بعد مرحلة من جهة الجنوب عنه، تل حمدون وبين سيس نحو مرحلتين، وبينها وبين آياس نحو مرحلة. أنظر أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٥٠؛ القلقشندي: ج ٤، ص ١٣٦. انظر أيضا: SMBAT, P. 58 M. 48 CF, CA- HEN, LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CROISADES, P. 147.

(٢) الكتي: ج ١، ق ١٢، ورقة ١٢، ٨٢؛ ابن أبي الفضائل: ص ٣٩؛ زترستين: ص ٢٢؛ السلوك ج ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ ابن إياس: ج ١، ص ١٠٥؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٦؛ التويري: ج ٢٩، ورقة ١١٢ ب؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٧٠.

(٣) ابن كثير: ج ١٣، ص ٣٣٢؛ النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٤-١٥؛ الكتي: ج ١، ق ١٢، ورقة ٨٢-٨٣؛ البرزلي: المقفى، ورقة ٤٥٨؛ اليوناني: ج ٣، ورقة ٢٧ ب؛ ابن إياس: ج ١، ص ١٠٥؛ تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، ج ١، ص ١٦٠. ولقد أوضح المؤلف المجهول صاحب كتاب "تاريخ سلاطين المماليك" أسباب خضوع الملك الأرمني لمطالب المماليك بقوله "... أنظر: زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ٢٢.

(٤) ذيل مرآة الزمان، ج ٨، ص ١٥٦؛ ابن أيك: كثر الدرر، ج ٢٨، ورقة ٢٩٨؛ المقرئ: ج ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ٢٢؛ الكتي: ج ١، ق ١٢، ورقة ٨٣.

المذكور . وفي ٢٦ مايو سنة ١٢٩٣م/أول رجب سنة ٦٩٢هـ^(١)، قدم السيد
الى دمشق بتسلم بمسنا مع القلاع المتقدم ذكرها^(٢)، وأن نواب السلطان قد تسلموها
وحكموا فيها. فدقت البشائر بذلك "وكان فتح عظيم للمسلمين"^(٣). واستقر "بدر
الدين بكتاش الزردكاش المنصوري" في نيابة بمسنا، وعين لها قاضيا وخطيبا، واستخدم
لها رجالا وحفظة كما جرت عادة القلاع^(٤).

وفي يوم الاثنين ١٢ يونيو ١٢٩٣م/١٨ رجب ٦٩٢هـ، وصل دمشق الأمير
" سيف الدين طوغان" وصحبته رسل صاحب سيس^(٥)
:"... وكان من جملة القطيعة مائة ألف
درهم جدداء، ومن الخيل والبغال ثمانية
وخمسون رأسا بما في ذلك من التقدمة
وهو عشرة رؤوس..."^(٦).

هكذا كان سقوط قلعة الروم بمثابة زلزال هز كبار مملكة أرمينية الصغرى.
وقد احسن الأشرف خليل استغلال هذا الانتصار العظيم خير استغلال حين أكره
هثوم الثاني على التنازل عن ثلاث قلاع بالغة الأهمية ألا وهي بمسنا ومرعش وتل
حمدون. وبذلك تقلصت حدود تلك المملكة، فكان فتح المسلمين
لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية
النهاية لتلك المملكة التي تمخضت عنها الحروب الصليبية.

(١) المقرئى: السلوك جـ ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ تاريخ ابن الفرات، جـ ٨، ص ١٥٦. انظر أيضا:

LE ROI HETHOUM II, 54.

(٢) ابن أبي الفضائل : ٣٩٦؛ المقرئى : جـ ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ الكنى : جـ ١، ق ١٢، ورقة ٨٣؛ زترستين: ص ٢٢٣

ابن ايلس: جـ ١، ص ١٠٥؛ النويرى: جـ ٢٩، ورقة ١١٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٨٠ ب.

(٣) زترستين : تاريخ ملاطين الماليك، ص ٢٣؛ الكنى: جـ ١، ق ١٢، ورقة ٨٣.

(٤) زترستين : ص ٢٣؛ الكنى : جـ ١، ق ١٢، ورقة ٨٣؛ المقرئى : جـ ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ ابن أبي الفضائل: ص ٣٩٦. الفضائل:

(٥) زترستين : ص ٢٣؛ الكنى : جـ ١، ق ١٢، ورقة ٨٣؛ المقرئى: جـ ١، ق ٣، ص ٧٨٤؛ النويرى: جـ ٢٩، ورقة

LE ROI HETHOUM II, P. 543

١١٢ب-١١٣أ. انظر أيضا :

(٦) ابن عبد الظاهر: الأقطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية-تحقيق أكمل مويرج-ليدن ١٩٠٢-جـ ٣،

ص ٤٨؛ المعنى: جـ ٢١، ورقة ٥٦. وجددير بالذكر ان المصادر الأرمينية جنحت إلى الاختصار الشديد عند

ذكرها أحداث سقوط قلعة الروم في قبضة الماليك، والعلاقات العدائية

لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية النهاية لتلك المملكة التي تمخضت عنها الحروب الصليبية.

وينبغي علينا قبل طي صفحات هذا البحث تقصى أسباب تلك الانتصارات التي حققتها سلطنة المماليك، وأسباب ما لحق الأرمن من هزائم متلاحقة. فحقيقة الأمر، كان ميزان القوى يميل بشدة لصالح المماليك خاصة بعد تمكنهم من كبح جماح التتار في معركة عين جالوت، وما أحرزه بيبرس من انتصارات على الأعداء عامة من تتار وأرمن وصليبيين واستعادته إمارة إنطاكية الصليبية؛ ثم مواصلة قلاوون الألفي انتصاراته على العداء الثلاثة، وتمكنه من استعادة طرابلس من الصليبيين، وأعداده العدة لفتح عكا. وأعقب ذلك سير الأشرف خليل على درب والده ونجاحه في فتح عكا واستغلاله حماس المماليك المتدفق نتيجة ارتفاع روحهم المعنوية لفتح قلعة الروم التي أسماها "قلعة المسلمين" وتنازل هيثوم الثاني عن الثلاث قلاع السالفة الذكر مقابل سحب الجيش المملوكي. فكان الأشرف خليل يتعامل مع الأرمن بمنطق القوى الذي يملئ شروطه على الضعيف .

وإذا انتقلنا إلى مملكة أرمينية الصغرى، فقد كانت تمر بمرحلة ضعف واضطراب منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجري. علما بأن علاقة ملوك الأرمن مع المماليك لم تكن على ما يرام، فالأرمن "... اخبث عدو للإسلام" على حد قول العمرى^(١)؛ إضافة إلى تعلق ملوكهم بأهداب التحالف مع التتار ألد أعداء المماليك. وقد عبر كل من العمرى والقلقشندي عن ذلك بقولهما "والمملوك البيت الهولاكوهي عليهم حكم قاهر، وفيهم أمر نافذ"^(٢). ولم ينس المماليك أن هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م) HETHOUMI لعب دورا رئيسيا في إقناع خان التتار بإرسال الحملة التي قضت على الخلافة العباسية في بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م، فسطر الأرمن بذلك صفحة داكنة السواد في علاقتهم مع

- وبين السلطان المملوكي الأشرف خليل والملك الأرمني هيثوم الثاني، وذلك عكس المصادر الإسلامية التي أفردت لهذا الانتصار الصفحات العديدة المتعددة والتي تظهر جليا في ثنايا هذا البحث . ولعله قد ساء الأرمن أن يسجلوا تلك الهزائم التي لحقت بهم، بينما هلت المصادر الإسلامية بأخبار النصر. وكان هذا أمرا طبيعيا. عن المصادر الأرمينية أنظر :

SAMUEL D ANI, P.463; LE ROI HETHOUM II, P. 542-543 ; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489; SEMPAD, PP. 653-65 .

(١) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٥٦.

(٢) العمرى: ص ٥٦؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٨، ص ٣٠.

المسلمين عامة. وكان الهم الأوحـد للأرمن التحالف مع التتار ضد المماليك في كافة المعارك الدائرة بين الطرفين؛ في حين كان التتار يمرون آنذاك بمرحلة ضعف وانحلال وانقسام، فانعكس ذلك بالتالي على مملكة أرمينية الصغرى .

أما الغرب الأوروبي الذي كان من المفروض أن يناصر الأرمن في حربهم ضد المماليك، فقد كان آنذاك في فترة تغير وانتقال وكان يعاني من الضعف والتدهور، وأخذ ينصرف تدريجياً عن فكرة الحروب الصليبية. وبدأ الفرد الأوروبي يتجه إلى مصالحه الخاصة، والدول إلى مشاكلها الداخلية.

ولقد حرصت البابوية على إصدار النداء تلو النداء طالبة مساعدة مملكة أرمينية الصغرى. إلا أن مساعيها انتهت بالفشل في تعبئة الغرب ضد سلطنة المماليك. أما الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت المنازعات المذهبية الضارية مع الأرمن عائقاً حال دون تقلص المساعدة لهم.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أحوال أرمينية الداخلية السيئة ومن أهمها: القراع الديني بين الأرمن أنفسهم عقب محاولة بعض ملوكهم الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية وما نتج عنه من انقسام الأرمن إلى حريين متقاتلين. إضافة إلى إفلاس الخزانة العامة بسبب الأموال السنوية الطائلة المحمولة من قيليقيا إلى سلطنة المماليك في مصر. علماً بأن تلك الأموال كانت تشكل مورداً هاماً لخزانة الأرمن، الأمر الذي عبر عنه محمى الدين بن عبد الظاهر بقوله "... وانتعشت خزانة الأموال بهذه الحملة العظيمة التي تحمل كل سنة (من مملكة أرمينية الصغرى)"^(١). كذلك كان من نتيجة اضمحلال نشاط مملكة أرمينية الصغرى التجاري سوء أحوالها الاقتصادية بعد انصراف التجار عن مينائها إياس^(٢).

هكذا كان من الاستحالة على ملوك الأرمن الصمود طويلاً في مواجهة التيارات المتلاطمة التي أحاطت بملكهم. وقد أدرك ذلك يعينه الثاقبة الرحالة البندقي ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م/٦٥٢-٧٢٤هـ) MARCO POLO فتنبأ لها قبل نصف قرن من الزمان بالسقوط إذ ذكر أنها "كانت فريسة سهلة بين أسد التتار، ونمر المماليك، وذنب الأتراك، وثعبان قراصنة البحر"^(٣).

(١) ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ٩٣.

(٢) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى ، ص ٢١٤-٢٥٠.

(٣) MARCO POLO. THE VELs OF MARCO POLO THE VENITIAN. TR. BY WILLIAM MARSDON. LONDON, 1903, T.II. P. 42

الأمير فخر الدين بن الشيخ في محكمة التاريخ

د. / رأفت عبد الحميد

كلية الآداب - جامعة عين شمس

في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، أقام المؤرخ جمال الدين بن واصل دعوى في محكمة التاريخ ، يتهم فيها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد الجيش المصري ، أتاك أو مقدم العسكر ، بتعبير ذلك الزمان ، بالانسحاب مع قواته العسكرية ، أو الفرار بهذه القوات من ميدان المعركة وعدم التصدي للجيش الصليبي الذي يقوده القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، مما أدى إلى استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط دون عناء ، وامتلاكهم لها "صفواً عفواً" ، وما تبع ذلك من النكبات التي حلت بمصر قبل أن ينتهي الحال بالحملة وقائدها إلى الفشل والإذلال ، واتسعت قائمة الاتهام لتشمل التصريح بـ "همة الأمير التي ترقى إلى الملك" ، والتلميح بذلك إلى الرغبة الكامنة لديه في القفز على عرش السلطنة الأيوبية والملك الصالح نجم الدين أيوب يللم ليالي العمر المعدودة الباقية له ليرحل عن دنيا الناس" والسعي إلى تحقيق هذا الطموح قبل أن يصل الوريث الشرعي ، المعظم تورانشاه ، إلى مصر ليتسلم مقاليد الأمور ويتصدر دست السلطنة .

وعلى درب ابن واصل سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون ، وجلهم ينقل عن سلفهم هذا ، ويكاد بعضهم يردد عبارات ابن واصل ينصها ، من هؤلاء المؤرخين القدامى "ابن أيك الدواداري ، وأبو المحاسن بن تغري بردي ، والمقریزی الذي كان أشد هؤلاء جميعاً قسوة على ابن الشيخ إلى درجة تعيد إلى الأذهان صحيفة اتهامات ابن واصل ، كما لو أن المقریزی كان يقرأ منها ويخط يمينه ! ولم يسلم الأمير فخر الدين كذلك من ملاحقة المؤرخين المحدثين له بهذه الاتهامات خلال تناولهم لأحداث الحملة الصليبية السابعة ، جرياً على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة ، دون التوقف طويلاً أو حتى قليلاً عند هذه الأقوال ومناقشتها وإخضاعها لأصول النقد التاريخي ومنهج البحث العلمي ، حتى تتضح الحقائق ، أو على الأقل يتبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر ، أو بتعبير أدق ، ما أذاعه ابن واصل وتابعه فيه دون مناقشة من جاعوا بعده ، خاصة وأن هذه الاتهامات

تندرج كلها تحت "الخيانة العظمى" والإخلال بواجبات "الشرف العسكري" ، وهو ما يستوجب في أى ناحية من نواحيه عقوبة الإعدام .

ومع الإقرار الكامل والاعتراف بالأهمية الكبيرة للكتاب جليل القدر عظيم النفع الذى خلفه لنا المؤرخ ابن واصل تحت عنوان "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لما احتواه من مادة علمية ضافية وتفصيل دقيقة وآراء سديدة فى كثير من الأحيان ، ساعده فى الوصول إليها قربه من الأحداث ووقوفه على مجريات الأمور ومعاشته إياها ، إلا أن حديثه عن الأمير فخر الدين وعلاقته بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشاه ، استوقفنى أمامه عدد سنين أحاوره على أجد بين ثنايا أقواله شيئا يمحيط اللثام عن حقيقة القضية ، خاصة وأن ابن واصل كان لصيقا ببعض صناع القرار فى هذه الأحداث بللذات ، مشاركاً لهم حتى فى خواطيرهم ، مشيراً عليهم بما يفعلون أحياناً ، كما يخبرنا بنفسه عن ذلك فى هذا الكتاب .

والبحث فى مثل هذه القضايا يعد أمراً شائكاً تعتوره الصعاب من كل ناحية ، فى ضوء تطابق المصادر التاريخية فى رواياتها ، ونقلها عن بعضها البعض ، مع الإشارة إلى ذلك حيناً ، والسكوت عن ذلك أيضاً أحياناً كثيرة ، وتلك مشكلة قائمة تواجه الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى أو العالم البيزنطى على السواء . ومع إدراكى الكامل لمثل هذه الصعوبة منذ البداية ، إلا أننى آثرت تحريك الدعوى فى هذه القضية من جديد أمام محكمة التاريخ ، معتمداً فى ذلك على نفس صحيفة الاتهام الأساسية التى قدمها ابن واصل ، وأقوال الشهود من التابعين وتابعيهم ، مناقشاً لما جاء فى تلك الدعوى وهذه الأقوال ، محللاً وناقداً ، مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها ، وطبائع الأشخاص المشاركين فيها ، وسيرهم الذاتية ، ثم قدمت فى النهاية لمحكمة التاريخ وثيقة الشاهد العدل الرئيسى فى هذه القضية كما خطها هو نفسه بقلمه !

ومن الجدير بالذكر أن عائلة شيخ الشيوخ قد عملت كلها فى خدمة سلاطين الدولة الأيوبية منذ عهد الناصر صلاح الدين الذى عهد إلى صدر الدين محمد بتولى مشيخة الصوفية فى مصر ، بعد توليه إياها بدمشق فترة من الزمن خلفاً لأبيه عماد الدين عمر بن حمويه^١ ، وكلفه أيضاً بالإشراف على المدرسة الصلاحية لما لمسه فيه من سعة العلم وعمق

^١ - بعد عماد الدين عمر بن حمويه المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، وكان نور الدين محمود قد ولاه مشيخة "خاتقاه" دمشق ، فاكسب بذلك لقب "شيخ الشيوخ" ، وهو اللقب الذى دأبت به شهرة هذه الأسرة حيث تولى أفرادها جميعاً هذه الوظيفة باستثناء فخر

المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهذه أمور اجتمعت كلها في أسرة "الشيخ" دون استثناء ، وهذا هو الأمر الذى حدا بالأيوبيين إلى تقريهم إليهم والاعتماد عليهم في معظم شئون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بني أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون أيضا بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء ، ولم تحل الجهود الضخمة التى بذلوها للتصدي للصليبيين دون الاهتمام الكبير أيضا بالنواحي العلمية ، بل كان من بين هؤلاء الملوك من تعمق في الأمور الفقهية والمسائل الكلامية وقرض الشعر والتأريخ .

وقد ترك صدر الدين محمد عند وفاته أربعة أبناء هم عماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن ، وفخر الدين يوسف ، وقد ذاع صيتهم جميعا أيام الملك الكامل وابنه الصالح^١، ويقول ابن واصل إن هؤلاء الأربعة كانوا أنخص الناس بخدمة الكامل ، ونالوا في زمانه مكانة مرموقة حيث كان يعد أخواهم من الرضاة عن طريق أمهم ابنة القاضي شهاب الدين ابن أبي عصرون^٢ .

ولما كان الملك الكامل "فاضلا عالما شهما مهيباً عاقلاً محباً للعلماء ، وللحديث وأهله ، حريصاً على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف^٣ فقد اصطفى لنفسه عماد الدين عمر بن صدر الدين لسعة علمه وتنوع ثقافته حتى جمع له ، على حد قول المقرئ^٤ بين رئاسة العلم والقلم سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م ولم يجتمع ذلك لأحد في زمانه . لقد كان الرجل ، كما يحدث عنه ابن واصل^٥ تام العقل والكرم والبأس والرئاسة ، مقصداً لمن إليه ... وكان معدم المثل في وقته ، وإلى جانب هذا كله كان فارساً ماهراً ، فحاز بذلك "فضيلتى السيف والقلم"^٦ . وقد أهله مواهبه هذه للمشاركة بفعالية في ترتيب أوراق البيت الأيوبي بعد وفاة الملك الكامل ، فسعى جاهداً للحفاظ على أن تظل مصر من نصيب ولده العادل الثانى ، وتصدى بكل القوة لأطماع الناصر داود فى مصر ، وحاول من بعد الحد من نفوذ الجواد

الدين يوسف . أنظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين، ص ١٢٥ ؛ المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٣٣ - ٣٤ ، راجع حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبي ، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٨ .

^١ - أبو شامة ، الذيل ص ١٢٥ .

^٢ - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب ج٥ ص ١٧٠ ؛ المقرئ الخطط ج٢ ص ٣٤ .

^٣ - أبو المحاسن الجوزى الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص ٢٢٨ - ٢٣٦ .

^٤ - الخطط ج٢ ص ٣٤ .

^٥ - مفرج الكروب ج٥ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

^٦ - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار الشر ج٣ ص ١٦١ .

مظفر الدين يونس حفيد العادل الكبير أبي بكر في دمشق ، مما دفع هذا الجواد إلى كراهيته حتى شاع أنه استأجر جماعة من الباطنية فقتلوه^٨ .

وتولى كمال الدين أحمد شأن أبيه صدر الدين وأخيه عماد الدين مشيخة الصوفية لعلمه وصلاحه وتقواه ، وعهد إليه بنيابة حران والجزيرة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بعد أن أخذها الملك الكامل من أخيه الأشرف موسى بمقتضى اتفاقية "تل العجول" التي تمت بينهما في العام السابق ، ولم يلبث أن جعله وزيرا في مصر في أخريات العام نفسه (٦٢٧هـ —) / (١٢٢٩م)^٩ . وازدادت مكانة كمال الدين بن شيخ الشيوخ في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، حيث ولاه قيادة القوات المصرية المتجهة لمحاربة الناصر داود عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ، وعهد إليه بقيادة الجيش المصرى المقيم بغزة بين عامى ٦٣٩ - ٦٤٠هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٢م^{١٠} .

وعلى الدرب نفسه سار الأخ الثالث معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، فتولى مشيخة الصوفية ، وإن كان قد تميز عن اخوته بفصاحة اللسان ومقدرة بلاغية ، فأوفده الملك الكامل إلى بغداد لتسلم العزاء في وفاة الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله ، والتهنئة بخلافة المستنصر بالله سنة ٦٣٢هـ / ١٢٢٦م ، فألقى خطبة رائعة بين يدي الوزير مؤيد الدين ابن محمد القمى ، أورد لنا المقرئى^{١١} جزءا منها ، وفى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م عهد إليه الكامل بتدبير أمور السلطنة وسماه نائب الوزارة ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين على مصر استوزر معين الدين ، ثم عقد له إمارة الجيش المتجه إلى دمشق لإخراج الصالح إسماعيل منها ، بعد أن استبد بالأمر هناك وعانى أهلها من عسفه وقساواته^{١٢} ، وأمر قواته من الخوارزمية أن تعمل تحت إمرته ، ورسم له أن يكون نائبه بدمشق ، وحكمه فيها ، وأقامه مقام نفسه^{١٣} . وتروى لنا المصادر^{١٤} رواية طريفة تدل على ذكاء معين الدين

^٨ - لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث كلها ودور عماد الدين عمر فيها ، راجع ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠٠ ؛ سبط بن الجورى ، مرآة الزمن في تاريخ الأعيان جـ ٨ ص ٧٢١ - ٧٢٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ ٣ ص ١٦٣ ؛ المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، الخطط جـ ٢ ص ٣٣ - ٣٤ .

^٩ - المقرئى ، السلوك جـ ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

^{١٠} - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ٥ ص ٣٠١ ؛ المقرئى ، السلوك جـ ١ ص ٣٠٩ ؛ ابن أيتك ، الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب ، وهو الجزء السابع من كتاب كثر الدرر وجامع الفرر لابن أيتك الدوادارى .

^{١١} - السلوك جـ ١ ص ٢٢١ ، وكان من بين ما جاء فيها : "ويوالى شكر الله تعالى على إمطة لى العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبغ الماء ، الذى تم نصابه ، حتى تخرج شمس الهدى شفق الاشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديتها السفلى ، وزادها شرفا في الآخر والأول" .

^{١٢} - أبو شامة ، الذيل ص ١٧٦ .

^{١٣} - ابن أيتك ، الدرر المطلوب ص ٣٥٤ .

بن شيخ الشيوخ وفراسته وسرعة بديهته ، فتخبرنا أنه لما اشتد الحصار على دمشق ، وضيق معين الدين بقواته على الصالح إسماعيل ، أرسل هذا إلى معين الدين سجادة وعكازا وإبريقا ، وهى من الأدوات الخاصة بالزهد والانقطاع للعبادة ، وهذا الأمر يحمل فى ذاته سخرية من معين الدين وإشارة إلى أنه باعتباره شيخا للصوفية فلا يصلح لقيادة الجيوش ، وتمثل ذلك فى قول الصالح إسماعيل له "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك" ! ، فلما تلقى عماد الدين هذه الأدوات والرسالة ، بعث من فوره إلى الصالح "جنكا" وزمرا وهما من أدوات الغناء والرقص ، كما بعث له "غلالة" حرير أحمر وأصفر ، وهى قميص يرتديه النساء ، وقال له : "السجادة وما معها تصلح لى ، وأنت أولى بهذا من الملك" ! وكانت هذه سخرية لاذعة تشير إلى أن الصالح إسماعيل لا يصلح للسياسة والملك بقدر ما يصلح للهو والطرب . وقد شدد معين الدين بن شيخ الشيوخ الحصار على دمشق حتى اضطر الصالح إسماعيل إلى الهروب منها ، لتصبح بذلك خاضعة لسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

وإذا كان الاخوة الثلاثة هؤلاء من أبناء شيخ الشيوخ قد تولوا مشيخة الصوفية ورثة لأبيهم صدر الدين ، ولما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه فى الدين والعلم بالأصول ، إلى جانب الاشتغال بأمور السياسة والحرب للثقة المطلقة التى أولاها إياهم سلاطين بنى أيوب ، فإن الأخ الرابع فخر الدين يوسف ، رغم ما اجتمع لديه من كل ما توافر لاختوته ، إلا أن الملك الكامل رأى فيه بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة ، أو كما وصفه العماد الحنبلى^{١٥} "محتشما سيدا معظما ذا عقل ورأى ودهاء وشجاعة وكرم" ، هذا إلى أن فخر الدين يوسف كان متضلعا فى كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية ، ولم يكن ابن واصل مبالغا عندما خصه دون اخوته بقوله "كان فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن"^{١٦} ، وكان من نتيجة هذا كله أن الكامل أراد أن يفيد من ذكاء هذا الرجل ، فلم يدعه يحذو حذو اخوته وأبيه فى تولى مشيخة الصوفية ، وإنما "جعل له أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء"^{١٧} ، وأصبح من أخص ندمائه ، وهذا يدل على المكانة

^{١٥} - سبط بن الجوزى مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٢ ؛ ابن أبيك ، الدر المنطوب ص ٣٥٤ - ٣٥٥ وحاشية ١ ص ٣٥٥ .

^{١٦} - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

^{١٧} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٦٩ .

^{١٨} - المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤ . والشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة وكتاب وغيرهم . راجع المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٢٥١ ، حاشية ١ ، أما القباء فهو عبارة عن قباءين أحدهما تترى ويلبس أولا والآخر إسلامى ويلبس فوقه ، والقباء زى أرباب السيوف . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٤ ص ٣٩ - ٤٠ .

المرموقة التي احتلها الأمير فخر الدين لدى الملك الكامل ، وتمثل ذلك في الكثير من المساهمات السياسية والعسكرية والدبلوماسية التي كلفه القيام بها على امتداد عهده في السلطنة .

ففي عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م وقعت الوحشة بين الكامل وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب دمشق ، وكان ذلك بسبب رفض الناصر لتنازل لعمه عن حصن "الشوبك" الذي كان الكامل يعتبره قلعة متقدمة لمقاومة الصليبيين في الشام وحماية مصر من هجماتهم ، هذا إضافة إلى ما بلغ الكامل عن ظلم الناصر لأهالي دمشق ، وانصرافه عن الاهتمام بأمور الدولة إلى اللهو^{١٨} ، ومن ثم عزم الكامل على الخروج بنفسه لتأديب الناصر ، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده ، وأركبه بشعار السلطنة ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة^{١٩} . ولا شك أن هذا يفصح عن الثقة التي كان يضعها الكامل في فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . ولم تكـد تمضي على ذلك سنوات قلائل حتى كان فخر الدين في مكة سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م لإقرار الأمور فيها بعد وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهو ابن الملك الكامل ، وذلك في عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، واستبداد راجح بن قتادة بالأمور هناك^{٢٠} .

غير أن الدور الأساسي الذي اضطلع به الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ في عهد الملك الكامل ، يتمثل في المهمة الدبلوماسية التي قام بها مفاوضا مع الإمبراطور فردريك الثاني Fredrick II ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بعد أن أدت الظروف السياسية التي تسبب فيها المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موسى صاحب خلاط ، بطمعهما في ملك مصر ، ولجوء ملوك البيت الأيوبي في الشام إلى الاستعانة بقوى خارجية ضد بعضهم بعضا ، مثل الخوارزمية والصليبيين ، أو قوى داخلية مثل الباطنية الأشد فتكا ، ولتحقيق طموحاتهم الشخصية ، أدت إلى أن يوفد سلطان مصر الملك الكامل ، الأمير فخر الدين إلى صقلية سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ - ١٢٢٧م لمقابلة فردريك الثاني ودعوته للقدوم إلى الشرق ، ليشغل بمقدمه أخويه ويصرفهما عن أطماعهما^{٢١}

^{١٨} - ابن واصل ، معراج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ المقرئ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

^{١٩} - المقرئ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ، ابن العميد ، أبحار الأيوبيين ، نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٥ .

^{٢٠} - ابن أبيك ، الدر المجلوب ص ٣٠٦ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ المقرئ ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .

^{٢١} - ابن واصل ، معراج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٠٦ ، وقد ناقشنا هذه المسألة وما ترتب عليها تفصيلا في الفصل السابق من هذا الكتاب .

وقد جمعت بين الرجلين ، الإمبراطور والأمير ، محبتهم للمعرفة وشغفهما بمختلف العلوم ، ودارت بينهما مناقشات طويلة في كثير من المسائل العلمية بعيدا عن المفاوضات السياسية ، ولعل هذا يوضحه وصف المؤرخ ابن واصل للرجلين ، إذ يكاد يستخدم الكلمات نفسها في حديثه عن كل منهما ، فيقول عن فردريك الثاني : "وكان الإمبراطور - من بين ملوك الفرنج - فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب" ، ويقول عن الأمير : "وكان فخر الدين فاضلا متادبا يشارك في كل فن"^{٢٢} ، ولا شك أن هذه الصفات المشتركة والمتشابهة إلى حد بعيد جدا قد قربت بين الرجلين تماما ، وازدادت هذه العلاقات توطدا بعد قدوم فردريك الثاني إلى الشام في عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، وتولى الأمير فخر الدين مسألة التفاوض معه نيابة عن الملك الكامل ، حتى تم التوصل في النهاية إلى عقد صلح يافا بين الطرفين في الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ^{٢٣} .

وقد أنعم الإمبراطور على الأمير فخر الدين بمرتبة "فارس" ومنحه امتياز وضع الرنك الإمبراطوري على رايته ودرعه بعد موافقة السلطان الكامل على ذلك^{٢٤} ، واستمرت هذه العلاقات الودية والاحترام المتبادل قائما بين الإمبراطور والأمير بعد عودة فردريك الثاني إلى أوروبا، فقد كتب الأخير رسائل إلى الملك الكامل وهو بـ "حاران" سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، ومثلها إلى الأمير فخر الدين ، يطلعه فيها على الأحوال السياسية التي يمر بها ، وكذلك المؤامرات التي حاكها البابوية ضده ، والانتصارات التي تحققت له على الأسقف الروماني وأعوانه ، وهذا كله يشير إلى مدى الثقة التي يوليها فردريك الثاني لفخر الدين ، وعلو المكانة التي احتلها الأمير لدى الإمبراطور، وكذا المرتبة التي يضع فيها الإمبراطور الملك الكامل . ومن الرسالتين اللتين احتفظت لنا المصادر^{٢٥} بنصيهما ، ندرك كل هذه الأمور ، حيث يتضح من خلالهما كما لو كان الإمبراطور يخاطب شخصا معنيا بالأمور السياسية

^{٢٢} - يقول ابن واصل "وكان الإمبراطور من بين ملوك الفرنج ، فاضلا ، محبا للحكمة والمنطق والطب جـ ٤ ص ٢٣٤ ، جـ ٥ ص ١٦٩ ، وقارن Kantrowicz., Fredrick the Second, p. 185 وفي القصة الرائعة التي نسجها المؤلف الأمريكي جوزيف جاي ديس Joseph Jay Deiss تحت عنوان The Great Infidel معتبرا إياها مذكرات للإمبراطور فردريك الثاني كتبها بالعربية ، يقول الإمبراطور محدثا عن الأمير فخر الدين وكان هذا الرجل لطيفا ... على علم واسع بالفلسفة والشعر ، وعلى دراية بالأسلحة والخيال والتصقر (أى الصيد بالصقور) ، لقد كان في الواقع حير مثل المليك". راجع الترجمة العربية التي قام بها الأستاذ أحمد نجيب هاشم لهذه القصة تحت عنوان "الزنديق الأعظم" ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

^{٢٣} - راجع الفصل السابق .

^{٢٤} - جوفانيل ، القديس لويس ، ترجمة حسن حبشي ، ص ١٠٨ ؛ راجع أيضا :

Runciman, A history of the Crusades, vol. III, p. 185 .

Setton, A history of the Crusades, vol. II p. 449 .

^{٢٥} - الحموي ، التاريخ المنصوري ، تحقيق أبو العبد دودو ص ١٨٩ - ١٩٤ .

الداخلية للإمبراطورية ، أو بتعبير آخر ، واحدا من الذين يناط بهم المسئولية في تلك البلاد ، وتفصح عن ذلك - على سبيل المثال - عبارة وردت في صدر الرسالة الأولى تقول : "... وبعد ، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره حسبما شرحنا بله ... " ، هذا بالطبع بعد الديباجة التي تملئ بكل العبارات المفعمة بالمودة والصدقة ، بينما يختم الرسالة الأولى بالتأكيد على مواصلة ودوام المراسلات بينهما ، يقول : "... وبعد ، فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته " . أما الرسالة الثانية فهي تتناول في جملتها جهود الإمبراطور في التصدي لمحاولات البابوية المستمرة للنيل من الإمبراطورية . وقد فصلنا ذلك كله في الفصل السابق .

وليس هنا معنى للقول في حذقة - كما قد يذهب البعض - إلى أن الإمبراطور كان يشير من طرف خفي في رسائله إلى قوته المتزايدة وانتصاراته العديدة على البابوية ، حتى يدخل في روع المسلمين المهابة والحذر من الإقدام على نقض شروط صلح يافا ، فهذا التأويل مردود عليه بأن المسلمين لم يقدموا مطلقا على نقض عهد قطعوه على أنفسهم ، أو التكرار لصلح أو اتفاقية وقعوا عليها مع الصليبيين منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين حتى دالت دولة اللاتين بالشام ، هذا بالإضافة إلى أن فردريك منذ عودته إلى أوروبا حتى وفاته عام ١٢٥٠ م ، كان همه كله موجهها لتدعيم سلطان دولته وإقرار حقوقه الإمبراطورية في إيطاليا وصقلية ضد السياسة البابوية العدائية السافرة ضده ، والتي تحولت إلى عداا شخصي في تلك المرحلة^{٢٦} ، كما أن فردريك كان حريصا على ابقاء هذه الصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، والأمير فخر الدين ، ولذلك لم يتوان مطلقا عن إخبار سلطان مصر بأنباء الاستعدادات التي كانت تجري في أوروبا لخروج حملة صليبية جديدة هدفها مصر ، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، وهي التي عرفت بالحملة الصليبية السلبيعة

وإذا كان فخر الدين بن شيخ قد حاز ثقة الإمبراطور فردريك الثاني وإعجابه ، فإنه قد نال قبلها وأكثر منها لدى الملك الكامل الذي توسم فيه من البداية مظاهر الذكاء والفراسة وسعة الأفق، ومن ثم حرص على أن يظل قريبا منه عوناً له في تصريف أمور دولته السياسية والعسكرية على السواء ، إضافة إلى تقديره لعلمه وسعة ثقافته ، خاصة وأن الكامل كان يجلب العلماء ويترلمهم مُترلا كريما ، وقد لخص المقرئزي^{٢٧} ذلك كله في عبارة

^{٢٦} - رافت عبد الحميد ، السر البابوي بين النظرية والتطبيق (في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسط ، المجلد الثالث ص ٢١٢ - ٢١٧).

^{٢٧} - الخطط ج ٢ ص ٣٤ .

مختصرة وإن كانت في غاية البلاغة ، قال فيها : "وما زال (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) مكرما محترما حتى مات الملك الكامل" .

ويبدو أن القلاقل والاضطرابات التي حاقت بالدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكامل بسبب النزاع الذي نشب بين أفراد البيت الأيوبي ، قد شملت أيضا بتقلباتها الأمير فخر الدين ، فتقلبت به الأحوال خلال السنوات التالية مباشرة لرحيل الكامل ، فقد أقدم ابنه وخليفته في مصر ، العادل الصغير ، على سجن فخر الدين نتيجة وشايات ساقها الناصر داود صاحب الكرك وابن عم العادل، وتشير المصادر إلى أن هذه الوسوس التي همس بها الناصر في أذن العادل لم تكن قاصرة على فخر الدين فقط بل شملت أخاه عماد الدين أيضا^{٢٨} ، ولعل ذلك يعود في المقام الأول إلى ما أدركه الناصر من أن عائلة شيخ الشيوخ بأبنائها الأربعة هي التي قامت عليها دولة الكامل ، وأنهم يمثلون خاصة مستشاريه السياسيين وقواده العسكريين ، كما أنه لم يغفر لأولاد الشيخ حرمانه من دمشق التي كانت لأبيه المعظم عيسى ، واعطائها للجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الكبير ، السذي كان الكامل قد جاء به إلى مصر وتعهده بالرعاية ، وعدّ الناصر قرار العادل الثاني بالإبقاء عليه في الكرك ، وعدم تمكينه من دمشق والإنعام بها على الجواد أمرا زينه أولاد شيخ الشيوخ لسلطان مصر الجديد ، خاصة وأنهم كانوا - كما يصفهم ابن واصل^{٢٩} آنذاك، "أرباب الدولة المشار إليهم" وأنهم يمثلون "شوكة قوية" .

ولم يطل مكث العادل الصغير على عرش السلطنة ، إذ سرعان ما نحاه أخوه الصالح نجم الدين أيوب وسجنه ، وأصبحت بيده مقاليد الأمور في مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ ، وما أن تم له ذلك حتى ولى وجهه شطر أولاد الشيخ ؛ فاستوزر معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة - على حد تعبير ابن واصل^{٣٠} وحفظ لكمال الدين أحمد منزله ومكانته التي كانت له أيام الملك الكامل ، ثم لم يلبث السلطان أن أفرج عن الأمير فخر الدين وأخرجه من سجن القلعة في سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠ م .

^{٢٨} - سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابن أبيك ، الدر المطلوب ص ٣٢٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٢٣ ؛ الحبلبي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٤٧ .

^{٢٩} - ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ .

^{٣٠} - مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقد أسلفنا من قبل ما قام به أولاد الشيخ في عهد الصالح نجم الدين وما أدوه للدولة من خدمات ، وما لقيوه من تكريم أيضا وثقة من جانب السلطان ، وقد اتضح ذلك تماما مما يرويهِ المؤرخون مثلا عند خروج معين الدين حسن مقدما للعسكر المصري المتجه إلى دمشق في عام ٦٤٢هـ - / ١٢٤٤م ، فيقول المقرئى^{٣١} "وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطاني والخزائن ، وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له أن يجلس على رأس السباط ، ويركب كما هي عادة الملوك ، وأن يقف الطواشي شهاب الدين رشيد أستاذار السلطان في خدمته على السباط ، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه كعادتهم في خدمة السلطان ، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا في خدمته" . وهذه العبارات لا تحتاج إلى تعليق إلا أن نورد منها ما جاء فيها دالا غاية الدلالة وهي عبارة "وأقامه السلطان مقام نفسه" .

أما ما كان من أمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فإن السلطان سرعان ما أصدر قراراً بتحديد إقامته في بيته ، ويعلل ابن واصل ذلك بقوله إن الأمير فخر الدين بعد أن أطلق الصالح نجم الدين سراحه "ركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا إلى الناس لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ، فاستشعر منه ولم يعجبه ذلك وأمره أن يلزم بيته"^{٣٢} ، وكانت هذه المسألة من الأمور التي أودعها ابن واصل فيما بعد صحيفة اتهاماته وجعلها من بين الأسباب التي أوغرت صدر الصالح ضده وأدت إلى وقوع الوحشة بينهما ، وذلك أمر سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا عند ذهابنا إلى محكمة التاريخ في صحبة الأمير فخر الدين .

وقد امتدت مدة الإقامة الجبرية هذه التي حكم على ابن شيخ الشيوخ بقضائنها في داره إلى ما يقرب من أربع سنوات ، حتى عفا عنه السلطان في عام ٦٤٣هـ - / ١٢٤٦م ، والذي يدعو للانتباه أن فخر الدين خرج من معتقله إلى حيث المكانة التي تليق به كواحد من أبناء أسرة الشيوخ، ليس هذا فحسب بل لكفاءته وتعدد مواهبه ، وهو ما أدركه فيه الكامل وقدره ، وما تنبه إليه الصالح وأفاد منه ، فما أن أفرج عنه حتى "خلع عليه وأمره

^{٣١} - السلوك جـ ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ وقارن ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٢٤١ ؛ ابن أبيك ، الدر المطلب ، ص ٢٥٤ . والأستاذار هو أحد أرباب السيوف ويتولى الاشراف على البيوت السلطانية ، وله التصرف بتمام في احضار ما يحتاجه كل من يست السلطان من النفقات والكساوى . أما أمير جاندار فهو أيضا أحد أرباب السيوف ، ويتولى الاستعانة لدخول الأمراء لخدمة السلطان ويدخل أمامهم إلى الديوان ، وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ... وهو الذي يطوف بالزفة حول السلطان في سفره . راجع القلقشدي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٠ .

^{٣٢} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا^{٣٣}، ولم يلبث أن عهد إليه بقيادة العساكر المصرية لمواجهة الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى وطد علاقته مع الخوارزمية وسعى كلاهما لمضايقة الصالح نجم الدين، فاستولى فخر الدين على ما كان بيد الملك الناصر داود من البلاد وهى القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكرك وألقى حصاره عليها بعد أن التجأ إليها الناصر ومن معه من الخوارزمية، وكان ذلك فى عام ٦٤٤هـ — / ١٢٤٦م، فخرب ما كان حولها، وضيق على الناصر ومن معه حتى قل ما عند الناصر من المال والذخائر^{٣٤}، فلما اشتد عليه الأمر بعث إلى فخر الدين يستعطفه، فتم الاتفاق بينهما على أن يسلم الناصر كل من عنده من الخوارزمية إلى ابن الشيخ، فتسلمهم منه ورحل عنه^{٣٥}.

ولم يكد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ينجز هذه المهمة بنجاح حتى أمره السلطان الصالح بالخروج على رأس جيش كثيف للإغارة على عدد من المناطق التى يحتلها الصليبيون، فاتجه إلى عسقلان سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م وحاصرها وفتحها وهدم تحصيناتها، ثم رحل عنها إلى طبرية فأنزل بها ما حل من قبل بعسقلان^{٣٦} حتى إذا حققت هجماته أغراضها كتب إليه الصالح يأمره بالتوجه إلى دمشق بمن معه من العساكر بعد أن حملت إليه الأنباء عزم الناصر صلاح الدين صاحب حلب القفز على المدينة وضمها إلى أملاكه، فقدم ابن الشيخ إلى دمشق وبقي مقيما بها حتى قدم الصالح نجم الدين أيوب إليها فى السنة التالية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م، وأقام بها جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة^{٣٧}، وعهد فى الوقت نفسه إلى الأمير فخر الدين بالخروج على رأس جيشه إلى حمص لاستخلاصها من يد الحلبين، وقد ألقى ابن الشيخ حصاره عليها حتى إذا أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى يديه، وصل رسول الخليفة العباسى وعقد الصلح بين الطرفين، وعاد الجيش المصرى إلى دمشق فأقام بها حتى نهاية هذا العام^{٣٨}.

^{٣٣} - المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٢؛ المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٣٢٢؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين ص ٣٣ - ٣٤.

^{٣٤} - ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٦٣ - ٣٦٤؛ ابن أليك، الدر المطلب، ص ٣٥٩.

^{٣٥} - ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥.

^{٣٦} - ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٧٨؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٣٠.

^{٣٧} - ابن العميد، أخبار الأيوبيين ص ٣٦.

^{٣٨} - المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

على هذا النحو كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العساكر المصرية هو رجل المهام الصعبة وموضع ثقة السلطان الصالح ، كما كان موضع ثقة أبيه الكامل من قبل ، واستمرت هذه الثقة قائمة حيث عهد إليه بقيادة الجيش المصرى لمواجهة الحملة الصليبية السابعة التى يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، والتى ألفت مراسيها على الشواطئ المصرية عند دمياط سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م لتبدأ بذلك محنة الأمير فخر الدين التى تمثلت فى هذه الاتهامات التى عرضناها فى صدر هذا الفصل ، والتى دفعتنا - كما ذكرنا - إلى تحريك هذه الدعوى من جديد أمام محكمة التاريخ .

ولن نخوض فى التفاصيل الخاصة بالإعداد للحملة ، وما جرى فى أوروبا ، وما فعله لويس التاسع قبل مقدمه من الاستعدادات وتوفير كل الإمكانيات التى تساعد أو تحقق لحياته النجاح ، ولنعرض من خلالها ما لحق بالحملة التى سبقتها - باستثناء السادسة - من الفشل الذريع ، وهذه الأمور كلها يمكن الاطلاع عليها فى الكتب العديدة التى تناولت أحداث هذه الحملة ، ومن ثم فإننا نقول هنا مباشرة إن لويس التاسع رحل من ميناء ليماسول فى مايو ١٢٤٩م، بعد أن مكث فى قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩م) ، ليصل أمام دمياط فى المنطقة المعروفة بـ "جيزة دمياط" ، وليبدأ بذلك الخطوات نفسها التى سبقه إليها جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة^{٢٩} .

وكان الصالح نجم الدين أيوب عندما وصلته أنباء إعداد الحملة الصليبية عن طريق فردريك الثانى ، قد اعتقد أن الصليبيين ، بمنطق الإفادة من العمليات العسكرية السابقة والأخطاء التكتيكية القاتلة التى أدت إلى فشل الحملة الخامسة ، لن يسلكوا الطريق نفسه الذى سلكته تلك الحملة حتى لا يدخلوا ثانية فى شبكات مياه النيل ، تجنباً للغوص كأسلافهم فى أوحال الدلتا ، إذا ما قطع المصريون الجسور المقامة على الفروع المختلفة للنهر ، وتوقع بالخبرة العسكرية أن يذهب لويس التاسع إلى اتباع الطريق الذى جاءت منه حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ستينيات

^{٢٩} - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية - ٢ ص ١٠٥٢ - ١٠٧٥ ؛ Setton, A history of the Crusades, II pp. 487 - 521; Runciman, A history of the Crusades, III pp. 255 - 292

القرن الثاني عشر ، ولذا قام بزيارة للمنصورة وتفقد حصونها ، ثم اتجه إلى أطراف محافظة
الشرقية الحالية ليقوم منطقة عسكرية - جديدة لتقف في وجه هؤلاء القادمين عن طريق
الصحراء كما توقع ، وعرفت هذه المنطقة باسم الصالحية . وكان هذا الإجراء من جانب
الصالح دليلا على فطنة عسكرية ، وإدراك لما كان من المفروض أن تقدم عليه الحملة
الصليبية . غير أن نزول الصليبيين عند دمياط يوحى دون شك بأن تأثير التجار الإيطاليين
على لويس التاسع لم يكن أقل منه على سلفه جان دي برين .

ومع كل هذه التوقعات التي تحتمها الخبرة العسكرية ، إلا أن السلطان أخذ في الوقت
نفسه يستعد حربيا لمواجهة هذا الغزو الصليبي ، فانتقل من دمشق إلى مصر محمولا على محفة
لاشتداد المرض به ، واستقر أول الأمر في أشموم طناح التي اتخذ منها معسكرا له ومركزا
لعملياته ، وأصدر أوامره بعودة القوات المصرية التي كانت على حصار حمص إلى مصر
فوراً ، كما أنه عمل بكل ما وسعه الجهد على تحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمؤن
والذخيرة وآلات الحرب ، وليس أبلغ في التعبير عن ذلك مما ذكره السلطان نفسه عن دمياط
حيث يقول ما نصه^١ : "وأنا قويت دمياط ، وملأتها ذخائر من كل شيء ، يكفيها عشرين
سنة مع ما كان عند أهلها من الذخائر ... وقويتها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس
وراجل ، وما خلعت (هكذا) لها عدرا ، حتى بقيت وحدي في أشموم بسبب المرض" .

وفي إطار هذه الاستعدادات العسكرية ، عهد السلطان إلى جماعة من الكنانية ، وهم
الجند العرب الذين استوطنوا مصر في المنطقة بين البرلس ومياط ، واشتهروا بالشجاعة
والمثابرة في القتال، ولعبوا دورا كبيرا في الدفاع عن دمياط أثناء حصار الحملة الصليبية
الخامسة ، عهد إليهم الملك الصالح بحماية المدينة من الداخل ، فشحنت أبراج المدينة
وأسوارها بأعداد ضخمة منهم ، بينما أمر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ،
القائد العام للجيش المصري ، أن يتقدم على رأس جيشه إلى البر الغربي للنيل قبالة دمياط ،
أو المنطقة التي تعرف - كما قدمنا - بـ "جيزة دمياط" ، والتي نزلت فيها الحملة الخامسة،
والتي وردت التقارير إلى معسكر الصالح بأنها قصد الصليبيين الآن ، وأعطى الأوامر أيضا إلى
الأمير حسام الدين ابن أبي علي ، نائب السلطنة في القاهرة ؛ بأعداد قطع الأسطول المصري
وتجهيزها بالرجال والعتاد ، وإرسالها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط،
لتكون مانعا ضد أية حركة صليبية تجرى في نهر النيل^٢ .

^١ - التويزي ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٤٣ .

^٢ - زيادة ، جملة لويس التاسع ، ص ١٠٢ ؛ جويريف نسيم ، العدوان الصليبي ، ص ٨٢ - ٨٣ .

ويدو أن أخبار مرض الملك الصالح نجم الدين قد نقلت إلى الملك لويس التاسع عن طريق أعوانه من الصليبيين في الشام ، ولابد أن يكون ملك فرنسا قد استبشر خيرا بهذه الأنباء ، ولعله أراد أن يستغل هذه الفرصة فيضرب ضربته والحديدة محماة ، أى ينتهز هذه النهضة للضغط على أعصاب السلطان المريض ، الواهن القوى ، عن طريق ما نعرفه في زماننا هذا بـ "الحرب النفسية" ، مع أننا رأينا كيف أن الصالح وإن كان قد هداه للمرض فعلا كما تخبرنا المصادر المعاصرة، إلا أنه لم يكن أبدا خائرا العزيمة ، بدليل كل ما أقدم عليه من استعدادات عسكرية في الصالحية وأشوم طنّاح والمنصورة ودمياط وجيزة دميّاط على المستويين البرى والبحرى على السواء . لكن لويس أراد أن يهتبل كل سائحة لإضعاف خصمه والنيل من عزمته قبل أن تبدأ المعركة ، أو هكذا ذهب به الظنون ، ومن ثم فإنه بعث إلى سلطان مصر برسالة^{٤٢} تفيض بالتهديد والوعيد ، تقتطف منها هنا لأهميتها بعضا مما جاء فيها ، قال :

" ... (ونحن) نقتل العباد وندوس البلاد ، ونظهر الأرض من الفساد ، فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم في أسر الوبال ، فيكثر فيهم العويل ، ولا يرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجدد إلى نصرهم من سبيل ، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيح والهداية ... فلا تكون فيك فترة ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود وتقول يا ليت .. فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد" !!

والى جانب هذا التهديد الصريح والوعيد ، تضمنت الرسالة عبارات تفيض بالتبلى والتفاخر بما تم ارتكابه من الفظائع والوحشية ضد مسلمى الأندلس خلال حرب الاسترداد الدائرة هناك ، وما تعرضت له الإسكندرية من هجمات سابقة على يد الصليبيين وملكى صقلية وبيت المقدس ، إشارة إلى ما ينتظر الصالح ومصر من سوء العاقبة إذا لم يبادر السلطان بإعلان الاستسلام واعتبار نفسه نائبا عن ملك فرنسا في حكم مصر ، كما أفصحت سطور الرسالة !!

^{٤٢} - ابن أليك ، الدر المطلب ص ٣٦٦ - ٣٦٧ . وقد ناقش كل من الدكتور حسن حبشى في كتابه ، الشرق العربى بين شقى الرحى ، ص ٣٦ - ٤١ ؛ والدكتور محمد مصطفى زيادة في كتابه ، حملة لويس التاسع على مصر ص ١٠٨ ؛ والدكتور جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ ، موضوع رسالة الملك لويس التاسع ورد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عليها ، وموقف المصادر منها ، لمزيد من الدراسة راجع هذه المؤلفات .

ولم يحقق هذا الإنذار الفرنسي الآمال التي كان يعقدها عليه لويس ، بل على العكس زاد الملك الصالح عزيمة وإصرار على التصدي لهذه الغطرسة الصليبية ، فكتب إليه يقول :

" ... أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وهأنذا قد أتيتك بالخييل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ؛ فإن كنت لك فانت الساعى وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فانت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك .. وفى كتابك قددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجلك ، أو ما تعلم أننا نحن أرباب السيوف وأبطال الحتوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس ، إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا، لرأيت فرسانا أستهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذلل ، ولعضيت على يدك بسن الندم ، ولأخرت تحريك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التي بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . فإذا قرأت كتابي هذا فلتكن منه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" ، ولتكن منه على آخر سورة ص "ولتعلمن نبأه بعد حين" ، هنالك تتناول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون ، "وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" ، وإلى قول الحكماء "إن الباغى له مصرع" ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام"^{٤٣} .

وكان لابد أن تأتى رسالة الصالح أيوب على هذا النحو ردا إيجابيا على ما حوته تهديدات لويس التاسع ، مبينا أن الصليبيين هم المعتدون ، وأنهم هم الذين سعوا إلى إشعال نيران هذه الحرب ، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين ، وكان حتما مقضيا ، ولا تخلو الرسالة أيضا من نغمة التخويف بالقوة التي يتمتع بها الجيش المصرى متمثلة فى فرسانه ومشاته بأسلحتهم وصيرهم على القتال وشدة بأسهم فى الحروب .

ووسط هذه الأجواء من الحرب النفسية ، ظهرت السفن الصليبية أمام الشواطئ المصرية فى يوم الجمعة الرابع من يونية ١٢٤٩ / العشرين من صفر ٦٤٧هـ ، وتعرضت عند ظهورها لمناوشات من جانب بعض قطع البحرية المصرية التي أرسلت بغرض الاستكشاف ، وإن كان الأسطول الصليبي قد طوق ثلاثا من هذه القطع الأربع واستولى على من وما فيها . وفى اليوم التالى مباشرة ، السبت بدأت القوات الصليبية فى التزول إلى

^{٤٣} - ابن أبيك ، الدر المطلب ص ٣٦٧ - ٣٦٩ ؛ المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط ، فى المنطقة المعروفة بجيزة دمياط ، حيث كان يعسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر والقوات المربطة معه . ولم يكن نزول فرق الجيش الصليبي يسيرا ، إذ أخذت القوات المصرية فى التعامل معها فى محاولة لمنعها من الانتشار أو إقامة معسكر لها . وفقد الجيش المصرى فى هذه المعركة الأولية واحدا من أبرز قواده هو الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان من أشد المقربين إلى السلطان الصالح أيوب ، وكذلك الأمير صارم الدين أزيك الوزيرى ، واستطاع الصليبيون فى نهاية الأمر أن يكملوا عملية إنزال القوات إلى الشاطئ ، وأن ينصب الملك خيمته ، ويضرب أمراؤه خيامهم حولها .

وفجأة ودون سابق إنذار ، انتهز الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش، دخول الليل فانسحب بكل من معه من العساكر فى هدوء ودون جلبه إلى الشاطئ الشرقى للنيل عند دمياط ، حتى أن أحدا من المعسكر الصليبي لم يعرف برحيلهم إلا فى صبيحة اليوم التالى ، ولم يتوقف فخر الدين وقواته فى دمياط ، بل ولى وجهه وجيشه معه مباشرة إلى أشموم طناح حيث يعسكر السلطان . وكان لابد أن يثير هذا التصرف الفزع والهلح فى نفوس أهل دمياط وهم يرون مقدم العسكر وعسكره يخرجون بكامل قواهم وعددهم باتجاه المعسكر السلطاني ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية التى وكل إليها الدفاع عن المدينة وتحصنوا بأبراجها وأسوارها ، ما أن رأوا ذلك حتى أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، بعد أن أشعلوا النيران فى سوق المدينة ، "وخرجوا ومعهم أهل دمياط على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هارين إلى أشموم طناح" .

وسوف أترك المجال هنا للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليعلق على هذه الأحداث المتلاحقة التى لم تستغرق من الليل إلا ساعات معدودات ، وترتب عليها أمور جسام كادت تقلب كفة التوازن الدولى فى المنطقة لو تم للصليبيين تحقيق حلمهم بالسيطرة على مصر، وليس هناك أقدر على وصف ما حدث من مؤرخنا هذا ابن واصل، يقول: "... كان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب، وأقام ، لامتنت دمياط ، فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل (الحملة الصليبية الخامسة) كانت أقل ذخائر وعددا، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمئة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمئة، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالبوء والجوع ... والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها

وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العسكرة ردت إليهم ، ومنعت الفرنج عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم في غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له^{٤٤} .

ولو قارنا هنا بين ما يذكره ابن واصل عن حصانة دمياط وشجاعة من بها الكنانيسة والمصريين أهل البلد ، وما فيها من الأسلحة والعتاد ، وبين ما قاله الملك الصالح عن تحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد ، على النحو الذي أشرنا إليه من قبل ، وأضفنا إلى ذلك كله الاستعدادات العسكرية الضخمة التي قام بها السلطان ، سواء فيما يتعلق بالقوات البرية أو البحرية، لو جمعنا هذا كله لأدركنا أن الأمير فخر الدين - كما يبدو من ظاهر القول - لم يصدر أوامره بالانسحاب من جيزة دمياط والعودة إلى أشموم طناح ، عن ضعف في هذه القوات أو نقص في عتادها ، حتى أن جوائفيل ، كاتب سيرة لويس التاسع ، يقول "وصل الملك أمام دمياط، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهي كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب (هكذا) إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يعث الرهبة في نفوس سامعيها"^{٤٥} ، ومن ثم فإن هذا الانسحاب المفاجئ في جنح الليل يمثل علامة استفهام كبيرة ، خاصة وأن كل عوامل النصر على الصليبيين الآن كانت قائمة .

وتجد علامة الاستفهام هذه إجابة لها عند مصدرين معاصرين ، أحدهما المؤرخ الصليبي جوائفيل ، شاهد العيان في هذه الحملة ، والمؤرخ الإسلامي ابن واصل المعاصر لهذه الأحداث ، ونلتقط أول خيط في الإجابة من قول جوائفيل "استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه نبأ رسو المالك ، لكنهم لم يتلقوا جوابا ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه فتبادر إلى أذهابهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط"^{٤٦} ويعلل البغدادي^{٤٧} عدم رد السلطان على الرسائل إلى أنه كان واقعا تحت تأثير المخدر الذي

^{٤٤} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، نقلا عن الملحق رقم ١ في كتاب دكتور محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٥ - ٣١٤ ، وهذا الملحق يتناول أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها غائيا عن دمياط ، مقول من الجزء الذي لا يزال مخطوطا من كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ولذا فإننا سوف نشير ابتداء من الآن في الحواشي إلى ذلك بعبارة "الملحق المذكور" ونورد رقم الصفحة كما جاء ترقيمها في كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة . راجع أيضا ، البويري ، نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٣٤ .

^{٤٥} - جوائفيل ، القديس لويس ص ٩١ .

^{٤٦} - جوائفيل ، القديس لويس ص ٩٦ .

^{٤٧} - الحوادث الجامعة ص ٢٤٠ (نقلا عن محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة غير منشورة ، ص ١٢٥ .

أعطاه إياه الطبيب ليخفف عنه آلامه ، ونصح في الوقت نفسه بعدم إزعاجه . وأيا كانت الأسباب فإن الجيش المصرى المعسكر فى جيزة دمياط لم يتلق ردا على رسائله إلى الصالح أيوب . أما الخيط الثانى فنجدّه عند ابن واصل الذى يقول : "ولما عدى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقى ، رحل العسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح"^{٤٨} .

والمصدران يتفقان على أن السبب الرئيسى فى انسحاب العسكر من الضفة الغربية للنيل وتركها خالية أمام الصليبيين ، كان اشتداد العلة على السلطان وتوقع وفاته بين لحظة وأخرى ، وهو أمر يقتضى حسب مفهوم العسكر آنذاك الوجود بالقرب من موقع الأحداث للمشاركة فيها أو التحكم فى مجرياتها وتسيير دفتها بما يتفق وطبيعة الأمور ، هذا ما يوحى به حديث المصادر . ويفهم للوهلة الأولى من رواية ابن واصل أنه يلقى بالتبعية كاملة على فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حين يقول صراحة : "وكان هذا فعلا قبيحا منهم (يعنى الكنانية) ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط" ، وكان اتّهما صريحا للأمير فخر الدين بالتفريط والتهاون فى المهام الملقاة على عاتقه من الناحية العسكرية ، وإخلالا بالواجب العسكرى المنوط به باعتباره القائد العام للجيش ، بل يصل الأمر إلى حد الاتّهام بالخيانة العظمى حين ينسب إليه طمعه فى القفز على العرش ، وأنه ترك الجبهة وارتد إلى أشموم طناح لينتهز أول بارقة أمل فى موت السلطان ليحقق مأربه الذى يدفعه إليه طموحه الذى احتوت عليه نفسه منذ زمن بعيد يعود إلى بداية تملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة الديار المصرية ، على حد قول ابن واصل عنه صراحة ، "إنه كان على الهمة جدا ... وكانت همته تترقى إلى الملك ... وكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"^{٤٩} .

ولم يكن غريبا أن تحذو المصادر الأخرى حذو ابن واصل ، فهذا ابن أليك^{٥٠} يعتبر أن ما أقدم عليه الأمير فخر الدين يعد "رأيا ذميما وسوء تدبير" ، بينما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى^{٥١} "إن هذا (يعنى الانسحاب) كان من قبيح رأى فخر الدين" ، فإذا ما جئنا إلى المقرئى وجدناه شديد اللوم لفخر الدين يكاد يردد عبارات ابن واصل ويقول "فعدت هذه

^{٤٨} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٦ .

^{٤٩} - المصدر السابق ، ص ٢٨٥ - ٢٩٤ .

^{٥٠} - الدر المطلب ، ص ٣٦٩ .

^{٥١} - النجوم الزاهرة ، ح ٢ ، ص ٣٣٠ .

الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ... وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين^{٢١} وعلى نفس المنوال نهج المؤرخون المحدثون وكالوا الاتهامات للأمير فخر الدين واعتبروه مستولا عن كل ما وقع من الأحداث الجسام التي صاحبت هذه الحملة السابعة على أرض مصر منذ سقوط دمياط حتى معركة المنصورة^{٢٢} ولم يأخذ موقفا مغايرا

^{٢١} - المقرئى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

^{٢٢} - يقول أستاذنا الدكتور سعيد عاشور "وربما كان السبب في تعجل فخر الدين في الفرار ، هو اعتقاده بأن السلطان المريض -المملك الصالح أيوب - قد توفى فعلا ، في الوقت الذي كان فخر الدين ذا أطماع "ترقى إلى الملك" (وهذه عبارة ابن واصل) ، مما جعله يسرع لتحقيق أطماعه تاركاً دمياط لقمة سائغة للصليبيين" ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٦١ ، وافتتاح الحديث بكلمة "ربما" يفيد الشك أو الاحتمال والتحفظ في الوقت ذاته . يسما يعلنها الدكتور جوزيف نسيم يوسف حربا لا هوادة فيها ضد فخر الدين منهما إياه صراحة بالخيانة بعبارة تفوق أحيانا ما أداته به عبارات المصادر ، ولأهمية ذلك في عرض القضية التي نحن بصدددها ، فإننى آثرت أن أنقل هنا نص ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف رغم طول فقرات هذا النص : "... ويعطى بعض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاته الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجه ، بسبب تفوقهم عليهم في العدة والعدد ، حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت فارتدت إلى دمياط وتركتها دون أية مقاومة إلى أشموم طناح .

"ويدور أن هذا التعليل غير معقول (نجد بعد ذلك حديثا عن حصانة دمياط ومقاومتها إبان الحملة الخامسة وعبارة ابن واصل التي تلقى باللوم على فخر الدين لانسحابه) ... ومن الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الإسلامية عند مرآى الفرنج وأساطيلهم لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقي الذي دفع فخر الدين إلى الفرار بالعسكر وترك دمياط فريسة سهلة في أيدي العدو ، ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الدين نفسه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وتحت .

"لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المظالم عريض الآمال ، ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثه نفسه بالسلطنة في ذلك الوقت ، فإنه جاء في المصدر السابق (يعنى ابن واصل ، مفرح الكروب) "كان قد انتهى إلى قريب رتبة المملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همة تترقى إلى الملك" .

"أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبزوغ أهدافه وتحقيق مآربه ، ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشود الذى طالما كان يسعى إليه ، فعندما لم يلق ردا على رسائله التى بعث بها إلى السلطان ، اعتقد أن السلطان المريض قد مات ، فانتهاز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط على استولى على الملك . وقد جاء في مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصرى (!!) وعسكره يقول فيه (وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان المملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردعهم أو يردهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح ، كما ذكر في موضع آخر ، ولم يبق للسلطان (!!) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه) ، يتضح لنا مما سبق أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن في الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عدلهم ، لكنهم أرادوا استغلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مآربهم ، ظنا منهم أن سلطاتهم قد وافته منية فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة (من المعروف أنهم لم يتجهوا إلى العاصمة ، القاهرة ، بل اتجهوا إلى المعسكر السلطانى في أشموم طناح) ، عليهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان ، غير ملتفتين إلى الدفاع عن دمياط ، ينما لو ثبتوا فيها لأمكن صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم" .

ويواصل الدكتور جوزيف هجومه على فخر الدين فيقول "وبالرغم من الخيانة التى اتهم بها فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس (!!) ولهذا فقد عهد إليه بقيادة الجيوش وتدير شئون المملكة قبل أن يصل المعظم (توران شاه بسن الصالح) من الحصن (حصن كيفا) . ولتسائل أن يقول : إذا كان فخر الدين طامعا في الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعا بهذا السبب ، فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين أم جدد محاولاته للوصول إلى كرسى السلطنة ؟ لقد عمل هذا القائد المصرى على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهى بعد موت سيده ، وتصرف في الأمور تصرفا مطلقا ، وشرع في إطلاق المساجين ، وأحس إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأتفق في المعسكر ، وحلج على خواص الأمراء ، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير ، كما صار له موكب عظيم بالمصورة ، والأمراء كلهم في خدمته ، ويترحلون له كلهم عند التزول ، ويحضرون سمائه ، حتى لقد خشى حسام الدين سائب السلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد به لنفسه ، فسير قاصدا من قبله إلى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبل أن تخرج البلاد من يده ، كذلك بعث شجر الدر وباقي الأمراء القصاد لإحضار المعظم ، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلك

لذلك إلا الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الذى تحفظ على هذه الاتهامات التى سبقت ضد الأمير فخر الدين ، بقوله : "... اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتا من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حيا أو ميتا ، ليشارك أولا فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة والوراثة السلطانية"^{٥٤} .

ويمضى الدكتور زيادة قائلا : "والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيدا عن المعترك السياسى البلاطى ، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولا بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة ، ثم إنه كان القائد فخر الدين شعر بأنه مبعدا عمدا عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح"^{٥٥} .

وبعد أن يوضح الدكتور زيادة عبارة "المصالح الشخصية" هذه لدى الأمير فخر الدين وذلك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين أو المحدثين كما يناها آنفا ، يختم حديثه بقوله : "غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط ، سوف تفند هذه الشكوك (التي سيطرت على متهمى فخر الدين) ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ حسب معايير العصور الوسطى"^{٥٦} .

حتى لا تحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول تورانشاه من الحصن لعلمة أن الأعداء كانوا متربصين له فى الطريق ، وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح فخر الدين وعزموا على قتله . ولكن يحمى هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ، وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل ، ووضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمئنهم بأنه لا يعمل للوصول إلى العرش ، وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده" .

ويختم الدكتور جوزيف دعوى الاتهام العنيف بقوله "وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب ، كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ، لكن القضاء لم يحمله طويلا إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واثقه الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن وأصار إليه ملك البلاد . راجع ، العدوان العللى على مصر ، ص ١٠٣ - ١٠٦ ، ١٤١ - ١٤٣ .

^{٥٤} - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ١١٤ .

^{٥٥} - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ص ١١٤ .

^{٥٦} - المرجع السابق نفسه ص ١١٤ - ١١٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زيادة عند تحقيقه كتاب "السلوك لمعرفة ولى الملوك" للمقرئى فى عام ١٩٥٦ ، ذكر تعليقا يفيد الموافقة نسبيا على رأى ابن واصل والمقرئى فى قيام فخر الدين ، فقد جاء فى حاشية رقم ٥ ص ٣٤٥ من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقرئى ، قوله : " يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل " كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح ، وكانت همة تترقى إلى الملك " ، وفى عام ١٩٦١ أصدر الدكتور زيادة كتابه " حملة لويس التاسع على مصر " وذكر الأراء التى عرضها لها فى المتن ويبدو فيها التحفظ واضحا على اتهامات المؤرخين لفخر الدين .

وبعد تلاوة صحيفة الدعوى المرفوعة ضد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ،
والمفعمة بقائمة الاتهامات والشكوك ، و "الشناعات" على هذا النحو الذى رأينا ، فإنه لا
مدنوحة ، سواء بشأن هذه الصحيفة ووجودها أو عدم تحريكها ، عن التسليم المطلق بداهة
وبداية إن إقدام أى قائد عسكري ، ناهيك عن القائد العام ، على الانسحاب بقواته من
ميدان المعركة ، دون أن يكون هذا ضمن الخطة التكتيكية الحربية للمعركة ، بعد إحلالا
بالواجبات العسكرية ، وإنما كبيرا يجب أن يواجه بأقصى عقوبة ينص عليها القانون
العسكري ، كان هذا في العصور الوسطى أو العصر الحديث ، وهذا هو ما فعله السلطان
الصالح أيوب مع الكنانة الذين تركوا مواقعهم في أبراج مدينة دمياط وأسوارها وهربوا ،
حيث أصدر أوامره بإعدام خمسين أو يزيد من زعمائهم ، وتم فعلا إعدامهم ، هذا في
الوقت الذى اكتفى فيه بتوجيه اللوم والتأنيب فقط إلى قائد جيشه ، وأبقاه في منصبه كما
هو ، قائدا عاما للجيش المصرى !! وهذه مسألة لاشك تثير الحيرة والدهشة أمام أى باحث
إذ كيف يتم شنق خمسين من زعماء الكنانة لفرارهم من دمياط ، مع أن هذا جاء نتيجة لما
رأوه من تخلى الأمير فخر الدين عن مواقعه في الضفة الغربية لليل ، ومروره بدمياط في
طريقه إلى أشموم طناح ، ومن ثم تبعوه حسبما جرت به رواية المصادر ؟!

وقبل أن نصدر حكما في هذه القضية الشائكة ، فإنه يتحتم علينا إعادة قراءة
النصوص المعاصرة بدقة وروية ، بل والتوقف طويلا أمام كل اتهام تضمنته صحيفة الدعوى
ومناقشة أصحابها ، حتى يجرى الحكم متفقا مع حثياته .

علمنا من جوائيل أن الانسحاب جاء نتيجة لعدم تلقى القوات العسكرية في جيزة
دمياط ردا على الرسائل الثلاث التى بعث بها القائد العام إلى المعسكر السلطانى في أشموم
طناح ، وسريان شائعة احتمال موت الملك الصالح ، ولعل الذى يقفز إلى الذهن الآن مباشرة
تساؤل ملح عن مضمون تلك الرسائل وما الذى كانت تحتويه . ولما كانت المصادر تخلو
حتى من الإشارة إلى هذه الرسائل ، ولم يزد جوائيل عن ذكر عددها فقط ، فليس أمامنا
من سبيل إلا أن نستقرى سطورها من بين الأحداث والوقائع التى صحبتها أو تلتها . والذى
لاشك فيه أن هذه الرسائل لابد أن تكون أشبه شئ بما نعرفه في زماننا هذا بالبلاغات
الحربية التى تصدرها القيادة العامة للجيش عن سير المعارك ، ومن ثم فمن المتوقع أن تكون
الرسالة الأولى قد حملت إلى المعسكر السلطانى نبأ نزول القوات الصليبية إلى الشواطئ

المصرية عند جيزة دمياط ، قبالة القوات المصرية المرابطة هناك^{٥٧} إضافة إلى تقرير القيادة العامة لعدد الجيش الصليبي والأسطول المصاحب له ومن المتوقع أيضا أن تكون الرسالة الثانية قد أبلغت السلطان بأخبار المناوشات التي وقعت بين طلائع القوات الغازية ومقدمة الجيش المصري ، وهي المناوشات التي استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أربك الوزيرى ، كما أسلفنا ، وكانت محاولة لوقف انتشار الجيش الصليبي ، ويبدو طبعا أنها لم تستمر طويلا ، إذ نقف على ذلك من قول الملك الصالح للعسكر بعد عودتهم إلى أشموم طناح "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج"^{٥٨} ، وليس من المستبعد أن تكون الرسالة الثانية هذه قد تضمنت إلى جانب ذلك الإشارة إلى خطورة الموقف من جراء التفوق العددي الواضح للجيش الصليبي ، خاصة وأن المنطقة التي تعسكر فيها فرق الجيش المصري لم تكن على قدر من الحصانة العسكرية بحيث تهيئ فرصة دفاعية أفضل من مواجهة الصليبيين ، وعليه فليس من المستبعد أيضا أن يكون القائد العام ، الأمير فخر الدين ، قد طلب المشورة من السلطان فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولما لم يتلق مقدم العسكر ردا على رسالتيه السابقتين وبخاصة الثانية ، بادر على الفور بإرسال الثالثة والتي نرجح أن يكون قد عرض فيها على السلطان مقترحات محددة بشأن الموقف العسكري وكيفية مواجهته ، وإدخال بعض التعديلات على الخطط الحربية السابقة التي كان السلطان قد أقرها بشأن الدخول في معركة حاسمة مع الصليبيين عند نزولهم إلى الشواطئ المصرية في جيزة دمياط ، وهو ما ارتآه عقب عودته مباشرة من الشام إلى مصر ، لدى سماعه بأنباء قدوم الحملة الصليبية ، ولما كان فخر الدين قد وقف الآن عن قرب على حقيقة الموقف العسكري ، وأيقن أن الدخول في معركة فاصلة مع الصليبيين في جيزة دمياط غير مضمونة العواقب أمام كثافة أعداد الجيش الصليبي ، لذا رأى أن يجرى تعديلا سريعا في الخطة الحربية السابقة بما يضمن عدم نجاح الصليبيين في تحقيق أهدافهم .

وتؤكد رجحان كفة هذا الرأي عندنا ما أخبرتنا به المصادر عن حجم قوات لوبس التاسع وكثرة أعدادها ، فابن واصل يقول : "... وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، (يقصد الصليبيين بالشام) ، فأرسوا في البحر بازاء المسلمين"^{٥٩} ، وقد أسلفنا أن هذه السفن أسرت ثلاثا من سفن الأسطول

^{٥٧} - يقول جوائيل "استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بآراء رسول الملك ، راجع القديس لوبيس

ص ٩٦ .

^{٥٨} - المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

^{٥٩} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٥ .

المصري بمن وما فيها ؛ أما ابن أيك الدوادارى^{٦٠} فيخبرنا أن الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى لم تنقطع صلته بالأيوبيين بعد وفاة السلطان الملك الكامل ، أرسل إلى السلطان الملك الصالح بخبره بخروج هذه الحملة الصليبية قاصدة مصر ، وأنه (أى لويس التاسع) "قد وصل فى خلق كثير" ثم يقول ابن أيك نفسه "وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة" ؛ هذا على حين يردد المقرئى^{٦١} عبارات ابن واصل حيث يقول : "وصلت مراكب الفرنج البحرية وفيها جموعهم العظيمة ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين" ؛ بينما يخبرنا أبو المحاسن^{٦٢} بأن ملك فرنسا "قد خرج من بلاده فى جموع عظيمة" ، ومن الملاحظ هنا أن هذه المصادر كلها تتحدث عن ضخامة الجيش الصليبي وكثرة أفراده ، دون أن تحدد عددا معينا ، وقد أكمل الحنبلى^{٦٣} الصورة بقوله : "جمع (ملك فرنسا) جمعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل" ويذكر أبو الفدا^{٦٤} العدد نفسه الذى ذكره الحنبلى . وحتى يصبح الموقف أكثر وضوحا فإننا نورد ما يذكره كاتب سيرة لويس ، نعى جوانفيل ، الذى يخبرنا فى سطور متفرقات عن قوة الجيش الصليبي ، فيذكر أولا عند مغادرة لويس لقبرص ، "أن البحر على امتداد البصر كان مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة"^{٦٥} ، وعند الوصول أمام شواطئ دمياط ، يقول "دعا الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله (وكانت العواصف قد باعدت بين كثير من سفن الأسطول الصليبي) ، خاصة وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث"^{٦٦} ، ومع أن جوانفيل لا يضع رقما معين لعدد جنود الحملة ، إلا أننا نستطيع أن نقف على تقدير تقريبي لضخامة الجيش من أسماء الأمراء الذين شاركوا لويس فى حملته طبقا للنظام العسكرى ، فى الإقطاع الأوروبى فى العصور الوسطى^{٦٧} ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وألفونس كونت بواتيه ، وشارل كونت أنجو^{٦٨} . والرقم الوحيد الذى ذكره جوانفيل كان عن عدد

^{٦٠} - الدر المطلب، ص ٣٦٦ .

^{٦١} - الملوك، ج١، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

^{٦٢} - النجوم الزاهرة، ج١، ص ٢٣٠ .

^{٦٣} - شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٢٢٩ .

^{٦٤} - المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص ١٨٧ .

^{٦٥} - جوانفيل ، القديس لويس، ص ٩٠ .

^{٦٦} - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٩١ .

^{٦٧} - يقول جوانفيل " ... كما أخذ الصليب هيو دوى برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز والكونت الباسل هيو دى سانت بول ، وابس أخيه حوشيه ... وكونت دى لامارش ، وابيه هيو برون ، وكونت ساريوك وأخوه جويرت دابرمونت " . هذا إضافة إلى أخوة

لويس الثلاثة وكثيرين غيرهم . راجع القديس لويس ص ٧٥ - ٧٦ .

^{٦٨} - جوانفيل ، القديس لويس ص ٧٥ .

الفرسان المحيطين بالملك وقدره بألفين وثمانمائة^{٦٩} ، ومن هذه الأسماء وهذا الرقم وطبيعة نظام الفروسية في العصر الإقطاعي ، اقترح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يكون المجموع الكلي لقوات لويس التاسع على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألف مقاتل^{٧٠} ، وهو لم يعد بذلك عن المراجع الأوروبية التي ذكر بعضها أن جيش الملك لويس كان خمسة وعشرين ألف مقاتل^{٧١} ، بينما راوحها بعض آخر^{٧٢} ما بين هذا الرقم الأخير وخمسة عشر ألف جندي فقط .

أما القوات التي كانت يقودها الأمير فخر الدين في جيزة دمياط ، فقد وصلت منذ قليل مع قائدها من على حصار حمص في أعالي الشام ، بعد أن أصدر الملك الصالح أوامره بسرعة عودتها حتى تنهياً لمواجهة الغزو الصليبي ، ولم تكن أعداد هذه القوات تقترب بأي حال من الأحوال من أعداد جيش لويس ، وهذا أمر نقف عليه من الأعداد التي يذكرها لنا المقرئ^{٧٣} عند حديثه عن التنظيمات العسكرية للجيش الأيوبي ، الذي كانت أعداد عسكره تتراوح في أحسن الأحوال دائما بين أربعة عشر ألف مقاتل وعشرة آلاف .

على هذا النحو يمكن أن نقف فعلا على محتوى الرسالة الثالثة العاجلة التي بعث بها الأمير فخر الدين مقدم العسكر إلى الملك الصالح ، والتي رجحنا أن يكون قد أشار على السلطان فيها بضرورة تعديل الخطة الحربية ، والذي كان بالضرورة - كما أكدت الأحداث ، يتضمن الانتقال من الضفة الغربية للنيل في جيزة دمياط ، إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط نفسها بحيث يمكنها الصمود ومواجهة الصليبيين ، وتلك حقيقة يعرفها الأمير فخر الدين حق المعرفة ، ويدرك مدى قدرة دمياط على التصدي لحصار الصليبيين ، فقد كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الخامسة ، قريبا جدا من الملك الكامل ، عارفا بكثير من الأمور العسكرية ، مدركا أن هذا يمثل أفضل الخيارات العسكرية التي يمكن الإقدام عليها ، بدلا من

^{٦٩} - المصدر السابق نفسه ص ٩١ .

^{٧٠} - حملة لويس التاسع ص ٩٩ وحاشية (من الصفحة نفسها .

^{٧١} - Runciman, *Crusades*, III p. ; Grousset, *Croisades*, III, p. 438 n.I.

^{٧٢} - Strayer (J.R.), *The Crusades of Louis IX* (in Setton, *Crusades*, II ,pp. 493 - 494.

وراجع أيضا: ماير (هـ. إ.) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة/ عماد الدين عامر ، ليبيا ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

^{٧٣} - الخطط ، ج ١ ، ص ٨٦ .

مواجهة القوات الصليبية في معركة مكشوفة كان التفوق العددي فيها لجيوش لويس التاسع، كما أن المناوشات الأولى - كما بينا - كانت الغلبة فيها للملك الفرنسي . من هنا نرجح أن يكون الأمير فخر الدين قد عرض ذلك على السلطان ، مبينا عدم جدوى البقاء في جيزة دمياط ، فلما لم يتلق ردا من المعسكر السلطاني على رسائله ، بادر بتنفيذ ذلك على مسئوليته الخاصة باعتباره القائد العام للجيش المصري ، وليس هذا ضربا من التخمين ، ولكن هو ما تؤيده الأحداث من بعد ، والتي سوف نتناولها تفصيلا ، وإن كان يأتي في مقدمتها أن السلطان الملك الصالح لم يقدم على اتخاذ أى عقوبة عسكرية ضد الأمير فخر الدين أو هيئة أركانها أو عساكره.

ويزيد من ترجيح ما نذهب إليه أن عملية الانسحاب من البر الغربي إلى البر الشرقي تمت بصورة منظمة وسريعة استغرقت فقط جزءا من الليل ، ولم يشعر بعملية الانسحاب هذه أحد من أفراد الجيش الصليبي المعسكر بالقرب جدا من هذه القوات المنسحبة ، ولو أن المسألة كانت فرارا كما يصوره المؤرخون ، لما تم بهذا الشكل الهادئ المنظم دون جلبلة أو اضطراب ، حتى أن الصليبيين فوجئوا في صبيحة اليوم التالى بعدم وجود قوات الصالح أيوب قبالتهم في جيزة دمياط . ولم يحدثنا المؤرخون عن وقوع فرد واحد من هذه القوات المنسحبة غريقا في النيل بسبب الفوضى والاضطراب التي تصاحب أى عملية للفرار والهروب من ميدان المعركة ، وهذا يعد دليلا واضحا أن الانسحاب تم في سرية تامة وهدوء كامل وترتيب دقيق أشرف عليه القائد العام وهيئة قيادته ، ولو لم يجر الأمر على هذا النحو ، وتنبه الصليبيون لما يسميه المؤرخون "فرارا" لما تركوا هذه القوات تفلت من أيديهم ولأبادوا أفرادها عن آخرهم . ومن ثم يمكن القول بكل الاطمئنان أن هذا الانسحاب الذي قام به الأمير فخر الدين كان انسحابا تكتيكيا كى يتخذ من مدينة دمياط ، وبها من الرجال والذخائر والأقوات ما بها قاعدة عسكرية لعملياته ضد الصليبيين .

ومن وجهة النظر العسكرية البحتة ، يعد هذا الانسحاب عملية عسكرية ناجحة بكل المقاييس : إذ تم عبور القوات من الضفة الغربية للنهر إلى الضفة الشرقية خلال جزء يسير من الليل، والعدو على مقربة من هذه التحركات ، دون أية خسارة في الأرواح أو العتاد ، وليس من المنطقي ولا من المقبول أن يقدم الأمير فخر الدين على إنجاز هذه المهمة ، التي عدها الصليبيون مكيدة دبّرت لهم على حد قول المصادر ، ليكون هدفه الأساسي من ورائها الهروب من ميدان المعركة ، أو الإسراع إلى أشموم طناح لهوى في نفسه بالوثوب على العرش ، لأن "همته كانت تترقى إلى الملك" كما يقول ابن واصل ! ولكن الذي غمّل إليه

ونرجحه أن هذا العبور كان تكتيكيا لاتخاذ دمياط مركزا متقدما حصينا للمقاومة ، حيث يعسكر الكنانية "الشجعان" المنوط بهم أصلا الدفاع عن المدينة .

والذى لاشك فيه أن فكر القائد العام للجيش ، الأمير فخر الدين ، كان مشغولا آنذاك، إلى جانب النواحي العسكرية ، بما يمكن أن تكون الأمور قد جرت عليه في أشموم طناح، وزاد من هذا القلق أنه لم يتلق ردا على رسائله من السلطان ، وهو يعلم جيدا أن الملك الصالح قد نقل من دمشق إلى أشموم طناح في محفة لما ألم به من مرض شديد ، وأن وفاته أو أى مكروه يضاعف من عجزه في مثل هذه الظروف الحرجة من الناحية العسكرية، قد يقود البلاد بالتالى إلى متاهات لايعلم إلا الله مداها ، ومن ثم كان لزاما عليه أن يكون في قلب الساحة السياسية لضبط الأمور وحسن إدارة البلاد في ذلك الوقت ، وهذا ما سوف تؤكد الأحداث التالية كما سنوردها تفصيلا فيما بعد .

وهكذا كانت الأمور تقتضى أن يترك فخر الدين جزءا من قواته في دمياط لتعزيز دفاعاتها، والإسراع ببقية العسكر إلى أشموم طناح حيث يرقد السلطان ، وهنا فقط انقلبت المسألة إلى الفوضى الكاملة التى عجز القائد العام نفسه عن السيطرة عليها ؛ ذلك أن العسكر الذين كان من المفروض أن يبقوا في دمياط ، لم يقبلوا ذلك واستحثوا خطاهم في إثر فخر الدين ومن معه باتجاه أشموم طناح ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، وتركوا مواقعهم التى وكل إليهم الدفاع عنها في أبراج المدينة وأسوارها ، وكان طبيعيا وقد رأى أهل دمياط هذا "الفرار" الذى قام به الكنانية ، أن يغادروا بدورهم المدينة "حفاة عراة" لا يلوون على شئ ، في محاولة للنجاة بأنفسهم بعد أن رأوا مدينتهم وقد خلت تماما من القوة المكلفة بالدفاع عنها، وهذه الوقائع كلها نستقيها من المصادر المعاصرة وخاصة مؤرخنا ابن واصل .

ولنتابع معا ما جرى به قلمه حيث كتب : "ولما عدى فخر الدين والعسكر إلى البر الشرقى، رحل المعسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان" ، وهذا يعنى نصا أن العسكر هم الذين حصل عندهم طمع وليس فخر الدين ، وأنهم هم الذين غنوا السير إلى حيث العسكر السلطاني ، وهذا تؤكد عبارة ابن واصل التالية مباشرة إذ يقول " فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم"^{٧٤} ، ومعنى ذلك أن الأمير فخر الدين قد فقد السيطرة عليهم، وأدرك لساعته أن الأمور على هذا النحو سوف تفلت من

^{٧٤} - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ، ص ٢٦٦ .

بين يديه ، أو هي هكذا بالفعل حيث يضيف ابن واصل : "فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط" ، أى لتمكنت دمياط من الصمود أمام جنود لويس ، ومع أن العبارة تلمز فخر الدين من طرف خفى لمن يدقق في كلماتها ، إلا أنها في معناها الظاهري تعد دليل صدق على ما نذهب إليه من أن العسكر هم الذين أحدثوا هذه الفوضى ، ولم يرتدعوا للأوامر العسكرية "بسبب ما حصل عندهم من طمع نتيجة مرض السلطان" . ولم يكن هذا أمرا جديدا على المعسكر ، بل إنهم مارسوه مع الصالح نفسه من قبل عندما كان في الشام قبل اعتلائه عرش السلطنة في مصر ، ومارسوه من بعد مع أميرهم فخر الدين نفسه عند وفاته على نحو ما سنبينه من بعد .

والآن .. نقدم شهادة شاهد عدل تثبت ما لا يدع مجالا للشك مطلقا صحة كل ما ذهبنا إليه عن فحوى رسائل الأمير فخر الدين وهو بعد في جيزة دمياط ، والتعديل الذى أدخله على الخطة العسكرية السابقة وأطلع عليه السلطان قبل تنفيذه ، وعزمه على تقوية دفاعات دمياط كي تصبح قاعدة الدفاع عن الديار المصرية ، وأن الرجل لم يكن له يد مطلقا في هذه الفوضى التى حدثت وحدثنا عنها نحن الآن ، هذه الشهادة جرت على قلم الملك الصالح نفسه فى وصيته لابنه تورانشاه ، يقول : " ... فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق^{٧٥} انهزموا وسلموا لهم البر ، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط ، وهربت العوام وتبعهم الأجناد ، وكان المقدم عليهم الأخ فخر الدين ، الذى ساق خلفهم وردهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير ، فلما أصبح ما وجد فى المدينة أحدا ، هربوا الكنانة فى الليل ، وكسروا الخوخ (الطاقات والنوافذ فى الحصون) ونزلوا من السور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم ، فهبوها المسلمين (هكذا) بعضهم بعض (هكذا) وأخلوا دمياط حتى أخذتها الفرنج ثانى يوم"^{٧٦} . ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ، ومن ثم فلسنا مبالغين حين قلنا إن ابن واصل كان يلمز الأمير فخر الدين فى قوله " لو منع العسكر ، وأقام ، لامتنعت دمياط " ، فقد فعل ابن شيخ الشيوخ أكثر من ذلك حين رتب الدفاعات على الأبواب ، " وساق وراء العسكر وردهم " ، ولكن فوضى جبلوا عليها ، و " طمعا " داعب هوى فى نفوسهم جعلهم يتخلون عن واجباتهم العسكرية .

^{٧٥} - مفردتها " حراقة " وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، انظر درويش النخيلي ، السفر الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٣٢ .

^{٧٦} - النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٤٤ .

ولم يكن ما فعله العسكر بالأمر المستغرب وبصفة خاصة في السنوات الأخيرة للدولة الأيوبية ، وكانوا في معظمهم من الأكراد والأتراك والتركمان وعناصر أخرى ، ولعل هذا هو الذى دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الاعتماد على جماعة الخوارزمية في حروبه مع الصليبيين في الشام أو ضد أقاربه من البيت الأيوبي هناك ، فلما تبين له عدم التزام هؤلاء الآخرين أيضا بالانضباط العسكرى ، عمد إلى شراء هذه الأعداد الكبيرة من المماليك الذين أصبحوا خاصة عسكره ، وغدا لهم أستاذًا ، وأخلصوا له وظلوا على ولائهم التام له حتى موته ، وكونوا من بعده دولة قوية حملت اسمهم . ولم تكن حقيقة أولئك العسكر غائبة عن الملك الصالح ، ويعبر ابن أيك^{٧٧} عن ذلك في عبارات واضحة لا لبس فيها حين يقول : " اشترى (الملك الصالح) من المماليك الترك ما لم يشتري أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكبر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من عدد الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش " . وما لنا نذهب بعيدا والملك الصالح نفسه كتب ذلك بقلمه في وصيته لابنه تورانشاه حين قال : " يا ولدى ، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين ، كل من لبس قباء وركب فرسا ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس (هكذا) ويرطل نقيبه وأستاذ داره^{٧٨} على خبز جندي معروف بالشجاعة والحرب ، طرده أميره ، وأعطى خبزه لذلك العامى الذى لا ينفع ، وأكثرهم على هذه الحالة ، فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هربوا ، وينكسروا العسكر ، لأنهم ما يعرفون قتال (هكذا) ولا هو شغلهم ، فينبغى أن لا يستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنشاب والأكرة ، وتظهر فروسيته ، حيثئذ يستخدم " ^{٧٩} .

على هذه الحال وصلت العساكر والأجناد والكتانية والعوام وأهل دمياط إلى أشموم طناح حيث المعسكر السلطاني ، ومن هؤلاء الآخرين من تفرق في الديار المصرية ، ويصف ابن واصل الحالة من حول الملك الصالح بقوله في إيجاز شديد : " ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكتانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم ، فشنعوا جميعا ،

^{٧٧} - الدر المطلب ص ٢٧٠ ، ويقول ابن واصل : " لما رأى الملك الصالح من غدر الأمراء به يوم أخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه لما فر الناس عنه بقصر معين لدين بـ " الغور " ، مال إلى مماليكه ورجعهم " ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٤ ، وراجع تفاصيل ما كان من هؤلاء العساكر مع الملك الصالح أيوب في ، ابن واصل ، مفرج الكروب حـ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ المقرئى ، السلوك جـ ١ ، ص ٢٣٩ .

^{٧٨} - أى المتولى شئون قصر الأمير أو وكيله .

^{٧٩} - النويرى ، نهاية الأرب حـ ٢٩ ص ٣٤٩ . ومن الجدير بالاهتمام أن نفرق بين تعبيرى " عسكر " و " جند " . فالمقصود بالعسكر الجيش النظامى أو عسكر السلطان ، ويخدم أفراداه بصفة دائمة ويتلقون إقطاعا ، ويحيطون بالسلطان لا يفارقونه أبدا . أما الجند أو الأجناد فهم جند الأمراء وعاليتهم من الأكراد والأتراك ، وهم يشكلون القوات الاحتياطية أو الإقليمية ، ويخرجون إلى الحرب مقابل إقطاعاتهم . لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع للمؤلف ، الجيش المصرى في عصر الأيوبيين ، تحت الطبع .

وتألم السلطان مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغفلة عما فعلوه " ، أو " الصبر والتغاضى " على حد تعبير المقرئى^{٨٠} .

وإذا كان الوقت لا يحتمل إلا الصبر والتغاضى عما فعله العسكر وقائدهم فخر الدين فلماذا خص السلطان قائد جيشه وعساكره فقط بصبره وتغاضيه ، ولم يتسع الصدر ليشمل هذا " الصبر والتغاضى " أيضا زعماء الكنانية ، الذين يخبرنا ابن العبرى^{٨١} أن السخط عليهم بلغ بالسلطان مبلغه وأمر بشنقهم كما هم بشياهم ومناطقهم وخفافهم " ؟! وتأتينا الإجابة عن هذا التساؤل فى عدد من المصادر^{٨٢} تقول ، إن السلطان " شنق أمراء الكنانية - وكلنا نيفا وخمسين أميرا - بعد أن استفتى فى شنقهم ، لخروجهم عن الثغر بغير أمره " .

والعبارة الأخيرة توضح أمرا يختص بتكوين الجيش المصرى فى العصر الأيوبي ؛ ذلك ان الكنانية وغيرهم من العرب والعربان أو البدو والمتطوعة ، لم يكونوا ضمن الجيش الرئيسى ، أو بتعبير آخر لم يكونوا جزءا من العساكر النظامية التى تخضع للقائد العام للجيش ، مقدم العسكر ، ومن ثم كانوا يتلقون أوامره من السلطان مباشرة ، ورغم شجاعتهم التى عرفوا بها وتحمسهم للقتال ، بل وقهورهم أحيانا واندفاعهم فى القتال ، إلا أنهم بسبب هذا كله كانوا يسببون كثيرا من الحرج للجيش النظامى ، وخسائر جسيمة لأنفسهم فى كثير من الأحيان . ولدينا على ذلك أمثلة كثيرة وبصفة خاصة على عهد السلطان الناصر صلاح الدين ، ولذلك كان الاتهام الرئيسى الذى وجه إلى الكنانية أن انسحابهم من دمياط وترك حصونها وأسوارها دون حماية وتخليهم عن مواقعهم بغير أوامر صريحة من السلطان ، مما كان سببا أساسيا ومباشرا فى سقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدي الصليبيين ، فى اليوم التالى مباشرة لفرارهم منها ، وكانت تلك هى الطامة الكبرى.

لم يتوان الصالح أيوب إذن عن إنزال أقصى عقوبة تفرضها القوانين العسكرية على هؤلاء الكنانية ، رغم إقرار المصادر المعاصرة واللاحقة كلها بشجاعتهم ومواقفهم السابقة تجاه الصليبيين، بينما كان نصيب فخر الدين من هذه العقوبات مجرد "تغير" السلطان و "الأم" الذى حل به وليس بالأمير فخر الدين !! ترى .. لو خامر الشك السلطان لحظة واحدة فى نية الهروب من ميدان المعركة لدى مقدم عسكره ، أو التآمر الكامن فى نفس

^{٨٠} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٨ ؛ المقرئى ، السلوك - ج ١ ص ٣٣٦ .

^{٨١} - تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٩ . ولابن العبرى أيضا تاريخ الزمان ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، وإن ذكر فى كل كتاب عددا يختلف عن الآخر ، إذ جعلهم فى الأول أربعة وخمسين أميرا ، وفى الثانى اثنين وستين أميرا .

^{٨٢} - المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٣٥ .

القائد العام تجاهه ، هل كان يتركه هكذا دون عقاب ، ويترك الألم يعتصره هو نفسه متذرعاً بالصبر ، في ظل ظروف سياسية وعسكرية بالغة السوء ؟! والأغرب من ذلك أن يتركه في منصبه قائداً عاماً لجيشه ، بل ويوحى صراحة على لسان المصادر ، أن السلطان أكد على أن يظل فخر الدين أتابكا للعسكر ، كما أخبرت عن ذلك زوجته شجر الدر ، وأخذت العهود والمواثيق على الأمراء باحترام ذلك حتى يحضر المعظم تورانشاه ، ابن الصالح ، من حصن كيفا بعد أن مات السلطان ، وأخفت زوجته خير موته إلا عن الأمير فخر الدين نفسه ، والطواشي جمال الدين محسن ، أقرب الناس إلى السلطان ، على حد قول ابن واصل^{٨٣} . هذا كله بينما لم يتورع الصالح عن الإيعاز بقتل أخيه العادل خوفاً من أن تحدثه نفسه بالقفز على عرش السلطنة أثناء توجه السلطان إلى الشام سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م وكانت أوامره في ذلك صريحة واضحة عندما وجهها إلى حسام الدين ابن أبي علي نائب السلطنة في القاهرة حيث قال : " إني مسافر إلى الشام ، وأخاف أن يعرض لي موت ، وأخى الملك العادل بقلعة مصر ، فيأخذ البلاد وما يجري عليكم منه خير ، فإن عرض لي في سفرى هذا مرض ولو أنه وجع إصبع أو حمى يوم (تأمل !!) فاعدمه ، فإنه لا خير فيه لكم "^{٨٤} . ولم يلبث الملك العادل أن وجد ميتاً بالقلعة في اليوم التالي مباشرة لرفضه الانصياع لأوامر أخيه الصالح بالخروج إلى الشوبك ، ليكون بها معتقلاً بعيداً عن القاهرة حالة وجود السلطان في الشام ، وتشير أصابع الاتهام إلى قيام الطواشي جمال الدين محسن بقتله خنقاً^{٨٥} . بل إن السلطان - على حد قول ابن واصل^{٨٦} لم يأذن لابنه المعظم تورانشاه في القدوم عليه إلى مصر ، لكرهيته له !! مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها .

والآن .. وقد أسقطنا بالأدلة الثابتة وشهادة الشهود العدول ، الشق الأول من الاتهامات الموجهة إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والقائلة بـ "هروبه" أو "فراره" من حيزة دمياط إلى المعسكر السلطاني ، وتخليه بذلك عن واجباته العسكرية ، وتفريطه وتهاونه في الدفاع عن الديار المصرية ضد الحملة الصليبية السابعة ، نقول الآن .. بقى أن ننظر في الشق الثاني من هذه الاتهامات ، وهو مكمل للأول ، باعث له مترتب عليه !! نعتي بذلك اتهامه بالخيانة والتآمر سعياً للقفز على العرش في ظل هذه الظروف السياسية والعسكرية البالغة الصعوبة والخرج ، بمرض السلطان مرض الموت ، واحتلال جزء

^{٨٣} - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ٢٨١ .

^{٨٤} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

^{٨٥} - المصدر السابق ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٥ .

^{٨٦} - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٩ .

من الديار المصرية على يد الصليبيين ، وسعيهم للتوغل داخل البلاد لتملكها ، وذلك اتهم جد خطير لن تقل عقوبته - إذا صح - عما لقيته بنو كنانة منذ قليل . وإذا كان الدليل العملي الوحيد الذى يساق هنا من جانب من يتهمون فخر الدين بالخيانة ، هو انسحابه من جيزة دمياط وعودته مباشرة - على حد قولهم - إلى أشموم طنّاح، فإن سؤالاً لا بد أن يقفز إلى الذهن دون توان ، ما الذى فعله الأمير فخر الدين حالة وصوله إلى المعسكر السلطاني؟ لماذا لم يقبض على السلطان الذى لا يستطيع حراكاً؟! لماذا لم يعزله أو يجهز عليه إذا كان قد جاء أصلاً لهذا الغرض؟! لماذا لم يفعل ذلك ويعلن نفسه سلطاناً بدلاً منه ، خاصة وأن الملك الصالح " لم يحزن لموته إلا القليل " ، كما تقول المصادر^{٨٧} ، بينما كان الأمير فخر الدين محبوباً رغم خيانتة ، على حد قول المؤرخين الذين يقيمون ضده هذه الدعوى؟!^{٨٨} أترأه ترك للزمن وحده أن يتكفل بذلك والنهاية قرية محتومة ، كما يسوق متهموه ذلك أيضاً؟ وإن كنا لا ندرى كيف يجتمع الناس ، وفي مقدمتهم السلطان وزوجه والعامة ، على حب رجل اتصف بالخيانة ، وسلم جزءاً من البلاد للأعداء ، مهما بلغت منحه وعطاياه .

ومن ثم، أليست هذه كلها، علامات استفهام تحتاج إلى إجابة محددة وصريحة، حتى يمكن فعلاً إقامة دعوى الاتهام ضد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أو إسقاطها بالكلية؟

ونتساءل أولاً - هل يمكن أن يكون فخر الدين قد قطع هذه المسافة -هرباً- من جيزة دمياط إلى أشموم طنّاح ليمثل فى حضرة السلطان المسجى فى فراش المرض ، ليدخل الألم فقط على نفس السلطان عله يموت كمدا؟! أو ليسمع بعض عبارات اللوم من جانبه ، التى لم تزد عن قول السلطان، الذى يتسم بالشدة والحزم ، للعسكر " ما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج"؟! هل يقبل كيل الاتهامات ضد الرجل على هذا النحو من البساطة، وليس هناك دليل واحد غير الانسحاب هذا ، والذى فصلنا فيه القول من قبل، لكن ابن واصل ومن سلك سبيله يتحدثون عما يظن انه كان طموحاً فى نفس الأمير فخر الدين وتطلعاً إلى السلطة وشوقاً إلى العرش ! ويرتبون على ذلك حدوث الجفوة بين السلطان وابن شيخ الشيوخ ، ليس فقط بسبب ما عدوه فراراً وتخاذلاً كما جاء على لسان ابن واصل: " لم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة، سيما وأنه كان متألماً منه لرجوعه بالعسكر

^{٨٧} - أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٢ نص ٣٢٦ .

^{٨٨} - جويريف سيم يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ص ١٢١ .

من دمياط، وتهاونه بما حتى أخذها الفرنج"^{٨٩}، ويردد هذه العبارة نفسها في موضع آخر بقوله: "إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما كان يقف بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الثقة التي توجب أن يفوض إليه الأمور بعده "ومرة أخرى لا ندرى كيف يمكن أن يقدم سلطان على اختيار شخص لا يثق فيه قائدا عاما لجيشه والحرب قائمة!!

نقول ليس هذا فقط الذي جعل الصالح يزاور عن فخر الدين في رأى متهمية ، بل راحوا يؤصلون هذه الجفوة ويردونها إلى الأيام الأولى التي اعتلى فيها الصالح عرش سلطنة الديار المصرية، فيقول ابن واصل مكملًا عبارته السابقة ، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب "يعرف همة فخر الدين وتعاليتها ، وأنه يوم ملك السلطان مصر ، وأطلق فخر الدين (من سجن القلعة كما قدمنا) ، ركب فخر الدين ركبه عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا به ، فأوجب ذلك أن استشعر منه وألزمه داره "^{٩٠} ، يعنى أنه قد خشى جانبه فقرر تحديد إقامته في داره كما نقول بتعبيرنا الحديث ، ويضيف ابن واصل في موضع آخر : " إن الأمير فخر الدين رحمه الله كان على الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر "^{٩١} .

ومن حقنا أن نتساءل ، إذا كان السلطان قد ارتاب في أمر الرجل منذ اليوم الأول لتملكه الديار المصرية ، بعد أن أحسن به وأخرجه من السجن ، ألم يك قادرا على أن يعيده إليه ثانية دون أية مساءلة ؟ وهو لا شك أهون عليه من أخيه العادل ، ولماذا حدد إقامته في داره ولم يذهب أبعد من ذلك ؟ بل لعله من الطريف أن نقول إنه ذهب فعلا أبعد من ذلك ولكن في الاتجاه الآخر، إذ أن ابن واصل كان قد أخبرنا قبلا في موضع سابق من كتابه "^{٩٢} بهذه الرواية مع اختلاف يسير وإضافات قليلة ، ولكنها تحمل دلالات بعيدة وتفسيرات لما أقدم عليه ، قال : "فلما دخل الملك الصالح قلعة الجبل أخرجه ، فركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا من الناس ، لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ذلك ، فاستشعر منه ، ولم يعجبه ذلك وأمره بلزوم بيته غير مضيق عليه " ، والعبارة الأخيرة هذه " غير مضيق عليه " تشير صراحة إلى أن الأمير أصبح مطلق السراح ، يمارس حياته بصورة عادية بعد خروجه من السجن ، دون أن تقيّد حريته أو يتعرض للمضايقة من جانب السلطان ، ويمضى ابن واصل فيقدم ما يمكن أن يعد توضيحا

^{٨٩} - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

^{٩٠} - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٣ ، وقارن جوزيف سيم ، العلوان الصليبي على مصر ص ١٠٥ ، ويقول المقرئى : " كثر تردد الناس إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن ، فكره السلطان ذلك وأمره أن يسلازم داره " ، السلوك ، ج١ ، ص ٣٠٩ .

^{٩١} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ .

^{٩٢} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

لمكانة أولاد ابن الشيخ عند الملك الجديد الصالح أيوب ، فيقول مواصلا حديثه بعد عبارته هذه " واستوزر الملك الصالح أخاه (أخا فخر الدين) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة ، فقام بوزارة الملك الصالح أحسن قيام ، وأما أخوهم كمال الدين فبقى على منزلته ومكانته التي كانت له في أيام الملك الكامل "٩٣ .

إذن فالأخوان معين الدين وكمال الدين ابنا شيخ الشيوخ يقومان بتولى أمور السلطنة ، أولهما هو الوزير ومدير المملكة يقوم بمهامه خير قيام إلى الحد الذي جعل الملك الصالح " يقيمه مقام نفسه "٩٤ ، والثاني حفظت له مكانته التي كانت له أيام الكامل، وجعله الصالح على رأس جيوشه العاملة في الشام ، وكان طبيعيا أن يقيم الأخ الثالث فخر الدين في بيته غير مضيق عليه ، وأخواه الآخرون يدبران شئون المملكة مدنيا وعسكريا، والصالح يحتاج في السنوات الأولى من حكمه إلى تدعيم مركزه وسلطانه ضد أبناء البيت الأيوبي في الشام ، وأنصار أخيه العادل الثاني المعزول في القاهرة ، ولو كان الشك بخامر السلطان في نيات وطموح فخر الدين لما أخرجه من السجن ، ولما أنزل أخويه منزلا كريما . ومن ثم فإنه ما أن مات الأخوان كمال الدين ومعين الدين على التوالي ، حتى استدعى السلطان الأمير فخر الدين ، وأحل محلها ، ويقول ابن واصل في ذلك، " فخلع عليه وأمره وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، ولم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره "٩٥ ، وليس ممن المعقول أو المقبول أن ينعم السلطان بكل هذه النعم على رجل " استشعر منه " وخاف على نفسه من مكانته بين الناس . بل إن الصالح زاد على ذلك عندما أعطى الخلعة التي كان الخليفة العباسي المستعصم بالله قد بعث بها إلى معين الدين فوصلت بعد وفاته، إلى فخر الدين، " فلبسها الأمير فخر الدين بن الشيخ بمرسوم الملك الصالح "٩٦ .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه هنا أيضا ، أن علاقة السلطان بالأمير كانت تعود إلى ما قبل تولي الملك الصالح عرش مصر ، ليس هذا فحسب ، أعني أنها لم تكن مجرد علاقات عادية ، بل هي علاقة المودة والولاء من جانب فخر الدين للصالح ، فيخيرنا المقريزي^{٩٧} أن السبب الذي دفع العادل الثاني إلى القبض على فخر الدين وسجنه بالقلعة ، أن ابن شيخ

^{٩٣} - المصدر السابق نفسه والصفحات نفسها .

^{٩٤} - ابن زيبك ، الدر المطلب ، ص ٣٥٤ .

^{٩٥} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

^{٩٦} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ٣٤ .

^{٩٧} - السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨ .

الشيوخ كان يرأس الملك الصالح وهو بدمشق ، في الفترة التي اشتد فيها الخلاف بين العادل وأخيه الصالح فهل هذا الأمير هو الذي يمكن أن "يستشعر منه السلطان"؟!

ولنمض مع مؤرخنا ابن واصل في رحلة الحديث عن فخر الدين ، فنجدده يقول ، فيما نحن الآن بصدد ، " فلما مات الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (أخو فخر الدين) بدمشق ، احتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدمه"^{٩٨} ، ونحن نسأل ابن واصل ومن سار على هديه ، هل يمكن أن يوصف بالشهامة والنجابة من يتهاون ويتخاذل أمام الأعداء ويضمر الغدر لسيدته لهوى في نفسه؟! وهل يعقل أن يقدم حاكم مثل الصالح نجم الدين أيوب ، يصفه ابن واصل نفسه بأنه كان " ملكا مهيبا ، عزيز النفس ، حشما عفيفا ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ... بلغ من عظيم هيئته أنه كان إذا خرج وشاهد الممالك صورته ، يرددون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد"^{٩٩} . نقول هل يعقل أن يقدم الصالح أيوب ، وقد اجتمعت له كل هذه الصفات ، على أن يقرب إليه رجلا يشك في ولائه له منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش ، حتى لو كان في أشد الحاجة لذكائه ونجابته وحسن مشورته؟!!

والذي يلفت الانتباه هنا أن ابن واصل عندما كان يتحدثنا عن هذه الأمور ، يجيء حديثه مرسلا وكأنه خير الوقائع بنفسه ، فإذا ما تناول فخر الدين وما يساور السلطان تجاهه ، قدم لروايته بأنه أخير بذلك أو غما إلى علمه أو قيل له ، وكأنه يلقي بالمسئولية على غيره أو يحترز فيما يروي ، من ذلك مثلا قوله " وعلمت من جهة قرية أخرى ، أقوى القرائن عندي ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ"^{١٠٠} ، وأيضا " بلغني أنه كان في نفس الملك الصالح من هذا (يعني الانسحاب من جيزة دمياط) أمر عظيم وحنق عليه"^{١٠١} .

ويبدو أن هذه الجهة القرية التي أبلغت ابن واصل وأعلمته بما كان في كثير من هذه المسائل المتصلة بفخر الدين لم تكن إلا الوزير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، نائب السلطنة في القاهرة^{١٠٢} ، وكان هو الآخر مقربا من السلطان الصالح أيوب ، ومن ثم كان

^{٩٨} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .

^{٩٩} - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٢٧٥ ؛ وراجع أيضا: أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٢١ - ٢٢٤ .

^{١٠٠} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٣ .

^{١٠١} - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٤ .

^{١٠٢} - جرى ذلك بقلم ابن واصل في بعض المواضع حين يقول صراحة : " أخبرني بهذا كله الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني " ، مفرج الكروب ج٦ ص ٢٥٥ ، بينما تتكرر كثيرا عبارة " فحكى لي حسام الدين بن أبي علي " ، مفرج الكروب ج٦ ص ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ وغير ذلك من الصفحات .

هو وفخر الدين رجلى الدولة المسئولين عن كل أمورها ، يعتمد عليهما السلطان في تصريف أمور دولته ، وبينما كانت نفس ابن واصل تنطوى على شئ من عدم الارتياح تجاه القائد العام للجيش الأمير فخر الدين ، رغم ثنائه عليه في أكثر من موضع ، إلا أنه هو الذى تزعم حملة الاتهامات ضده في الوقت نفسه ، كان من ناحية أخرى يحمل كل المودة والتقدير للوزير حسام الدين ابن أبي على الهذباني ، حيث كانت تربط بينهما صداقة وطيدة تعود إلى زمن بعيد منذ كان ابن واصل يطلب العلم في دمشق عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م^{١٠٣} عندما ألقى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق القبض على حسام الدين مع جماعة من أنصار الصالح نجم الدين أيوب ، كان الملك الناصر داود صاحب الكرك قد أطلق سراحهم ، وأمر الصالح إسماعيل أن يؤخذ جميع ما كان معه (مع حسام الدين) وجعل رجله قيلا وحبسه في حبس الخيالة بقلعة دمشق ، قال ابن واصل معلقا على ذلك " فأقام حسام الدين في حبس الخيالة ، وكنت أصعد إلى القلعة واجتمع به في الحبس في أكثر الأوقات ١٠٤١

وعندما ظهر أمر الصالح نجم الدين أيوب ، تحسب عمه الصالح إسماعيل للأمر ، فقام بنقل حسام الدين إلى قلعة بعلبك ، واعتقله في جب وضيق عليه غاية التضيق ، على حد قول مؤرخنا الذى بعث به حسام الدين إلى القاضى بدر الدين قاضى سنجار ، وإلى محبى الدين بن الجوزى ، رسول الخليفة المستنصر بالله ، للتوسط بينه وبين الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق ليطلقه من الحبس ، غير أن هذه الوساطة لم تؤت ثمارها المرجوة ، وظل الأمير حسام الدين في محبسه هذا حتى أطلق الصالح إسماعيل سراحه بعد ذلك في عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م^{١٠٥} .

ولم تلبث أواصر الصداقة بين حسام الدين بن أبي على الهذباني وجمال الدين بن واصل أن راحت تزداد رسوخا بعد مجئ مؤرخنا إلى مصر ، وما لقيه من الحفاوة والتكريم على يد نائب السلطنة حسام الدين ، وسوف أترك القلم هنا لابن واصل ليقص علينا بنفسه كيف كان ذلك ، يقول " وكان دخولي إلى القاهرة في المحرم من هذه السنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) ، واجتمعت بالأمير حسام الدين بن أبي على ، وكان السلطان الملك الصالح (نجم

^{١٠٣} - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٩٤ .

^{١٠٤} - المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٤٣ .

^{١٠٥} - المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٢٤٣ ، ٣٢٨ .

الدين أيوب) قد أنزله في الدار المعروفة بدار الملك^{١٠٦} على شاطئ نيل مصر في مدينة مصر ، وهي دار عظيمة من آدر خلفاء مصر (الفواطم) ليكون قريبا منه ، فإن السلطان كان نازلا في قصوره بقلعة الجزيرة ، وهي القلعة التي أنشأها بالجزيرة (الروضة) ، وكان عنده (يعني حسان الدين) في أعظم المنازل ، وأعطاه خبزا جليلا ، فأحسن إلى وأنزلني في داره التي بالقاهرة ، وهي دار جليلة بدرب الديلم^{١٠٧} وأدرني إنعامه وإحسانه^{١٠٨} . وعلى هذا النحو الذي فصله مؤرخنا ندرک إلى أى مدى كان حسام الدين يطوق عنق ابن واصل بجميل نعمائه وإحسانه ، ولا غرابة أن يحاول ابن واصل رد هذا الجميل .

وقد أفصح ابن واصل تماما عن مكنون نفسه تجاه قطبي الدولة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، نعى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر ، والأمير حسام الدين محمد بن أبي على الهذبانى نائب السلطنة . وجاءت عباراته عن الرجلين واضحة كل الوضوح في الإقرار بفضل الحسام عليه ، والتحامل على فخر الدين مما أدى إلى وقوفه أمام محكمة التاريخ ! وسوف نورد هنا بعضا مما سجله قلم ابن واصل ، يبين بما لا يدع مجالا للشك أن هوى مؤرخنا كان مع الحسام ، يقول " ولم ينص (الملك الصالح نجم الدين أيوب) على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج الأمر عن حسام الدين محمد بن أبي على ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة^{١٠٩} . ولو أن الأمر اقتصر في الحديث على حسام الدين فقط ، لكان من الممكن أن يمضى

^{١٠٦} - " وهي من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ن بدأ في بنائها وإنشائها سنة ٥٠١هـ / (١١٠٧ - ١١٠٨م) ، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر ، فصارت بها وجعل فيها الأسطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة (الفاطمية) ، فجعلها الملك الكامل دار متحر ، ثم عملت في أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة " . راجع المقرئى ، الخطط جـ ١ ص ٤٨٣ .

^{١٠٧} - عرفت بهذا الاسم لقول الديلم الواصلين مع هفتكين الشراي حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأكراد في سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م . فسكنوا بها فعرفت بهم " راجع المقرئى الخطط جـ ٢ ص ٨ - ٩ ، والديلم نسبة إلى المنطقة التي قدموا منها ، منطقة الديلم وهي جزء من بلاد فارس تقع جنوبى بحر قزوين .

^{١٠٨} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٤ .

^{١٠٩} - المصدر السابق ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

قول ابن واصل دون إثارة أى تساؤل ، فقد كان حسام الدين فعلا من المخلصين المقربين إلى الصالح ، أما إقحام اسم فخر الدين هنا دون داع يستدعيه الحديث ، فلا بد أن يبعث عند أى باحث عوامل القلق ، إذ أن المقارنة هنا بين الرجلين من جانب ابن واصل متعمدة ومقصودة لذاتها، وليس هناك ما يستوجب الإتيان بها على هذا النحو ، وإن كان ما يقوله هذا يدفعنا إلى الدهشة مرة أخرى ، إذ كيف لا يثق الصالح بفخر الدين كل الثقة وبعهد إليه بقيادة الجيش فى أحلك الظروف ؟!

ويعود ابن واصل ليؤكد هذا المعنى مرة ثانية فى موضع آخر حين يقول : " ثم جرى من فخر الدين يوسف ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمر عظيم ، وحق عليه ... فتحقق عندى من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على " ١٠٩ .

ولعل هذه العبارات وما شابهها تكشف جانبا هاما من تحامل ابن واصل على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وتوضح أن ابن واصل كان بكل قلبه وجوارحه ، مع الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وكان يتمنى أن يعهد إليه السلطان بأمور البلاد من بعده أو يوصى بذلك ، بل ذهب مؤرخنا أبعد من ذلك عندما أشار صراحة إلى كراهية الملك الصالح نجم الدين أيوب لولده غياث الدين تورانشاه ، الذى عرف بالملك المعظم ، لما كان فيه على حد قول ابن واصل من "هوج واضطراب" ١١٠ ، ويمضى قلئلا : " وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكراهته لابنه المعظم ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولى عهده إذا مات ، وبلغ من كراهته له ما أخبرنى به الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى " ١١١ .

وقد فات على ابن واصل ما ذكره فى كتابه فى موضعين ١١٢ من أن السلطان أوصى فعلا بما يجب أن يتم حالة وفاته، وأنه ترك هذه "الوصية الشفهية" مع وزيره حسام الدين حين قال له يوما: "إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله (العباسى) ليرى فيها رأيه " . وفى الموضع الثانى يقول : "وكان السلطان الملك الصالح لا

١٠٩ - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٤ .

١١٠ - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٨ .

١١١ - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٩ .

١١٢ - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٤ .

يعتمد في حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبي على ، حتى أنه في السفرة الأولى (يعنى ذهابه إلى الشام) قال له (أى للحسام) إني أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت ، وأخى في قلعة الجبل (يقصد العادل الثانى الذى قدمنا ما كان من أمره) ، فرمما استولى على الأمر فيهلكهم ، وذكر لى أشياء شتى مما لا يمكننى أن أسطره " !! وقال له مرة أخرى : " إن حدث موت ، فسلم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " !! هكذا - كما يخبرنا مؤرخنا - أفصح الملك الصالح لوزيره عن مكنون نفسه ، وأنه ليس فى نيته أن يعهد لأحد من بعده بالسلطنة وأنه ترك هذه المهمة الثقيلة للخليفة العباسى - هذا ما يقوله ابن واصل ، وسوف يكون لنا عود إليه ثانية لمناقشته فيما يرويه .

أما الآن فعلىنا أن نشد الرحال إلى القصر السلطانى بالمنصورة بعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كتمت زوجه شجر الدر خبر وفاته إلا عن الأمير فخر الدين مقدم العسكر ، والطواشى جمال الدين محسن ، والطبيب فتح الدين . وكلن أول إجراء أقدمت عليه شجر الدر ، بنص كلمات ابن واصل بالحرف الواحد : " ثم أحضرت (شجر الدر) الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم إن السلطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم (توران شاه) بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدم على العسكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدير المملكة . فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلفوا الأمراء والأجناد وممالك السلطان " ^{١١٣} . ولم يرد هنا ذكر مطلقا للوزير حسام الدين محمد ابن أبي على الهذبانى نائب السلطنة . ولم يكن من بين من تم اختيارهم ليؤمن على كتمان خبر موت الملك الصالح ، رغم ترشيح مؤرخنا له ليكون الأحق بتدير أمور الدولة بعد رحيل السلطان !!

والسؤال الذى ألحفنا فى طرحه سابقا ما زال قائما ، هل يمكن أن تقدم شجر الدر ، زوج السلطان الراحل ، على أن تخص الأمير فخر الدين بخبر وفاة زوجها . واثمانه على هذا السر ، إلا لكونها تعلم عنه من زوجها أنه كان موضع سره ومستشار أمره ؟ بل كيف تقدم على اختياره أتابكا للعسكر ، أى تثبيته فى منصبه الذى كان قد وضعه فيه الصالح ، ثم تعهد إليه إضافة إلى ذلك بتدير المملكة ، إذا لم تكن على يقين من أنه كان موضع ثقة زوجها ، وأنه خليف نجل المسئولية والاضطلاع بها فى ظل هذه الظروف السيئة التى تحيق بالديار المصرية ؟ وشجر الدر مشهود لها من كل المؤرخين المعاصرين بالحكمة وحسن التدبير . ثم إذا كان الأمير فخر الدين يتغنى حقا القفز على عرش السلطنة ، ألم تكن هذه هى الفرصة

^{١١٣} - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٢ .

المناسبة التي جاءته تسعى ، وما كان عليه إلا أن يفترصها ليغدو بين يوم وليلة سلطانا للديار المصرية ، وأن الأمراء والعساكر والأجناد قد "حلفوا" على السمع والطاعة ، وأعلنوا رضائهم على هذا الاختيار ؟ أم تراه كان يؤخر هذا الأمر حتى يقدم الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، فيدخل معه في معركة حول العرش ؟ وهل يعقل هذا ؟ وابن واصل يخبرنا بما تم عليه الأمر في هدوء تام يعود إلى حكمة شجر الدر وخاصة السلطان الراحل ، ودقة الموقف في مصر ، يقول : " واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير الملكة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا ، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بآتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك " ^{١١٤} . ولتأمل معا أن ابن واصل أورد اسم فخر الدين هنا وما عهد إليه من الأمر مرتين في أربعة سطور فقط ، وصدرها بقوله " واتفقوا جميعهم " ، بمعنى أن هذا كان يلقي استحسان الجميع .

هذا الرجل ، الأمير فخر الدين ، وضعت المقادير بين يديه كل مقاليد السلطة في مصر ! فالسلطان الصالح نجم الدين مات وفخر الدين هو مقدم الجيش ، وشجر الدر زوج السلطان الراحل أبقت في منصبه ، وأخذت له العهود والمواثيق بالولاء من الأمراء والعساكر والأجناد ، وعهدت إليه فوق هذا بتدبير أمور المملكة ، ولم يبق -إن شاء- إلا أن يعلن نفسه سلطانا ، ولكنه لم يفعل ! ترى ... هل كان انسحابه من جيزة دمياط إذن لرغبته الجامحة - كما قيل - في اعتلاء عرش السلطنة ، حيث كانت نفسه - كما قيل أيضا - تطمع في هذا الأمر ؟! هذا قول يرفضه أى تفكير منطقي ، بل لعل الدليل العملي القاطع على تبرئة فخر الدين من التهم المنسوبة إليه ، يقدمه لنا ابن واصل نفسه في قوله وهو يرثيه " كان أميرا فاضلا ، عالما متادبا ، جودا سمحا ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان في اخوته مثله ، بل ولا في غير اخوته " ^{١١٥} ، وهذا يعنى أن ابن واصل ، مع كل ما قاله عن طموحه للسلطة وطمعه فيها ، لم يملك إلا أن يجعله أفضل الناس في زمانه ، بحيث لم يكن في اخوته ولا غيرهم من الناس مثله ، ولا بد أن يكون حسام الدين بن أبى على الهذبانى ضمن هؤلاء الغير . أما النويرى فيذكر أن جماعة من الأمراء المماليك الصالحية تنكروا للأمير فخر الدين بن الشيخ ، وعزموا على قتله لدسياسة وصلت إليهم ، فاستدعاهم " وأعلمهم أنه لا طمع له في الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل " ^{١١٦} . ويكمل سبط بن الجوزى

^{١١٤} - المصدر السابق نفسه ص ٢٨١ .

^{١١٥} - المصدر السابق نفسه ص ٢٩٣ .

^{١١٦} - النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٨ .

هذه الصورة بقوله : " وحسد الجند فخر الدين وعزموا على قتله ونهب داره ... وكان المتهم بذلك الخادم محسن (يقصد الطواشى جمال الدين محسن)^{١١٧} وهكذا أضيف إلى قائمة المتربصين به واحد آخر من رجال الدولة . أما ابن كثير^{١١٨} فيقول : " وكان (الأمير فخر الدين) فاضلا دينيا مهيبا، وقورا بالملك، كانت الأمراء تعظمه جدا، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك، حماية لجانب بنى أيوب"، ويضع أبو المحاسن^{١١٩}، اللمسات الأخيرة في هذه الصورة الدالة على الولاء والوفاء من جانب فخر الدين للصالح وبنى أيوب فيقول: "كان عاقلا جوادا ممدحا مدبرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس، ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب... ندب إلى الملك فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه". وهذه العبارة الأخيرة بنصها ذكرها من قبل المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى.

ولا يمكن مطلقا أن تجتمع كل هذه الأقوال في رجل راودته نفسه يوما ما عن عرش السلطنة ، وحدثته بأن يترك واجبه في ميدان المعركة وهو القائد العام ليستولى على السلطنة من ملك يعالج سكرات الموت في مرضه الأليم ! بل لقد ندب إلى الملك فأبى ولو شاء لكان له ما أراد، لكن نفسه المطمئنة ما كانت تنطوى إلا على الوفاء النادر لبنى أيوب ، بحيث لم يكن هناك في زمانه من له بين الناس خصاله ، على حد قول مؤرخنا ابن واصل .

ومن الجدير بالذكر هنا استكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه الآن ، القول إن شجر الدر بعثت إلى القاهرة بما تم الاتفاق عليه في المنصورة ، ليعلن على الجميع ما اتخذ من قرارات في هذا الشأن . يقول ابن واصل : " ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، بأن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ووقع التحليف على النحو المذكور"^{١٢٠} .

ولعل عبارة وردت عند ابن واصل^{١٢١} تجعل من كل ما قاله قبلا عن إثارة الصالح نجم الدين أيوب لوزيره حسام الدين ، يذهب مع الريح ، يقول : " وبولغ في كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير في الدولة أو صغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على ، نائب السلطنة بالديار المصرية (!!) وكانت الكتب ترد من المعسكر (المنصورة) إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان ... وكان حسام الدين محمد بن أبى

^{١١٧} - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٧٦ .

^{١١٨} - البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٨ .

^{١١٩} - النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ .

^{١٢٠} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٢ .

^{١٢١} - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٢ .

على يظن أن السلطان حي ، وأن الخط الوارد إليه في الكتب خطه " (١١) ، ولو كان الأمر كما يقول ابن واصل متمنيا ، لعُهد إلى حسام الدين في ذلك المرسوم بتدبير أمور الملك لكونه الأقرب إلى ذلك باعتباره نائب السلطنة . والغريب في الأمر أن مؤرخنا يقول في الفقرة التالية مباشرة " إن السلطان ما كان يثق في الأمير فخر الدين بالثقة التي توجب أن يفوض إليه الأمور من بعده " !! فكيف يمكن قبول هذا التضارب في أسطر متتاليات؟! ومرة أخرى لو كان الأمر كما يقول ابن واصل ، لانتقلت عدوى عدم الثقة هذه من السلطان قبل موته إلى زوجه شجر الدر ، ولتم إقصاء فخر الدين عن موقعه ، هذا إذا افترضنا أصلا عجز السلطان عن القيام بذلك .

وقد ظلت المراسلات تدور بين الأمير فخر الدين أتابك العسكر ومدير الأمور في الدولة وبين حسام الدين نائب السلطنة في القاهرة ، في ظل وإطار المودة الظاهرة والمجاملة الرقيقة من كل منهما تجاه صاحبه ، مثل ، من " فخر الدين الخادم يوسف " ومن " حسام الدين المملوك أبو علي بن أبي علي ، وبينهما مجاملات في الظاهر "١٢٢ .

وملأ ابن واصل ، والمؤرخون من بعده نقلا عنه ، الدنيا ضجيجا بما فعله الأمير فخر الدين طيلة خمسة وسبعين يوما قام خلالها بتدبير الأمور في السلطنة ، فيقول ابن واصل: "... وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال بالأمر، إن تعذر وصول الملك المعظم، وصار لفخر الدين موكب عظيم بالمتصورة ، والأمراء كلهم في خدمته ، ويترجلون له كلهم عند التزول ويحضرون لسماطه "١٢٣ . ونتساءل ، ما الذي كان يتوقعه ابن واصل من رجل عهد إليه رسميا بـ "التقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة " ؟ أليس كل ما "يشنع" به ابن واصل هنا على الأمير فخر الدين هو ما تتطلبه هبة هذه المناصب التي يتولاها وتقالدها ؟ وهل كان من المفروض أن يقبع الرجل في مقر قيادته بمعسكر المنصورة محتجبا عن الأمراء والعساكر والناس؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا الاتهام الذي لا يخلو من طرافة ، بل امتد ليشمل في الإطار نفسه أن فخر الدين "شرع في إطلاق المحبوسين ، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقالهم " ، وكان من بين هؤلاء جمال الدين بن مطروح ، الذي كان نائب السلطنة في دمشق ، والشاعر بهاء الدين زهير الذي رده إلى منصبه ، يعنى ديوان الإنشاء ، ولسنا في حاجة إلى القول أن الأمور بعد وفاة الصالح ، وإن كان خير ذلك

١٢٢ - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٧ .

١٢٣ المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ وراجع حاشية ٥٢ .

ما زال سرا ، كانت تقتضى الاستعانة برجال يكتون لمدير المملكة الاحترام ، ويمكن الاعتماد عليهم في تصريف الأمور ، خاصة إذا علمنا أن الأسباب التي من أجلها استغنى الملك الصالح عن خدمات هذين الرجلين ، ابن مطروح والبهاء زهير ، لم تكن شكا في ولائهما ، وإلا كان مصيرهما غير ما آل إليه^{١٢٤} .

واحتوى هذا الجزء من الاتهام نقاطا أخرى مفادها أن الأمير فخر الدين " أخذ في التصرف في الأموال ، فأطلق منها جملة ، وخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام"^{١٢٥} ، ولا نملك تعليقا على جملة ما احتواه هذا الاتهام الأخير إلا أن نسوق هنا نص ما قاله سبط بن الجوزي^{١٢٦} في ذلك : " ... ولما وصل تورانشاه (إلى مصر) أخذ ممالك فخر الدين الصغار وبعض قماشه بنصف القيمة ، ولم يعطهم درهما ولا عوض الورثة شيئا ، وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار . وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات ، يقول ، أطلق الكتان والسكر وأنفق الأموال ، فأيش ترك لي أنا (!!) " ، وهكذا لم يكن فعل فخر الدين هنا إلا حسنات حسده عليها تورانشاه ، وطفحت غيرته الشديدة على لسانه ! ويضيف ابن الجوزي معلقا في سخرية لاذعة : " فكان حفظ فخر الدين للملك وسياسته للعسكر ومقاتلته للأعداء من أكبر ذنوبه !!

^{١٢٤} - عن سبب غضب الملك الصالح على البهاء زهير راجع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ . ومن المعروف أن بهاء الدين زهير كان مولعا بحب مصر ونيلها ، لا يعدلها عنده أى شئ آخر . حتى قيل فيه إنه " مصرى المنشأ ، مصرى الروح ، مصرى العاطفة " . وهو الذى أنشأ الرسالة التى بعث بها الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك لويس التاسع عند قدومه في أول الأمر إلى الديار المصرية ، والتي أتينا على ذكر منها من قبل . أما الشاعر والسياسي جمال الدين يحيى بن مطروح فقد قام بخدمات جليلة من الناحيتين السياسية والعسكرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، بجدها مبسوطة عند تحريرى في السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٤ - ٢٩٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، حتى أصبح من أرباب السيوف والقلم ، ولم يذكر تحريرى شيئا أكثر من قوله . وفي سنة ٦٤٦هـ " عزل صاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق " دون أن يورد أسباب ذلك ، وكنا نعلم من قصيدة جميلة قالها ابن مطروح مستعظما الصالح ، أن ما جرى له كان نتيجة لسعى الوشاة والحاقدين جاء فيها :

من ملغ عني المليك الأروعا	عن عبده يحيى مقالا مقنعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح	مثلى شهدت بصدق ذلك المدعى
ولطالما جريتني فوجدتني	أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
فعلام بعد الاصطفاء نبتني	نبد التواة بقول وإنش قد سعى
وسمعت في حقى كلاء معاشر	أقصى مناهم أن أيت مضيعا

وقد نظم ابن مطروح قصيدة طريفة عندما ترددت أنباء اعتزام لويس التاسع العودة إلى مصر في حملة جديدة . بعد هزيمته الساحقة في الحملة الصليبية السابعة التي قاده ، وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وحضره فيها من سوء نصير الذى ينتظره إذا رام في ذلك جاء فيها :

قل للفرنسيس (الملك) إننا جته	مقال صدق عن قول فصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
وقل لهم إن أضمرنا عودة	لأخذ نار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حنا	والقيد باق والطواشى صبيح

عن حياة وأدب بهاء الدين وجمال الدين يحيى بن مطروح ، راجع ، محمد زعلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٥١٧ - ٥٤٠ .

^{١٢٥} - ابن واصل ، مفرج الكرب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

^{١٢٦} - مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٧٧ .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أيضا أن الأمير حسام الدين الهذباتي ظل على اعتقاده أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما زال حيا ، طالما كانت المكاتبات ترد إلى القاهرة من المنصورة ممهورة بتوقيع السلطان، ولم يفق من هذا "الوهم" إذا صح هذا التعبير إلا على يد مؤرخنا جمال الدين ابن واصل الذي اكتشف بفراسته في التمييز بين الخطوط ومعرفتها، وأقسم بـ "الله العظيم" على صحة ما يقول من مضاهاة الرسائل الواردة من المنصورة إلى نائب السلطنة بالقاهرة ببعضها، "فتبين مخالفة الخط للخط"، ثم يقول ابن واصل، وهذا هو بيت القصيد، "فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته، وأخذ في التبيين عنه، والكشف من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر، فتحقق موته. وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك، ويستبد به لنفسه، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان على أهمية جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"^{١٢٧}.

هكذا في لحظة من لحظات الصدق مع النفس، كشف مؤرخنا عن حقيقة مكنون نفس صديقه الأثير الأمير حسام الدين، وما يعتمل في صدره تجاه الأمير فخر الدين مما دفع نائب السلطنة إلى "الخوف الشديد" من أن "يستبد" ابن شيخ الشيوخ بالأمر دونه، فيصبح من بعد نسيا منسيا! ويعلق المقرئى^{١٢٨} بذكاء على ما كان من حسام الدين بقوله "فاحتاط لنفسه".

وهذا ينقلنا تلقائيا إلى النقطة التالية حتى تكتمل الصورة وضوحا ، نعتى جماعة القصاد الذى تم إرسالهم من معسكر المنصورة لإحضار الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح من حصن كيفا في ديار بكر ، ويصر ابن واصل على أن يؤكد في كل فقرة هنا مدى طمع الأمير فخر الدين في القفز على عرش السلطنة ، والسعى نحو ذلك حثيثا ، فيظهره بمظهر الكاره لهذا الإجراء حين يقول "وما أمكن فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك"^{١٢٩}، مع إنا نعلم من ابن الجوزى^{١٣٠} وهو معاصر لتلك الأحداث ، شأن ابن واصل ، وكذلك يخبرنا ابن أيك^{١٣١} والمقرئى^{١٣٢} أن فخر الدين بعث بالقصاد إلى تورانشاه يستحثه على الحضور لتولى زمام الأمور . وكان على رأس من بعث بهم القصر السلطاني في المنصورة الأمير فارس الدين أقطاي ، ولم يكن حسام الدين بالذى ينتظر الغير يقررون له المصير، ومن

^{١٢٧} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وقارن ما جاء هذا الخصوص عند المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص ٣٣٩ .

^{١٢٨} - المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص ٣٤٤ .

^{١٢٩} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

^{١٣٠} - مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٧٧٦ .

^{١٣١} - الدر المطلوب ، ص ٣٧٣ .

^{١٣٢} - السلوك ، ج١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

ثم فإنه عملاً بمبدأ " الحيلة والحذر " كما أشار المقرئى ، بعث هو الآخر من لدنه رسولا من مماليكه الخواص يعرف بـ " زين الدين العاشق " ، إلى تورانشاه يرجوه سرعة الحضور خوفاً من أن تخرج البلاد من يده^{١٣٣} ، ولم يكن هذا الايحاء الأخير إلا لينسحب على الأمير فخر الدين ، وفي الوقت نفسه قام حسام الدين بالقبض على الملك المغيث ان الملك العادل الثانى ، وسجنه فى القلعة ، " وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه ، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه ، مخافة أن فخر الدين ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ويديرها باسمه (أى المغيث) الذى كان عمره آنذاك أربعة عشر عاماً^{١٣٤} ، ويضيف ابن واصل صراحة أن رسول حسام الدين وصل إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظم، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له: "إن تأخرت فات الأمر، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل"^{١٣٥}. ولعل هذا يعيد إلى الأذهان ما ذكره مؤرخنا سابقاً عن الخوف الذى تملك حسام الدين خشية أن يقفز فخر الدين إلى عرش السلطنة بعد أن يتقن الحسام من موت الملك الصالح.

وحتى تكتمل هذه الصورة تماماً، نواصل رحلتنا مع حديث ابن واصل حتى ندرك حقيقة الاتهامات التى كالتها للأمير فخر الدين ، وموقف الأمير الوزير حسام الدين ، الذى كان مؤرخنا يرشحه ليكون خلفاً للملك الصالح . يقول مؤرخنا : " لما تواترت الأخبار بقرب وصول الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية ، خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه ، وخرجت أنا فى صحبته ، (وهذا يوضح مدى العلاقة التى كانت تربط بين حسام الدين وابن واصل ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ومحاولة ابن واصل فى الوقت نفسه التعرف إلى تورانشاه) ، فالتقىناه بالصالحية ... وخلع الملك المعظم بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفاً محلى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرساً من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ، فلبس الأمير (حسام الدين) الخلعة وقبل حافر الفرس ، وركبه"^{١٣٦}.

وهكذا " احتاط حسام الدين لنفسه " كما يقول المقرئى ، وأفلحت سعايته تماماً فى إيغار صدر تورانشاه على فخر الدين قبل أن تطأ قدم المعظم أرض مصر ، ولم ينقذ فخر الدين من بطش تورانشاه وأعوانه وانتقامهم جميعاً منه إلا استشهاد ابن شيخ الشيوخ قبل

^{١٣٣} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٦ .

^{١٣٤} - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

^{١٣٥} - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .

^{١٣٦} - المصدر السابق نفسه ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

مجيء المعظم. وكان الذي ساعد حسام الدين على أن ينال الحظوة لدى تورانشاه ، ويحصل على خلعه وهداياه كما رأينا ، إلى جانب اقناعه بسرعة الحضور إلى مصر قبل أن تفلت الأمور من بين يديه بزعمه ، أنه كانت تربط بين الرجلين ، تورانشاه وحسام الدين علاقات قديمة منذ أنعم الملك الصالح على ولده هذا بحصن كيفا ، وأمر حسام الدين أن يقيم معه أتايكا له^{١٣٧} . ومن ثم لم يجد نائب السلطنة في القاهرة صعوبة في استغلال هذه العلاقة القديمة لمصلحته الخاصة و "الاحتياط لنفسه" ، ولو أن الأمير فخر الدين كان يضرر السوء حقا للمعظم تورانشاه ، لأوعز إلى أحد من ملوك بني أيوب في الشام ، أو لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، بصفة خاصة ، وكلهم كان يمتلئ بالكراهية الشديدة لتورانشاه لطيشه وسفه وتكبره ، ولتم القبض عليه أثناء قدومه من كيفا في أعالي العراق إلى مصر ، ولكن فخر الدين لم تحدثه نفسه بمثل ذلك ، لأنه كما قال ، " كان يحفظ الملك لابن سيده " .

والآن .. ترى من الذي يسعى إلى السلطة حثيثا ، وإلى أن يظل دوما في دائرة الضوء ؟ الأمير فخر الدين الذي ظل في المعسكر السلطاني في أشموم طناح ثم المنصورة ، يعد العدة مع الصالح أيوب أولا ، ثم متحملا المسؤولية كاملة ، أتايكا للعسكر ومديرا للملكة ، في مواجهة الغزو الصليبي ، أم الأمير حسام الدين الذي كان يملكه الخوف من أن ينفرد فخر الدين بالسلطنة - على حد تعبير صديقه ابن واصل ، حتى أنه بذل كل ما في وسعه لحث المعظم ليسرع بالعودة إلى مصر ، موغرا صدره على فخر الدين ، ثم كان في أول مستقبليه عند عودته ، فكان من أمر الهدايا والخلع التي خلع عليه ما كان على النحو الذي رأينا . ولعل هذه الصورة تظهر أكثر وضوحا إذا عدنا إلى معسكر المنصورة لترى الأمير فخر الدين يؤدي واجبه العسكري المنوط به حتى آخر لحظات عمره . وأى شيء أكبر شهادة مما يقوله مخلصه ابن واصل نفسه : " وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل في الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب (الأمير فخر الدين) دهشا غير مستعد ولا متحفظ (دون أن يتدرع) ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ... وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضي عنه "^{١٣٨} ، ويضمن ابن واصل حديثه هذا كثيرا من الصفات النبيلة التي يخلعها على فخر الدين ، والتي جئنا على ذكرها من قبل وإن كان يغتسل في الحمام " ، فيبدو مشغولا بنفسه عن جيشه ، وهذا أمر يفنيه مؤرخ معاصر آخر وهو سبط

^{١٣٧} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٨٩ - ٢٠٩ .

^{١٣٨} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٩٣ ، ويورد ابن أيك العبارات نفسها ، الدر المطلب ، ص ٣٧٦ وكذا المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .

بن الجوزى^{١٢٩} حيث يقول : " ... فركب فخر الدين وقت السحر ليكشف الخير ، وأنفذ إلى الحلقة (جند الحلقة) والأمراء ليركبوا ، وساق جريدة معه بعض مماليكه وأجناده ، فالتقى طلب (كتيبة) الداوية مصادفة فحملوا عليه ، فهرب من كان معه ، وثبت هو ، فطعنوه في جنبه ، فوقع عن فرسه ، فضربوه ضربتين في وجهه طولا وعرضا بالسيف وقتلوه .. وكذا له من العمر يوم مات ست وستون سنة ، رحمه الله تعالى " . وهكذا جاءت نهاية فخر الدين فوق جواده في ميدان المعركة .

وحتى تتضح الصورة تماما ، ونقف على كل ما فعله الأمير فخر الدين ، باعتباره قائدا عاما للجيش ، قبل أن يلقي الشهادة في جديلة ، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا ، نعني منذ تلك اللحظة التي قرر فيها الصليبيون الخروج من دمياط والزحف جنوبا ابتغاء القاهرة ، وقد بدأ هذا الزحف فعلا في يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ ، ولم يكـد يمضى على ذلك يومان حتى توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وغدا فخر الدين صاحب السلطنة الفعلية في الديار المصرية ، ولكن الرجل - كما علمنا - أثر أن يجعل شغله شاغل مدافعة هذه القوات الغازية ، وتعطيل حركتها ، في محاولات مستميتة لإخراجها من مصر ، ومن هنا كانت إقامته وسط جنوده في معسكر " جديلة " ، الموقع المتقدم لحماية المنصورة .

وفي الرابع والعشرين من شعبان ٦٤٧هـ / الثاني من ديسمبر ١٢٤٩م دخل الجيش الصليبي مدينة فارسكور ، الواقعة على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا جنوب دمياط ، وهذا يعني أنها قطعت هذه المسافة البسيطة في ثلاثة عشر يوما ، ولعل المجارى المائية العديدة التي تمتلئ بها المنطقة كانت السبب في بقاء حركة الزحف الصليبي ، حيث يخبرنا " جوانفيل " أنه كان عليهم أن يتوقفوا كثيرا ليرد دم بعض هذه المجارى المائية .

وهنا وحتى نهاية عمره ، يظهر جهد الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، تخطيطا وتنفيذا في الجانب العسكرى ؛ فقد تم إعداد كمين من قوة الفرسان جنوب فارسكور ، ولما كانت القوات الصليبية الزاحفة تفوقها عددا ، فقد أبرق قائدها إلى الأمير فخر الدين يخبره بسقوط فارسكور ، وعلى الفور كتب القائد العام بذلك إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة في القاهرة ، يوقفه على هذه الأحداث ، ويطلب إليه الدعوة إلى النفير العام ، أو إعلان التعبئة العامة .

^{١٢٩} - مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٧٦ - ٧٧٧ ، ويورد عباراته نفسها النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٢٩ .

وفي خلال العشرين يوما التالية (٢٤ شعبان ٦٤٧هـ - ١٤ رمضان / ٢ ديسمبر إلى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩) وصل الجيش الصليبي إلى رأس جزيرة دمياط ، ليصبح بذلك في مقابلة معسكر جديلة ، لا يفصله عنه والمنصورة أيضا إلا بحر أشموم ، وذلك بعد أن احتل في طريقه بعد فارسكور كلا من شرمساح والبرمون ، يظاھرہ في ذلك سفن أسطوله المتنوعة والعديدة التي وقفت في النيل بإزاء المعسكر الصليبي .

وشرع لويس التاسع على الفور بعد العدة لعبور بحر أشموم أو البحر الصغير لدخول المعركة الحاسمة، ولم يكن هذا بالأمر اليسير، فطبوغرافية بحر أشموم كانت تؤكد عمق مجراه، وشدة الانحدار في جانبيه، وسرعة تياره، وهذه كلها عوامل كان لابد من وضعها في الحسبان إذا أراد الملك الفرنسي تأمين عبور قواته إلى الضفة الأخرى، فأصدر أوامره ببناء الجسر على بحر أشموم هذا، وزيادة في تأمين هؤلاء أمر ببناء ساترين أفقيين أو سقيفتين تظللان هؤلاء العمال أثناء عملهم من وابل السهام أو المنجنيق الذي لابد أن يستخدمه المسلمون لوقف إقامة هذا الجسر، وعهد إلى جوسلين أمير كورنو Comaut بالأشراف على آلات رمى المنجنيق التي أعدوها والتي بلغ عددها ثمانية عشر منجنيقا، كما أحاط معسكره بسور وخنق لحمايته من الناحية البرية وجعل من أحد إخوته واحدا يتولى نوبة الحراسة نهارا، بينما قامت مجموعة من الفرسان ، من بينهم المؤرخ جوانفيل الذي تقف منه على كل هذه المعلومات، بنوبة الحراسة الليلية. وهذا كله يوضح مدى الإصرار الذي كان لدى الصليبيين من أجل سرعة إنجاز هذا العمل، وبالتالي اللهفة على دخول المعركة الفاصلة منتهزين فرصة وفاة الملك الصالح، وما دار بخلداهم عما يمكن أن يتركه ذلك في نفوس المصريين .

غير أن الجيش المصري بوحداته المختلفة لم يتوقف عن إزعاج الصليبيين بمجمعاتهم الخاطفة المتلاحقة ؛ ففي اليوم الذي وصل فيه الجيش الصليبي إلى رأس جزيرة دمياط ، هاجمت فرقة استطلاعية من الفرسان الجنود الصليبيين قبل أن ينفذوا عن أنفسهم غبار الرحلة التي قطعوها ، مع أنه لم يقع بهذه القوات الغازية أضرار مادية ، إلا أن هذا الهجوم ترك أثرا سيئا من الناحية النفسية ، حيث انطبع في نفوسهم أن المسألة ليست بالسهولة التي يتصورونها ولم يكد يمضي على ذلك أربعة أيام حتى قامت خيالة من الجيش المصري بهجوم آخر في ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م (١٨ رمضان ٦٤٧هـ) ، أي يوم عيد الميلاد عند المسيحيين اللاتين ، الصليبيين ، وفتكوا بجماعة من " التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين " ، على حد تعبير "جوانفيل". وتكررت مثل هذه الحوادث من أعمال "الإبرار" التي تقع خلف خطوط العدو، وتسبب له ارتباكا كبيرا، منها مثلا ما حدث في أول أيام عيد

الفطر ، أول شوال ٦٤٧هـ / السابع من يناير ١٢٥٠م ، وبعد ذلك بأسبوعين فقط قامت القوات المصرية بمهاجمة المعسكر الصليبي ، ودارت بينهما معركة حامية ، فقد فيها كل من الجانبين عددا من رجاله وشاركت البحرية المصرية أيضا في هذه المحطات ، ففي السابع من شوال ٦٤٧هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠م استولى رجال الأسطول المصرى على سفينة ضخمة من نوع " الشينى " الكبيرة ، وعليها مائتا جندي صليبي وقائدهم ، وفي يوم الخميس لثمان بقين من شوال ٦٤٧هـ ، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة في البحر ، واستظهر عليها المسلمون استظهارا عظيما بينا ، على حد قول ابن واصل .

أما فيما يتعلق ببناء الجسر الذى حاول الصليبيون مده على بحر أشموم ليعبروا إليه حيث معسكر جديدة ثم المنصورة ، فقد قامت الإدارة الهندسية في الجيش المصرى بالتعاون مع رجال المدفعية ، المنجنيق ، بإفساد كل الجهود التى قام بها الصليبيون في هذا السيل ، فقد عمد المهندسون إلى حفر عدد كبير من الحفر المتلاصقة والعميقة على الضفة التى يسيطر عليها المصريون ، بحيث تغمرها المياه فى المجرى ، فيزداد هذا المجرى اتساعا أمام الصليبيين ، ومن ثم بدا الأمر كما لو كان بحر أشموم يتسع كلما زاده الصليبيون ردما !! وقد عبر جوانفيل عن ذلك بكل الحسرة قائلا : " ورأى المسلمون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم ، لاتكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله ، وذلك أننا كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا ، كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها " ، ويضيف جوانفيل قوله : " لقد أخطأ الملك وجميع باروناته فى أثناء بنائهم لهذا الجسر " .

هذا ما كان من أمر المهندسين والعمال المصريين فى الجيش ، أما ما كان من أمر رجال المدفعية فاهم اصلوا الصليبيين العاملين فى هذا الجسر وكذا القائمين على حراستهم ، نارا حامية ، صبوها عليهم من منجنيقاتهم التى انتشرت على الضفة التى يسيطرون عليها ، ورغم أن منجنيقات العدو الثمانية عشرة التى نصبوها فى ناحيتهم قامت بقذف المعسكر المصرى ، إلا أن تأثيرها لم يكن يدنو مطلقا مما أوقعته المنجنيقات المصرية بالصليبيين من خسائر ، ولم تفلح السقيفة أو الأبراج التى أقاموها لحماية العاملين فى هذا الجسر ، ولعل أدق من يحدثنا عما فعلته المنجنيقات المصرية بالصليبيين هو جوانفيل نفسه ، لذا فإننا نترك له المجال هنا لنجده يقول : " ... وكانت النار الإغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون بمرميل كبير من القار ، ذات ذنب بقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كسدوى الرعد ،

وكأنها طائر في الجو ، تشع بنور يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شيء كأنه في وضوح النار. وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات في تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة . وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس في فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا .. " أيها الرب السيد الحنان احفظ لي شعبي " وفي ذات مرة سقطت القذائف التي رمونا بها على المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطئ ، فنظرت فإذا بفارس يدعى " أفليجوى " قادم نحوى ، وقال لي يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق جميعا ، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيرا من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهب كان يستهدف برجنا".

وبمضى جوانفيل قائلا: "... وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين في تحطيم الأبراج وأخرج المسلمون آلاهم في وضوح النهار ، بينما كانوا لا يجرؤون من قبل على استعمالها إلا ليلا، وأخذوا يواصلون رمينا بالنار الإغريقية . واقتربوا بآلاهم حتى أصبحوا على كتب من الجسر الذى يعمل الجيش في تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب إلى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى إلى احتراق البرجين . واشتد حزن ملك صقلية (يقصد آخر لويس التاسع ، شارل كونت أنجو ، الذى أصبح فيما بعد ملكا على صقلية من قبل البابوية) حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقي بنفسه إلى حيث تشتعل النيران عسى أن يطفئها ، وكان في أشد الغيظ ... إذ لو استمروا فى الرمي حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة " .

أليس هذا بكاف على أن يقام دليلا على صدق الأمير فخر الدين ، وإخلاصه ، وجهده الكبير الذى بذله لتنظيم القوات المصرية حتى أضحت على هذا الوضع الذى وصفه مؤرخ صليبي كان شاهد عيان على تلك الأحداث ، ويزيد جوانفيل هذا الجهد الذى بذله فخر الدين وضوحا حين يقول إن لويس أمر بإنشاء برج جديد عوضا عن البرجين المحترقين، وقدر ثمن الخشب الذى استخدم فى تشييده بعشرة آلاف دينار أو يزيد ، فلما تم بناؤه عهد إلى أخيه شارل كونت أنجو بحسن استخدامه حتى يعوض خسارة البرجين السابقين ، فتقدم بالبرج إلى حيث كان البرجان المحترقان، " فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم وصفوا آلاهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه ، أحضروا مقاليهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله " .

هكذا نجد أن الأمير فخر الدين القائد العام للجيش المصرى ، مقدم العسكر ومدبر أمر المملكة الآن ، لم يدخر وسعا فى الإعداد للمعركة الحاسمة المتوقعة مع الصليبيين واتباع كل الوسائل الممكنة حتى لا يدع للصليبيين فرصة ينعمون بها أو فيها بالراحة داخل معسكرهم فى رأس جزيرة دمياط ، ففعلت القوات الخاصة التى دفع بها خلف خطوط العدو فعلها ، وقامت البحرية المصرية بدورها ، وأدى رجال الهندسة العسكرية واجبههم على خير وجه ، ونصب ستة عشر منجنيقا فى مواجهة الثمانى عشرة التى أقامها الصليبيون ، فأصلت الآلات المصرية جنود لويس العاملين فى إقامة الجسر حمم نيرانها ، وأحرقت كل دفاعاتهم التى أعدوها لحماية أنفسهم وعبورهم ببحر أشموم ، وتملكهم اليأس من إتمام هذا العمل . وكتب جوانفيل يقول : " لما رأى الملك ما جرى استدعى باروناتا للمشاورة ، فأجتمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه ، نظرا لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدرا يكافئ ما يستطيع المسلمون حفره من ناحيتهم " . ويكفى أيضا فى صف فخر الدين أن نسجل عبارات رئيس نوبة الحراسة الليلية للبرجين الصليبيين ، عندما عاين ما يفعله الجيش المصرى بقيادة الأمير فخر الدين من معسكره فى جديدة ، قال : " أيها السادة ، إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن ، ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا (وكان ذلك فى أول الأمر قبل احتراق البرجين) ، وبقينا حيث نحن ، فلا بد أننا هالكون بالحريق ، وإذا تركنا أماكن دفاعنا هذه ، التى وكل إلينا حراستها ، فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا هذا البلاء سوى الرب ، لذا فإنى أنصحكم أن نجثوا على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو "مخلصنا" أن يقينا شر هذا البلاء".

ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين قطعوا المسافة من دمياط إلى رأس جزيرة دمياط فى ثلاثين يوما (٢٠ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر) ، بينما أمضوا خمسين يوما فى مكان نزولهم (من ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ - ٨ فبراير ١٢٥٠) لا يستطيعون عبور ببحر أشموم ، ولا شك أن الجهود التى بذلها فخر الدين على النحو الذى رأينا كان لها أكبر الأثر فى هذا السبيل ، بل لقد أثار عنه - فيما رواه جوانفيل - القول بأنه أقسم على مهاجمة المعسكر الصليبي وتحقيق النصر وتناول طعامه فى فسطاط الملك الفرنسى ، يوم عيد ميلاد القديس سباستيان St. Sebastian.

غير أن شيئا نكرا جرى حدوثه أضاع سدى كل الجهود التى بذلها الجيش المصرى وقائدها لأمير فخر الدين ، وذلك أن واحدا احتوت نفسه على الخيانة ، تطوع ليدل الصليبيين على مخاضة يعبرون من خلالها ببحر أشموم ، ليأخذوا المسلمين على غرة مقابل خمسمائة دينار

يدفعونها له مقدما!! وتقع هذه المخاضة عند قرية سلمون التي تبعد عن مدينة المنصورة الحالية بحوالى ستة كيلو مترات. ولم يتردد الملك لويس التاسع لحظة واحدة فى قبول العرض ، رغم أن المخاضة لم تصلح فقط إلا لعبور الفرسان على ظهور خيولهم ، بينما يستحيل على المشاة اجتيازها ، ولكنه اهتبل هذه الفرصة التي جاءت تسعى على غير موعد، ولا مانع من أن يتحقق عن طريق الخيانة ما فشل الصليبيون فى إنجازه خلال خمسين يوما من المناوشات اصطلا فيها بنيران الجيش المصرى .

هكذا لم يكن هجوم الصليبيين الذى تم على هذا النحو المفاجئ ، ولا خروج فخر الدين دهبشا غير مستعد ، إذا أخذنا برواية ابن واصل، عن تقصير من جانب مقدم العسكر، أو تراخ فى أداء واجباته العسكرية، بل كانت نتيجة لخيانة " بعض من لا دين لهم " على حد قول مؤرخنا المقرئى^{١٤٠}، ومن ثم فإنه لما كان الأمير فخر الدين رجلا " على الهمة " فلم يكن يتوقع أن تأتية الكارثة من الداخل، نعى الخيانة التي تسببت فى عبور الصليبيين لبحر أشمون عند مخاضة سلمون ، وهجومهم المباغت على المنصورة^{١٤١}، ومهما يكن من أمر، فالذى يعيننا أن فخر الدين ظل حتى اللحظة الأخيرة، وقد بلغ العام السادس والستين من عمره ، مقاتلا فى قلب ميدان المعركة ، وظل ثابتا طلبا للشهادة ، بينما فر عنه طلبا للنجاة كل من حوله وخاصة مماليكه الذين تركوه وانصرفوا إلى داره فنهبوا كل محتوياتها . ولا نملك إلا هذا التعليق الذى يجمع بين السخرية والأسى لعدم الوفاء ، والذى جرى به قلم سبط بن الجوزى^{١٤٢}، قال: " . . . وخربت داره كأنها لم تكن بالأمس ، خربها الأمراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سبعين أمير كلنوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة، وما نفعه تربية مماليكه وإحسانه إليهم "!!

والآن وبعد عرض القضية من جميع جوانبها على هذا النحو آن لنا أن نقدم شهادة الحق

^{١٤٠} الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

^{١٤١} لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع كتابنا " الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين " ، تحت الطبع .

^{١٤٢} مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٧٧ .

على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان بعيدا كل البعد عن كل ما تضمنته صحيفة الدعوى المقامة ضده من اتهامات ساقها المؤرخين القدامى والمحدثين، وهذه يدلى به السلطان نفسه. فابن واصل ملأ الدنيا في كتابة ضحيجا مؤكدا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو كان موليا أحدا من بعده ، فإنه لم يكن ليعدل أبدا عن وزيره حسام الدين محمد بن أبي على الهذبانى ، لأنه كان ساعده الأيمن فى كل أموره ، وموضع ثقته المطلقة ، ولأنه لم يكن يثق كل الثقة فى الأمير فخر الدين بحيث يجعله يقدم على اختياره خلفا له ، إضافة إلى كراهية الصالح لأبنة المعظم تورانشاه . ومع أن المقرئى يتفق مع ابن واصل فى كثير مما يقوله عن الأمير فخر الدين حتى يكاد يورد فى بعض المواضع عباراته نفسها ، إلا أنه هنا يخرج عن هذه القاعدة ويؤكد أن الملك الصالح أوصى قبل موته أن يخلفه ابنه تورانشاه ، يقول المقرئى^{١٤٤} " ما نصه : " فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، وحلف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى ، ومن يثق به " وعبارات المقرئى تفيد أمرين أولهما أن الصالح أوصى لأبنة تورانشاه قبل موته ، وثانيهما أنه صدق على ذلك بأخبار مقدم عسكره فخر الدين ، وطواشيه محسن ، ومن يثق به ، ولم يكن من بينهم بالطبع حسام الدين ، وإلا ذكره المقرئى ولم يكن ليغفل عنه من قبل صديقه ابن واصل . أما التعبير الأخير الذى ورد فى عبارة المقرئى ، ونعنى به قوله " ومن يثق به " ، فإنه يضيف بعدا جديدا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الأمير فخر الدين كان على رأس هؤلاء الذين يثق بهم الملك الصالح ، بحيث أخذ عليه موثقا وعهدا أن يحفظ عرش الديار المصرية حتى يؤوب تورانشاه . وهل فعل فخر الدين غير ذلك ؟

وبذكاء تميز به المقرئى المؤرخ ، أشار إلى حديث ابن واصل فى هذا الشأن ، ولم يأت به خيرا مؤكدا كما جرت عباراته السابقة عن وصية الصالح لأبنة ، بل أورده ضمن دائرة الأقوال التى لا دليل عليها ، ومن ثم فإنه جاء بحديث ابن واصل وقدمه بما يفيد عدم موافقته عليه ، وهذا نص المقرئى ، " وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين ابن أبي على : إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه " ^{١٤٥} . وهذا بنصه قول ابن واصل .

^{١٤٤} - السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ ، ويقول ابن أليك ، الدر المطلب ص ٣٧٣ ، " قام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وجمع الأمراء ، وقال : " إن السلطان رسم أن تخلفوا لولده عياث الدين تورانشاه " ، وقارن الحبللى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، ص ٣٤٠ .

^{١٤٥} - المقرئى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٤٢ .

أما الشهادة التي يدلى بها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وحجبتها إلى آخر جلسات المحاكمة لتكون الحجة الدامغة ضد كل من أقام فخر الدين بن الشيخ في شرفه العسكري ووطنيته ، فهي عبارة عن الوصية التي كتبها الصالح لابنه تورانشاه ، والتي يعهد فيها إليه بالملك ، ويضمنها كل خبرته وخلاصة تجاربه وصادق نصحه ، ليكون هذا كله دستورا لـ "الولد" في ممارسة مهام منصبه^{١٤٦} . وفي الوقت نفسه جاءت بيانا ناصعا ودليلا صادقا على تبرئة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من كل ما نسب إليه . وما علينا إلا أن نقرأ معا أمام محكمة التاريخ بعضا مما جرى به قلم السلطان .

يقول الصالح : " ... والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندي من أقدم سواه ، فأكرمه واحترمه كما تحترمني ، واجعله عندك كالوالد ، واسمع قوله ورأيه ، ولا تخالفه ، واجعل له من العدة مائتي فارس " . وهذا في حد ذاته اعتراف صريح من الملك الصالح بنجم الدين أيوب بأنه ليس عنده في دولته من يحتل المقام الأول بعده مباشرة إلا الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهذا ينفي تماما ما يردده ابن واصل من القول بأن " السلطان الملك الصالح لا يعتمد في حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبي علي " ^{١٤٧} . وفي كلمات الصالح هذه أمر لولده ب ستة أمور واجبة التنفيذ ، تخص الأمير فخر الدين ، إعلاء قدره وتكريمه ، واحترامه بما يليق بمكانته ، وإنزاله منزلة الوالد ، والتزول عند كل أقواله وآرائه ، وعدم مخالفة مشورته ونصحه ، وتخصيص مائتي فارس له لرفعة منزلته .

ويضيف الصالح قائلا لولده وهو يعظه " اتفق أنت والأخ فخر الدين ... واحفظ يا ولدي ما أقوله لك (وكان قد ذكر له جملة نصائح تخص مختلف أمور الدولة سياسية ودبلوماسية وعسكرية) ، فهذا جميعه ما عرفني به إلا الآخر فخر الدين " ، ويختتم وصيته بقوله " فهذه وصيتي إليك ، فأعمل بما فيها ولا تخالف وصيتي ، وكل يوم طالعها ، وقف^{١٤٨} عليها ، ولا تعمل شيئا^{١٤٩} دون أن تشاور الآخر فخر الدين ، والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى " .

والوصية تمتلئ في مواضع متعددة بضرورة الأخذ برأى " الأخ فخر الدين " في أمور كذا وكذا ، مثل ما يجب عمله تجاه بعض زعماء جماعة القيمرية ، (وهم طائفة من

^{١٤٦} - النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢ ، ص ٣٤١ - ٣٥٢ .

^{١٤٧} - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .

^{١٤٨} - في الأصل " واقف " .

^{١٤٩} - في الأصل " شئ " .

الأكراد)، وزعماء الممالك الصالحية الذين أوصاه بهم خيرا ، والمشكلات المتعلقة بالأسطول، حيث أن "الأخ الدين عرفني بهذه الأحوال جميعها ، فاسمع ما يقوله لك " !!

والوصية إذن تقليد الملك للمعظم تورانشاه من قبل أبيه الصالح نجم الدين أيوب ، وتعيين لمستشاره وقائد جيشه، والرجل المقدم في دولته ، ومن لا يقدم غيره، نعني "الأخ" فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، الذي خصه بأسرار دولته ، إذ يقول لولده : " وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من الممالك تقدمهم ، تعطى لكل واحد منهم كوس (صنوج من نحاس يدق بها في المواكب وهي من شعارات السلطنة والإمارة) ، وعلماء^{١٥٠} ، وتحسن إليهم".

ولو كان الأمر حقا كما ردد ابن واصل مرارا وتكرارا في كتابه ، من ثقة الصالح التي لا حدود لها في الأمير حسام الدين ، وفقدانه إياها في الأمير فخر الدين لكان المنطوق يحتم عليه أن يجعل من حسام الدين ، وليس فخر الدين ، مستشارا لابنه تورانشاه حالة اعتلائه عرش السلطنة ، خاصة وأن حسام الدين كان أتابكا لتورانشاه عندما كان في حصن كيفا كما علمنا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يختار الصالح أحدا سوى ابن الشيخ ليكون عضد ولده كما كان عضده هو شخصيا في سني حكمه .

والسلطان الصالح يترل فخر الدين منزله أخيه ، فلا يسميه في وصيته إلا بـ "الأخ"، ولم يستخدم هذا اللفظ مع أحد غيره ممن وردت أسماؤهم في الوصية على كثرتهم ، ومنهم نفر من أهله وأقاربه ، ولم يستخدم مع هذا اللفظ لقب الأمير أو مقدم العسكر أو الأتابك ، دليلا على مدى قرب فخر الدين من الصالح ومودته له واحترامه إياه ، بل والثقة المطلقة التي أولاهها إياه على العكس مما يقوله ابن واصل تماما .

وقد جاء ذكر حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، صديق ابن واصل ، في هذه الوصية ، فإذا ما قرأنا ما كتب عنه علمنا يقينا أن كل ما قاله مؤرخنا عن انفراد حسام الدين بثقة الصالح ، وأنه لم يكن ليولى أحد من بعده غيره لو أوصى ، مجرد آمال داعبت ابن واصل من أجل صديق عمره ، وصاحب الفضل في انزاله منزلا كريما عند قدومه إلى القاهرة من الشام . وها قد أوصى الصالح ، ولكنه أوصى بالشخصيتين الكريهتين لابن واصل !! تورانشاه وفخر الدين !! أما ما يخص الحسام فقد جاء ذكره في عداد الأمراء غيره ؛ يقول الصالح : " الولد (يعني تورانشاه) يتوصى بالخدام ، محسن (يقصد الطواشي جمال دين

^{١٥٠} - ن الأصل "علم"

محسن) ورشيد والخدام المقدمين ، لا تغيرهم ، فما قدمت أحدا^{١٥١} من الخدام ولا من الممالك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته ، وأستاذ الدار وأمين جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحسام . لا تغيرهم فأنى اعتمد عليهم في جميع أمورى ... والحسام يكون بمفرده لا حل ولا ربط " !! وهكذا ذكر حسام الدين في عداد أعوان السلطان الذين يعتمد عليهم ، بل آخرهم بعد الطواشى محسن ورشيد والخدام المقدمين ، والسلطان يعرف جيدا أن وزيره نائب السلطنة لا يعرف الحل والربط في الأمور بمفرده ! فكيف يمكن أن يجعل منه الصالح - لو أوصى كما يقول ابن واصل - سيدا على مصر !؟

وليس يبعد أن يحتاج أحد بالقول أن الوصية كتبت قبل أن ينسحب الأمير فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، ومن ثم فإن الصالح لم يكن يعلم بعدم ولاء مقدم عسكره عندما كتب وصيته غير أن ذلك قول واه يسهل دحضه دون عناء من خلال أمرين ، أولهما يتفق مع المنطق وطبيعة الأمور ، وهو أنه كان بمقدور الصالح أن يمزق هذه الوصية تمزيقا ، أو أن ينسخ بيديه محوا كل ما كتبه يده عن فخر الدين ، أو أن يضيف في أضعف الأحوال عبارة في بداية وصيته أو نهايتها يخبر ولده فيها بخيانة فخر الدين وموقفه من الصليبيين عند جيزة دمياط ، أما ثانى الأمرين فهو الدليل العملى الدامغ من داخل هذه الوثيقة نفسها ، فالوصية تضمنت في بدايتها كل الأحداث التى وقعت عند دمياط ، وما كان من أمر الصليبيين هناك ، أى احتلالها بعد أن فر من كان بها من الكنانية !! بل وتتضمن أيضا شهادة البراءة الكاملة للأمير فخر الدين على النحو الذى عرضنا له من قبل .

بقى أن نقول هنا ، حتى نغلق ملف قضية الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، القائد العام للجيش المصرى ، أو بتعبير زمانه أتاك العسكر ، والذى اتضحت لنا بداءته -على الأقل من وجهة نظرنا- مما نسب إليه من تركه لجيزة دمياط وانسحابه إلى أشموم طنجاح لهوى فى نفسه، وعدم ولائه لسيدته ، وطمعه فى السلطنة، إن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى أدلى بشهادته أمام محكمة التاريخ ميراثا "الأخ" فخر الدين، بعد كل ما قدمناه لتنفيذ ما جاء بصحيفة الدعوى المرفوعة ضده، هو الذى كتب وصيته هذه بخط يده ، إذ يقول: "وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد، لثلاث تضيق صدورهم ، وكتبتها فى مدة طويلة". والنويرى يؤكد ذلك عند تقديمه للوصية حين يقول : " وكان الملك الصالح فى مرض موته ،

^{١٥١} - فى الأصل " أحد " .

قد كتب إلى ولده الملك المعظم هذا كتابا أسند فيه الملك إليه ، واشتمل كتابه على جملة من الوصايا ، وقد وقفت على الكتاب المذكور ، وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملة " ١٥٢ .

أما من يقصدهم السلطان الملك الصالح بقوله " لئلا تضيق صدورهم " فهم جملة من الأمراء سماهم ، وطلب من ولده إبعادهم عن مناصبهم وعدم الاعتماد عليهم ، لأنه لن يستطيع التعامل معهم ، بعد أن كشف عن خبيثة نفوسهم وخبثهم وما تكنه صدورهم من السوء ، ويتبع كل واحد من هؤلاء بالقول بأن الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، يعرف كل هذه الأمور عن هؤلاء جميعا ، وعلى المعظم أن يأخذ برأيه حيالهم " ١٥٣ .

أما قول الصالح " وكتبته (أى الوصية) في مدة طويلة " فلا بد أن تكون هذه المدة هي الواقعة بين احتلال الحملة الصليبية السابعة لدمياط في السادس من يونيو ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ ، وموته في الثالث والعشرين من نوفمبر من العام نفسه (ليلة النصف من شعبان) ، وهي فترة تمتد إلى خمسة شهور ونصف تقريبا ، وهي الفترة التي مرض فيها مرض الموت كما يخبرنا ابن واصل وابن العبري والنويري وغيرهم ، والنويري يذكر ذلك صراحة في عبارته التي سقناها منذ قليل حين قال : " وكان الملك الصالح في مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم ... " . وهذا يفسر لنا من ناحية أخرى استبقاء السلطان الملك الصالح لقائد جيشه إلى جواره ، بعد أن شعر بدنو أجله ، للإشراف على تنظيم معسكر المنصورة التي انتقل إليها السلطان من أشموم طنّاح ، وتقويتها وتحصينها ، ومباشرة إدارة السلطنة في تلك الفترة العصيبة التي تمر بها البلاد ، من مرض السلطان مرض الموت ، واحتلال الصليبيين لجزء من الديار المصرية ، ولسنا في حاجة الآن إلى القول إن كل هذا يكشف عن مدى الثقة التي كان يتمتع بها "الأخ" فخر الدين عند السلطان ، كما أكدت على ذلك كل كلمات وصيته . ولعل الملك الصالح كان يوقن تماما أن منافسي وحساد فخر الدين سوف يسلفونه

١٥٢ - النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٤٠ .

١٥٣ - جاء في الوصية : " القيمرية " ، الولد (يعني تورانشاه) لا يسمع كلام بعضهم في بعض ، وناصر الدين عنده كذب وحبث ، وما باطنه جيد ، وقد عرفت الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) الرسل الذين مسكوا من دمشق إلى حلب من عنده ، والحسام (يعني حسام الدين محمد بن أبي علي الهذيان) يكون بمفرده لا حل ولا ربط ... وناصر الدين أرجل لا يخرج مع عسكر ، وسيف الدين القيمري تعمل معه ما يقرر مع الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يكون مقدم العسكر في دمشق ، وابن يضور (جمال الدين) مشد (الناظر في حسابات الدواوين) ، وناصر الدين على المظالم ، فابن يضور يصلح يكون مشد ووالي وجاني الأموال ، ولا يصلح يكون مقدم عسكر ، ولا يصلح لحدية ، ولا تؤمن له كل الأمر ، بل تمشي (هكذا) به الحال في مكان مدة ، ثم يقل إلى غيره ، وهو بالكتاب أليق ، وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا للجندية ... ، فالأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يعرف ما جرى منه ، فهو بحس معبد محسوس ، وقد عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه في دمياط وغير دمياط ، فما يصلح لصالحه متولى ديوان الأحاس (الأوقاف) اصرفه وولي (كدا) ابن النحوي ... وطراق ابن الحباب غير صالحه ، والوكيل اصرفه " . إضافة إلى عدد من أهل الدمة العاملين في ديوان الجيش ، يرد إليهم الصالح الكثير من الفساد ؛ وأناس غير هؤلاء وأولئك ، راجع النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

بأقلام وألبسة حداد ، فقرن في أول وصيته بين ما حدث في دمياط ونزاهة قائد جيشه وبراءته من أى اتهام .

ولا بد أن يكون السلطان قد سلم هذه الوصية لواحد من أقرب المحيطين به وهم ثلاثة ؛ زوجه شجر الدر ، ومقدم عسكره الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن ، وتسليمها إلى ولده تورانشاه عند قدومه إلى مصر ، ويرجع أنه أعطاهما لزوجته شجر الدر باعتبارها أقدر الثلاثة على حفظها وتسليمها لخليفته على العرش ، حيث كان الجميع ممن الأمراء ومماليك السلطان يحلوها ويعرفون لها قدرها ، وقد بدا ذلك واضحا في الفترة التي أعقبت وفاة الملك الصالح ، ولم يكن أحد من هؤلاء جميعا يجرؤ على المساس بمقتضاها^{١٥٤} . وليس من المستبعد أيضا أن يكون الصالح قد أوما إليها شفاهة باستدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا ، بعد أن أوصى به ، كما أخبرنا المقرئى ، وبعد أن قلده رسميا في الوصية التي لم يُطلع السلطان عليها أحدا منهم ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد : " يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين إلى الطواشى جمال الدين محسن ، وهو لم يعرض له كثيرا في وصيته كما فعل مع الأمير فخر الدين ، ولا كانت منزلته تؤهله لثقة كبار الأمراء فيه . ولا كان من المعقول أيضا أن يودعها لدى "الأخ" فخر الدين ، لعلمه أنه مقدم عسكره ، وأن الحرب بينه وبين الصليبيين دائرة ، وأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وأنه لا يأمن عليها من العبث بأيدي مماليكه بعد وفاته ، وكان الصالح كان يقرأ في صحف الغيب عندما استشعر ذلك ، فقد رأينا ما حل بدار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من النهب والتخريب على أيدي مماليكه ، لقد جاء هؤلاء إلى داره " فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت أمواله وحيله ، وأخذ الجولاني (نسبة إلى الجولان في سوريا) قدور حمامه ، والدمياطى أبواب داره"^{١٥٥} وهكذا لم يكن آمن على وصيته من زوجه أم خليل شجر الدر .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعيننا في المقام الأول ، أن هذه الوصية جاءت شهادة حق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر المصرى ، في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والدبلوماسى الماهر في أيام أبيه الملك الكامل محمد ، قد أدى واجبه كاملا في خدمة بنى أيوب ، وظل على ولائه لهم ، وإخلاصه في عمله

^{١٥٤} - تضمنت الوصية ما يفيد هذا رأى ، إذ يقول الملك الصالح : " يا ولدى الوصية بأم خليل (وهو اللقب الذى كانت تكنى به شجر الدر) فلها على من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، إرع (ق الأصل أرعى) جانبها واکرمها واحترمها وارفع منزلتها ، فهى عدى بمنزلة عظيمة ، وكنت طيب القلب بصحبتها ، أنا على نفسى من حبتها ، فأجعلها لك مثل الوالدة ، واجتهد في اتصال الراحة إليها ... ولا تخرج عن رأيها وتديرها " ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

^{١٥٥} - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٣٣٩ .

العسكري، حتى آخر أيام عمره ، وهي في الوقت نفسه ، أعني الوصية ، دليل بالغ الدلالة على أن الاتهامات التي سبقت ضده من ابن واصل ومن سار على نهجه من المؤرخين القدامى والمحدثين ليس لها من الصحة نصيب .

سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية

(٣٣٤ - ٤٤٨ هـ)

د. / محمود إسماعيل

كلية الآداب - جامعة عين شمس

يجمع الباحثون على أن فهم التاريخ الإسلامى واستيعابه وتفسيره وتنظيمه لا يتم معزل عن فهم مفتاحين أساسيين هما رصد حركة التجارة العالمية شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، والإحاطة بتطور وضعية الأرض الزراعية وأشكال ملكيتها وصيغ حيازتها وتطور هذه الأشكال والصيغ عبر حقب التاريخ الإسلامى .

وإذا كان "المفتاح" الأول قد قتل بحثاً ودرساً ؛ فإن "المفتاح" الثانى مازال غائباً عن تناول الباحثين ؛ فما أنجزوه فى هذا الصدد لا يتعدى الأحكام الانطباعية والتأملات الشخصية؛ بحيث لا يتفق اثنان فى الحكم على وضعية الأرض فى إقليم ما أو زمن ما ، ناهيك عن المجازفات والتخبطات التى تشوب جهود الباحثين فى تقرير نمط الإنتاج الذى ساد العالم الإسلامى برمته طوال عصوره التاريخية . فمن قائل بأن الإقطاعية كانت هى النمط السائد ، ومن قائل بأن النمط الرأسمالى هو الذى استقر الحال عليه . بل ثمة من ذهب إلى أن النمط الرأسمالى كان مشوهاً ؛ فكان لذلك "رأسمالويًا" وآخرون ذهبوا إلى أن الإقطاع الذى عرفه العالم الإسلامى أبعد ما يكون عن "الفئودالية" التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى . ولا يزال الكثيرون من الدارسين يتشبهون بصيغة "نمط الإنتاج الأسوى" التى قال بها ماركس والماركسيون ... إن هذا الاختلاف قمين بتضييب رؤيتنا لمسيرة التاريخ الإسلامى تفسيراً وتنظيراً .

على أن الباحثين متفقون حول حقيقة مفادها أن وضعية الأرض فى التاريخ الإسلامى هى التى أفضت فى الغالب الأعم إلى وجود الإقطاع ، بينما أسفرت فترات سيطرة العالم الإسلامى على التجارة العالمية عن الفترات التى سادها النمط البورجوازي فى الإنتاج .

وتأسيساً على ذلك سوف نحاول رصد الوضعية القانونية للأرض الزراعية فى العراق فى ظل السلطنة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٨ هـ) كمثال دال على صدق ما نذهب إليه من الخلاف والاختلاف بين الباحثين والدارسين .

وقبل الاستغراق في بحث الموضوع من المفيد أن نتوه بأن هذا الخلاف راجع إلى أمرين أساسيين هما :

أولاً: طبيعة المادة التاريخية المصدرية المملوغة التي تشكل مرجعية الدارسين المحدثين . إذ من المعلوم أن هذه المادة قليلة ومضنية وغير بريئة . لا شئ إلا لاختلاف هوية الفقهاء والمؤرخين الإسلاميين الأوائل الذين عاجلوا هذه القضية ، إذ غلبت المذهبية الطائفية على تخيال هؤلاء تأسيساً على تضارب رؤيتهم للشريعة الإسلامية ، وفي الغالب الأعم تلونت كتاباتهم بالتبرير لسياسة الأمر الواقع واعتبار ما أقره الحكام من سياسات في هذا الصدد هو ما أقرته الشريعة الإسلامية ، أما الذين لم يتأثروا بأهواء الميول للسلطة ؛ فإن كتاباتهم استهدفت لا تفسير ما هو واقع وقائم من سياسات ؛ بل عبرت عما كان ينبغي أن يكون . ولذلك ظلت هذه الكتابات في "الأحكام السلطانية" عديمة النفع والجدوى بصدد فهم السياسات العملية إزاء مسألة الأرض الزراعية إلى هم الدارسين بالفعل .

من هنا ظلت كتابات نفر الأول المبررة لسياسات الحكام هي المصدر الأساسي للوقوف على الماكرات التاريخية للقضية موضوع البحث . وفي الغالب الأعم كانت تصورات أصحاب تلك الكتابات تعبر عن رؤية الحاكم والطبقة المسيطرة^١ . ونمثل في هذا الصدد بكتاب "الخراج" الذي كتبه القاضي أبو يوسف بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد ؛ والذي ذهب فيه إلى حكم خطير هو أن من حق الحاكم التصرف في الأرض حسب رغبته ووفق إرادته^٢ .

لقد أصبح هذا الحكم الخطير متداولاً لدى فقهاء السلطة والمؤرخين الإسلاميين طوال العصور التالية خوفاً أو طمعاً ، أو هما معاً . يقول يحيى بن آدم^٣ : "إن الأرض ملك للسلطان ؛ إن شاء قسمها ، وإن شاء صادرها ، وإن شاء أوقفها حسب ما تقتضيه المصلحة" وهذا يعني أن فقهاء السلطان قد نحوا الشريعة جانباً وأضافوا على سياسات الحكام شرعية زائفة .

ثانياً : أن المؤرخين والدارسين المحدثين - فضلاً عن تأثرهم بهذه الكتابات المملوغة - أضافوا ألغاماً جديدة تتمثل في الإيديولوجيات المعاصرة التي تبناها ونظروا من خلالها إلى مسألة الأرض ؛ فزادوها غموضاً على غموض . ولا أدل على ذلك من أن معتقبي

^١ - نظر ، محمد تضرعوت : الحياة الاقتصادية في العراق في العصر العباسي ، رسالة دكتوراه - مخطوطة ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

^٢ - أحمد صادق سعد : دراسات في المفاهيم الاقتصادية لدى المفكرين الإسلاميين - كتاب الخراج لأبي يوسف ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٣٦ .

^٣ - يحيى بن آدم - كتاب الخراج ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ .

الإيديولوجية الاشتراكية طوعوا الشريعة الإسلامية بما يخدم منظورهم فقالوا بأن الإسلام هو الاشتراكية وألحوا على الملكية العامة للأرض ، بينما ذهب خصومهم الرأسماليون إلى أن الرأسمالية تتفق مع الإسلام في تقرير الملكية الفردية والإرث .. !!

أكثر من ذلك أن بعض المؤرخين العرب المعاصرين في العراق حين بحثوا وضعيّة الأرض في العصر البويهي تأثروا بترعات إقليمية تنعصب للخلافة العباسية ؛ لذلك وجدوا في البويهيين الشيعة الذين انتزعوا حكم العراق من الخلافة "غزاة أجنب" تخبّطت سياساتهم الاقتصادية على الرغم مما عرفه العراق من ازدهار عام في العصر البويهي ، من هنا جاءت أحكامهم الملونة إيديولوجيا بحافية للحقيقة ، يقول الأستاذ عبد العزيز الدوري بأن العصر البويهي يعد "فاتحة عهود السيطرة الأجنبية في البلاد العربية"^٤ ، وفي الوقت الذي ندد فيه بسياساتهم الاقتصادية واعتبر عصرهم تحذير الإقطاع العسكري ؛ ناقض نفسه حين قال : "شهد العصر أوجه نشاط المؤسسات التجارية والصرفية وشهد ازدهار الزراعة ، وتقّدم فنون الصناعة"^٥ . وهذا لا يتأتى إلا في ظل وجود نمط انتاج بواجوازي . أمام تلك المادة المصدرية غير البريئة ، وأمام الأهواء الإيديولوجية المعاصرة ؛ لا يجد الباحث الموضوعي مناصاً من اختطاط منهج قوامه رصد الظاهرة الاقتصادية في مجتمع إسلامي وسيطى بعينه في إطار رؤية عامة وشاملة لدرجة تواجدها وتفاوتها نسبياً في العالم الإسلامي بأسره؛ على اعتباره أن رؤية الجزء لا تتم إلا في إطار الكل بعيداً عن المذهبيات والإيديولوجيات . وهو ما حاولناه في مشروعنا "سوسيولوجيا الفكر الإسلامي" وحاوله - في ضوء ذلك - تلميذنا النابغة محمد تضرعوت في رسالته الفذة عن "العصر البويهي" فتوصلنا - وتوصل معنا - إلى حكم عام مؤداه أن الإقطاع الذي ساد العراق في عصر "تسلط الأتراك" ٢٣٢ - ٣٣٤هـ - تضعضع في العصر التالي وهو العصر البويهي^٦ .

ومع ذلك اختلفنا حول درجة أقول الظاهرة الإقطاعية ؛ إذ بينما ارتأينا أن العصر سادته البورجوازية ، مع وجود إقطاع مهمش ؛ ذهب هو إلى عكس ما ذهبنا ؛ فقال بأن التواجد البورجوازي كان هامشياً بالقياس إلى التواجد الإقطاعي الغلاب .

على كل حال سوف نوضح رؤيتنا - مع مناقشة نظرة تلميذنا الذي نكن له الاحترام - من خلال النصوص التي اعتمد عليها هو نفسه واختلف معنا في تأويل بعضها .

^٤ - عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٨٦ .

^٥ - نفسه ، ص ٨٦ .

^٦ - محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠ ، ج ٢ ، ص ١٤٠ وما بعدها .

لقد فطن كلود كاهن إلى حقيقة تضعضع الإقطاعية في العصر البويهي دون أن يتصدي لبرهنتها^٧.

فما هي الدوافع السياسية لسياسة بني بوية في ضعضة الإقطاع؟ مفهوم أن سيادة الإقطاع خلال القرن السابق على ظهور البويهيين كانت مسئولة عن حالة الضعف والتشرذم السياسي للإمبراطورية العباسية، فكانت الحركات الاستقلالية والتجزئة السياسية مرادفاً لنمط الإقطاع المنغلق الاكتفائي الزراعي والرعوي أساساً؛ ومن ثم ما كان هناك يد من أن يعول البويهيون على تحقيق الوحدة السياسية عن طريق استعادة هيئة السلطة المركزية وذلك بالقضاء على الإقطاع^٨. تلك المقولة برهنها تلميذنا محمد تضرعوت بمزيد من القرائن والأدلة والتفصيل والبسط^٩ والإقناع؛ بما لا يدعونا إلى التكرار والإضافة؛ اللهم إلا التنويه بأن البويهيين كانوا شيعة زيدية، وكان التشيع الزيدي مقروناً بالانعزال بطابعه الإيديولوجي التنويري العقلاني المفتوح والحريص على تحقيق العدل الاجتماعي بما يكفل المواءمة بين مصالح الدولة ومصالح الرعية.

لذلك لم يدخر معز الدولة أول السلاطين البويهيين وسعاً في "مصادرة ضياع الخلافة"، وضياع المتسترين، وضياع ابن شيرزاد وصار أكثر السواد مغلقاً، وزال أيدي العمال عنه، وبقي الكثير منه من المحلول فضمنه"^{١٠}.

يؤكد هذا النص المقتضب على حقائق جد هامة عن محاولة القضاء على الإقطاع بأشكاله التي كانت سائدة في العصر السابق، سواء ما كان منه تابعاً للخلافة أو إلى أمراء الجند التركي أو إلى رجال الإدارة.

وفي نفس الوقت يشير بأن نظام الملكية الفردية قد حل محله؛ بحيث ضمنت الدولة موارد مالية هائلة من ضريبة الخراج مما ساعدها على إقرار سيادتها وتوسيع حدودها، فضلاً عن الإنفاق على المشروعات الإصلاحية التي عمت سائر قوى الإنتاج ويكمن الخلاف - مع تلميذنا تضرعوت - في أنه رأى في العبارة الواردة في النص السابق "وبقي الكثير منه فضمنه" وجد فيها دليلاً على بقاء الإقطاع الشامل لمعظم الأراضي الزراعية في العراق؛ على أساس أن "نظام الضمان" - في نظره - كان من مظاهر الإقطاعية^{١١}. بينما نرى من جانبنا أن هذا النظام كان يتعلق بجمع أموال الخراج المقرر على الملكيات الخاصة؛ بما يدل على

^٧ - كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٠٧، الترجمة العربية.

^٨ - فؤاد حليل: الإقطاع الشرقي بين علاقات الملكية ونظام التوزيع، بيروت ١٩٩٦، ص ١٦٦.

^٩ - محمد تضرعوت: المرجع السابق، ص ٣٤ وما بعدها.

^{١٠} - مسكويه: تجارب الأمم، القاهرة، ١٩٢٠، ١٩٢١، ج ٢، ص ٢٣٥.

^{١١} - محمد تضرعوت: المرجع السابق، ص ٣٦ وما بعدها.

سيادة النمط البورجوازي في الإنتاج . فنظام التضمين أو الالتزام كما هو معروف لا يتعلق بالضيايع والإقطاعات ، نظراً لكونها معفاة كلية من الضريبة . ولكنه نظام قصدت منه الدولة الحصول على ضريبة الخراج مقدما عن طريق ملاك كبار يدفعونه للدولة ، ثم يقومون بجمعه من صغار الملاك لأنفسهم بعد الحصاد^{١٢} .

وإذ أسندت الدولة البويهية هذه المهمة لقواد العسكر الذين حرمتهم الدولة - كما هو معلوم من قبل - من الإقطاعات ووزعت عليهم الأرزاق والرواتب ، وإذ منحتهم الدولة بعض إقطاعات محدودة ؛ فكانت فقط " إقطاع منفعة" مجرد من كافة حقوق الملكية . وهذا النوع من الإقطاع مرتبط بتقلص خدمات للدولة منها ضمان جباية الخراج ، كذا دفع ضريبة سنوية عن هذه الحيازات التي كانت معفاة من الضرائب في العصر السابق .

كانت سياسة معز الدولة البويهى تستهدف استئصال شأفة الإقطاعية ، بما فيها الإقطاع العسكرى بطبيعة الحال ، وعولت في ذلك على المرحلية والتدرج . ولعل هذا يفسر ثورة قادة الجند ومحاولة عزله لما لحق بهم من أضرار^{١٣} . لذلك حاول تعويضهم بمنحهم بعض الضيايع في إطار صيغة "إقطاع الاستغلال" أو "المنفعة" فضلا عن الأعطيات والرواتب .

وفي مرحلة تالية لم يتقاعس معز الدولة عن إلغاء هذا النوع من الإقطاع الهزيل خصوصا بعد إهمال قواد العسكر زراعة ضيايعهم . هذا ما نقف عليه من نص جدهام لمسكويه حيث قال: "أحدث معز الدولة رسومات ومعاملات لم تعهد ، وأدخل يده في جميع الأرجاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه"^{١٤} .

ويقطع هذا النص الهام بتحويل ضيايع الجند إلى ملكيات خاصة للمزارعين فرضت عليها ضريبة الخراج . معنى هذا اتساع رقعة الملكية الخاصة على حساب الضيايع الإقطاعية التي قضى عليها تماما في عهد صمصام الدولة الذي اتخذ اجراءا هاما في هذا الصدد هو "إطلاق الانتفاع للملاك"^{١٥} ؛ بعد أيلولة الأرض إليهم نظير خراج يدفع للدولة قيمة عشر المحصول الذى أوكل جبايته لا إلى المتضمنين من قادة الجند ؛ بل إلى موظفين إداريين عينهم خصيصا للقيام بهذه المهمة. يفهم ذلك بداهة من قول مسكويه " .. كما أدخل يده في وقوف السواد ورتب لها ناظرين متصرفين ... وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك .."^{١٦} .

^{١٢} - إبراهيم على طرخان : التظم الإقطاعية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٧٥ .

^{١٣} - محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، ج٢ ، ص ١٤٢ .

^{١٤} - مسكويه : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٧١ .

^{١٥} - نفس المصدر والصفحة .

^{١٦} - نفس المصدر والصفحة .

ومعلوم أن "وقوف السواد" كانت قد آلت إلى قادة العسكر خلال العصر السابق ،
فانتزعت منهم وتحولت إلى ملكيات خاصة ، أى إلى أرض خراجية^{١٧} .

ويمكن الجزم بأن البويهيين الأوائل نجحوا في كبح جماح الإقطاعيين من قادة العسكر
وإن أبقوا على بعض الإقطاعيات في إطار "إقطاع الاستغلال" خصوصا في مناطق الأطراف
النائية نظير القيام بمهمة الدفاع عن حدود الدولة أو المناطق التي تحتاج الأرض فيها إلى
الاستصلاح . وحتى لا يتعاضم خطر هؤلاء القادة المقطعين فرضت الدولة عليهم رقابة
صارمة وعينت بعضهم في مناصب إدارية في قلب الدولة من باب الترضية عوضا عن
إقطاعاتهم^{١٨} . وفي نفس الوقت اتبعت الدولة سياسة الإصلاح لتكسب جماهير الرعية إلى
جانبها لتوازن بذلك بين سحق القادة العسكريين وبين ولاء المواطنين^{١٩} .

وبفضل تعاضم ولاء الرعايا نجحت الدولة في قل نفوذ هؤلاء القادة فلم تتقاعس عن
ردعهم إذا ما فكروا في التمرد والانتزاع .

كما استعانت الدولة في فرض سياستها إزاء الوضعية الجديدة للأرض بجيش من
الإداريين المحنكين واعتمدت عليهم ليكونوا عوناً لها في مواجهة قادة الجند الحانقين .

ولنفس الغرض - وأمام تعاضم الجند الديلمي - لم تدخر الدولة وسعاً في تسريح
جيش الديلم واستعاضت عنه بجند جديد من العناصر التركية غير الطموحة ، فضلا عن
تجنيد البدو في الجيش الجديد الذي وفرت له الأموال في صورة رواتب وأعطيات بدلا من
الإقطاعات^{٢٠} .

وفي العصر البويهي الأخير الذي اتسم بالفوضى السياسية نتيجة الصراع بين
العسكريين القدم الديلمي والجديد التركي ، واندلاع الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة
البويهية الحاكمة، وانتعاش الخلافة العباسية نسبيا ؛ لم يستطع السلاطين البويهيون الأواخر
الحفاظ على سياسة الدولة إزاء وضعية الأرض التي أنجزها السلاطين الأوائل فانتكست تلك
الإصلاحات^{٢١} إلى حد ما .

ولمواجهة أخطار القوى الإقطاعية الإدارية والعسكرية ضربت الدولة بقوة على أيدي
الإداريين وأرغمتهم على دفع ضريبة الخراج التي حاولوا التنصل من تبعاتها^{٢٢} . لكنها

^{١٧} - محمود إسماعيل : موسيولوجيا ، ج-٢ ، ص ١٤٤ .

^{١٨} - نفسه ، ص ٤١ .

^{١٩} - الماوردي : قوانين الوزارة وسياسة الملك ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٨ .

^{٢٠} - Bosworth, C, *Military Organisations under the Bayids of Persia and Iraq*, London, 1977, p. 159.

^{٢١} - محمود إسماعيل : دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢١ .

^{٢٢} - محمد تفضول : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

عجزت عن مواجهة قوى العسكر الديلمي القدام ، وأمام عجزها عن دفع الرواتب والأعطيات اضطرت اضطرارا مرة أخرى لإقطاعهم الأرض^{٢٣} ؛ فانحرفت بذلك عن جادة الطريق "انحرافا يسيرا ولا يظهر انحرافها في المبدأ" على حد تعبير دقيق للمؤرخ مسكويه^{٢٤} . وهذا يعنى عجز البويهيين الأواخر عجزوا عن استئصال شأفة الإقطاعية تماما ، دون أن يفهم من ذلك بداهة تخلى الدولة عن سياسة البويهيين الأوائل كما فهم بعض الدارسين الذين حاولوا إثبات تحول السياسة البويهية إلى إحياء الإقطاعية . لقد عادت فلول الإقطاعية في قطاع محدود من الأرض الزراعية ، أما معظمها فظل على صورة ملكيات خاصة تدخل في إطار وضعية الأرض الخراجية . أما عن الأراضي التي صارت إقطاعا ، فقد حاز معظمها أفراد أسرته حفاظا على ولائهم للسلطة^{٢٥} . كما أن الصراع على السلطنة بين بهاء الدولة وصمصام الدولة لم يهدأ إلا بعد تعهد كل منهما بأن يخصص لصاحبه إقطاعا في بعض مناطق^{٢٦} نفوذه . وأمام انتعاش الخلافة العباسية اضطرت السلطنة البويهية إلى تخصيص إقطاعات للخلفاء بدلا من الرواتب^{٢٧} . ولما نشب النزاع بين العسكرين التركي والديلمي قسم بهاء الدولة بعض مناطق إقليم الأهواز بالتساوى بينهما^{٢٨} . كما منح مشرف الدولة بعض القادة الديلمية ضياعا في واسط لناصرتهم إياه في صراعه مع أخيه سلطان الدولة^{٢٩} .

يتضح مما سبق أن إحياء الإقطاعية لم يجر إلا في نسبة محدودة من الأرض الزراعية ، وذلك لأسباب سياسية ، كذا بسبب خواء خزانة الدولة وعجزها عن دفع الرواتب والأعطيات^{٣٠} وهذا يعنى أن السواد الأعظم من الأراضي الزراعية ظلت ملكيات خاصة لصغار الملاك .

شاهدنا على دعوانا تلك عدة مؤشرات ، منها أن السواد الأعظم من الجند كانوا يتقاضون رواتب وأعطيات^{٣١} ، كما تنم سياسة البويهيين الأواخر في مضاعفة ضريبة الخراج^{٣٢} على بقاء الملكيات الخاصة على نطاق واسع .

^{٢٣} - أحمد عبد الحليم بونس : أنظمة استعمار الأرض الزراعية في العصر العباسي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٦١ وما بعدها.

^{٢٤} - تجارب الأمم ، ج٦ ، ص ٩٧ .

^{٢٥} - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ج٧ ، ص ١٥ .

^{٢٦} - نفسه ، ص ٤٥ .

^{٢٧} - محمود تضرعوت : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

^{٢٨} - ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

^{٢٩} - نفسه ، ص ٣٠٦ .

^{٣٠} - فؤاد حليل : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

^{٣١} - نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

^{٣٢} - مسكويه : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٩٨ .

لقد اعترف القائلون بعودة الإقطاعية كلية في أواخر العصر البويهى بوجود ملكيات خاصة للفقهاء والأشراف والقضاة والكتاب نظير "مراقبة الجبايات"^{٣٣} بما يعنى عدم رسوخ الإقطاعية على أنقاض الملكيات الخاصة . ومعلوم أن هؤلاء كانوا يحوزون إقطاعات واسعة في العصر السابق .

وباستنطاق المصطلحات الخاصة بوضعية الأرض في أواخر العصر البويهى سمويطيقيا نجد ما بين "تمليك" و "تسويغ" و "إيغار" و "طعمه" ... الخ مما يبرهن قطعيا على وجود الصيغة الخراجية.

وبنفس الدرجة تشي ظاهرة بيع الملاك الصغار أراضيهم من جراء تعاظم الضرائب الخراجية على وجود الملكيات الخاصة ، كما تنهض ظاهرة كثرة شكاوى الفلاحين من الجبايات والمغارم دليلا على نفس الحقيقة^{٣٤} . وفي نفس المنحى نفهم مغزى حبس بعض الملاكين نصابا من أراضيهم كأوقاف ينفق من ربحها على أعمال البر والخير^{٣٥} . كذا تعلظم القضايا الخاصة بالتركات في أواخر العصر البويهى^{٣٦} .

تلك القرائن - وغيرها كثير - تدل دلالة واضحة على أن الإقطاع لم يسد تماما إبان العصر البويهى الأخير كما ذهب بعض الدارسين . وننوه أيضا بأن تواجده ظل هشاً بعد أن جرد من عوامل قوته ؛ فقد كان كما قلنا من قبل "إقطاع استغلال" وليس "إقطاع رقبة" ، كما منح في حالات خاصة تحت إلحاح الضرورة السياسية ، والتزم الإقطاعيون الجدد بتقديم خدمات للدولة^{٣٧} أو تسليم جزء من المحصول لها عينا أو نقدا^{٣٨} . ناهيك عن لجوء السلاطين الأواخر - تحت إلحاح العوز المالى - إلى مصادرة الكثير من الإقطاعات^{٣٩} ؛ بما يفيد هشاشة الإقطاعية إذا - ما قيست بالملكيات الخاصة - في العصر البويهى الأخير . خلاصة القول - أن البويهيين عموما أحدثوا تحولا ملحوظا في سياستهم إزاء وضعية الأرض الزراعية مؤداه ضعفه الإقطاعية لحساب تعاظم الملكيات الخاصة . وإذا نجح السلاطين الأوائل بنجاحا شبه تام في سياستهم تلك ، فقد اضطر السلاطين الآواخر - تحت ضغوط ظروف سياسية - إلى

^{٣٣} - أنظر : محمد تضرعوت : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

^{٣٤} - نفسه ، ص ٧١ .

^{٣٥} - حسن منبنة : نشوء الإقطاع في الإسلام ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، مجلة الاجتهاد ، عدد ١٤ ، بيروت ١٩٩٦ .

^{٣٦} - آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .

^{٣٧} - محمد تضرعوت : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

^{٣٨} - نفسه ، ص ٦٣ .

^{٣٩} - التوحى : الفرج بعد الشدة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ج ١ ، ص ٣٩ .

السماح بتواجد النمط الإقطاعي تواجدا هشا ؛ بما يفيد أخيرا أن النمط البورجوازي -
الرأسمالي ظل سائدا وغالبا طوال العصر البويهى .

وليس أدل على صدق مقولتنا من تبنى الدولة سياسة إصلاح فى مجال الزراعة ؛
أفضت إلى تعاظم الإنتاج وخص أسعاره وارتفاع مستوى المعيشة بوجه عام . لقد أقرت
الدولة نظاما جبائيا عادلا يحقق مصالح الدولة والمزارعين فى آن ، كما تبنت مشروعات
عمارة الأرض وسقيها وزيادة رقعتها وفق أساليب وتقنيات مستحدثة .

نعلم أن السلاطين البويهيين دأبوا على تنظيم المؤسسات الخاصة بالأرض فأعادوا
النظر فى الدواوين واستحدثوا بعضها واختاروا لإدارتها موظفين أكفاء جرت مراقبتهم من
قبل السلطة حرصا منها على حسن تنفيذ سياسة الإصلاح الزراعى^{٤٠} . يقول أبو شجاع^{٤١}
"رفع شرف الدولة أمر المصادر - بالنسبة للأرض الخراجية - وقطع أسبابها ، وضم طرق
السعيات وسد أبوابها .. وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام ، وطالب العمال بعمل
المصالح ، وأخذهم بإقامة العمارات" .

وقد لخص كلود كاهن^{٤٢} هذه السياسة الإصلاحية بقوله : "شمل آل بويه بعنايتهم
جميع البلدان ، وحققوا فى بلاد فارس أعمالا فى التنمية والاستثمار لم يسبق لها مثيل" .

وقد تعاظم الإصلاح فيما يتعلق بأمور السقاية والرى وفق أساليب علمية وتقنيات
مبتكرة؛ فكان لديهم جهاز هندسى دقيق برع فى إقامة السدود وصيانتها ، وشق القنوات
لإجراء الماء إلى المساحات المزروعة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد تفانى معز الدولة
البويهى فى الإشراف بنفسه على أمور السقاية ؛ حتى قيل بأنه باشر بنفسه سد أحد البثوق .
وشيد عضد الدولة سدا عظيما على نهر الكرين شيراز وإصطخر وسقى منه ثلاثمائة قرية .
وفى الأقاليم عديمة الأنهار ، أقيمت مشروعات لتجميع مياه الجداول والوديان المنحدرة بعد
سقوط الأمطار لتسرى فى قنوات مغطاة أقيمت عليها الجسور وامتدت خلال نطاقات
شاسعة على جانبيها وقد تطلب العمل فى تلك المشروعات وجود إدارة هندسية معقدة
وآلات مائية متعددة جرت الاستفادة من التقدم العلمى فى علوم الرياضيات فى هذا العصر فى

^{٤٠} - محمود اسماعيل : موسيولوجيا ، ج-٢ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

^{٤١} - ذيل كتاب تجارب الأمم ، اكسورد ، ١٩٢١ ، ج-٣ ، ص ١٣٧ .

^{٤٢} - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٠٨ .

صناعتها وإعدادها . كما أفردت الدولة دواوين خاصة لأموال الرى عرفت باسم "دواوين الماء" علمت على توفيره لرى رقعة زراعية فسيحة^{٤٢} .

وليس أدل على شيوع شكل من أشكال النمط الرأسمالى فى الإنتاج الزراعى ؛ من مشاركة المزارعين فى هذه الأعمال ، وفى مقابل هذه المشاركة كانت الدولة تعفيهم من بعض أقساط الخراج^{٤٣} .

كما أسهمت النهضة العلمية التى ازدهرت فى هذا العصر فى زيادة الإنتاج الزراعى ، من حيث ابتكار وسائل جديدة فى تسميد الأرض ؛ نتيجة تقدم علم الكيمياء . كذا إبتكار وسائل جديدة فى استنبات محاصيل عالية الإنتاجية ولاغزو فقد ظهرت فى هذا العصر مصنفات فى "علم الفلاحة" جرت الإفادة منها فى المجال الزراعى ، وأخرى فى "علم الحيوان" ساعدت على تعاظم الإنتاج وتجويده وتحسين سلالاته ، خاصة القول - أن ازدهار الزراعة فى العصر البويهى كان نتيجة للسياسة البويهية الرشيدة التى قوضت النمط الإقطاعى فى الإنتاج ليحل محله نمط آخر يتسم بالكثير من سمات نمط الإنتاج الرأسمالى .

^{٤٢} - محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

^{٤٣} - آدم ميتز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ .

دور مصر في إفريقية

من الفتح العربي حتى نهاية عصر الولاة

٢٧ - ١٨٤ هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠ م

د. / نريمان عبد الكريم أحمد

كلية الآداب - جامعة المنوفية

لقد قهيات مصر بما اختصت به من مزايا، أن تتبوأ دائماً مكانة متفردة بين جيرانها ، وأن تلعب دوراً إيجابياً قد تحتم عليها طوال تاريخها ولا زالت ، فهي تمثل أخطر موقع إستراتيجي (١)، باعتبارها حجر الزاوية في الثلاثية القارية ، التي يتألف منها العالم القديم ، فهي الوحيدة ، التي تلتقي فيها قارتان وتقترب منها ثلاثة ، لذلك فهي تمتاز بالموقع المركزي في قلب الدنيا القديمة (٢) ، فضلاً عن أن مصر بمثابة الشريان المحوري المطلق في الملاحه العالمية (٣) ، وبذلك يكون موقع مصر رأسملاً طبيعياً وسياسياً ، ولولا هذا الموقع البرزخي الحيوى لكانت مصر أقل ثقلاً و ثراء (٤)، كما أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت في تناسب معقول بين حوافز النشاط وبين إمكانيات العمل ، بمعنى أن الجهد البشرى كان شرطاً للتقدم (٥) ، لذلك إمتازت مصر بثرائها وغناها وكثرة خيراتها.

وقد ورد ذكر مصر في القرآن الكريم، يؤكد ذلك قول تعالى: ((اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم)) (٦) ويقول سبحانه : ((ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون)) (٧) كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ((قال اجعلنى على خزان الأرض أنى حفظ عليم)) (٨) . كما ذكرت بعض الأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن مصر منها : ((إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة)) (٩) وقال أيضاً : ((ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لكم فيهم صهراً وذمة)) (١٠) .

وقيل أيضاً فى فضائل مصر : ((من أراد أن ينظر إلى الفردوس ، فلينظر إلى أرض مصر، حين تخضر زروعها و يزهر ربيعها ، وتكسى بالنوار أشجارها وتغنى أطيارها)) (١١) وقيل أيضاً: ((بلد مصر خزانة الله)) وكذلك ((نعم البلد مصرًا يحج

منها بدينارين ، ويغزى منها بدرهمين)) (١٢) وعلى ذلك كان أثر ثراء مصر واضحا فيما قامت به على التوالي من إرسال القمح إلى روما ثم بيزنطة ثم المدينة (١٣) .

وهذه المزاي السابقة قد جعلت مصر مؤهلة للقيام بدور ملحوظ عبر التاريخ ففي الحقبة الإسلامية ، بدأت مصر تتحول إلى قاعدة إسلامية كبرى ، فعلى الرغم من أن الدولة الأموية كانت في الشام إلا أن مصر كانت قاعدتها ومركز ثقلها ، فمعاوية بن أبي سفيان لم يهتم بشيء أثناء صراعه مع علي بن أبي طالب قدر اهتمامه بانتزاع مصر (١٤) . ونفس الشيء حدث أيام عبد الملك ابن مروان ، فقد تقرر مصير المعركة بينه وبين عبد الله بن الزبير عندما استخلص مصر وتولاها أخوه وولى عهده عبد العزيز بن مروان ، وظلت مصر كذلك طوال العصر الأموي قلب هذه الدولة ، لأن مصر كانت بلدا مستقرا غنيا يمد الخلافة بأسباب الغنى والقوة (١٥) .

ولما كانت مصر هي المدخل الطبيعي وخط الإقتراب الحتمي إلى شمال أفريقيا (١٦) ، ولأنها ولدت إفريقية تشعر بالتزاماتها حيال القارة بوجه عام على مدار التاريخ ، حيث فرضت عليها الظروف أن تكون صاحبة النصيب الأكبر في النهوض بشركائها (١٧) .

لذلك لعبت مصر دورا ملحوظا في إفريقية ، بداية من فتوحات حتى نهاية عصر الولاة، تمثل هذا الدور فيما أسهمت به مصر على الصعيد العسكري والسياسي ، فقد حتمت الوضعية الجغرافية لمصر وقربها من إفريقية إتخاذ مدينة القسطنطين قاعدة لانطلاق الحملات ومركزا سياسيا هاما ، وفيما يخص الناحية الاقتصادية ، فقد اقتضت على تقديم الأموال ، أما عن الناحية الثقافية فقد قامت مصر بدور الوسيط ، لأن مدينة القسطنطين كانت تمثل معبرا ثقافيا وواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامي .

ومن المعلوم أنه بعد إنتهاء عمرو بن العاص من فتح مصر عام ٢١هـ / ٦٤١-٦٤٢ م، توجه إلى فتح برقة وطرابلس لتأمين حدود مصر الغربية (١٨) ، وكان طبيعيا أن يستمر الفتح في إفريقية ، فكتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في هذا الأمر لكن الخليفة لم يرض لسابق معرفته بظروف إفريقية المضطربة (١٩) ، وفي خلافة عثمان بن عفان، قام عبد الله بن سعد بن أبي السرح والى مصر بأرسال خيوله إلى إفريقية في شكل سرايا تغير على أطراف البلاد (٢٠) وتقوم باستطلاع أحوالها معتمدا على جند مصر ، حتى قام بأول الغزوات الرسمية عام ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، والتي عرفت بغزوة العبادلة (٢١) ، وحققت هذه الغزوة إلى جانب القبائل التي تسكن مكة والمدينة كثيرا من أبناء القبائل العربية المستقرة

في مصر من مهرة وميدعان و الأزد (٢٢) ، فضلاً عن بعض الأقباط الذين صحبوا هذا الجيش (٢٣) .

كما ضمت غزوات معاوية بن حديج الكندي بعض عشائر من جند مصر (٢٤) ، ونفس الشيء يقال عن حملة عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م ، والتي أشترك فيها على ما يبدو عدد كبير منهم ، فعند قدوم عقبة إلى مصر قبل غزو إفريقية قال له عبد الله بن عمر (إياك أن تكون لعنة أرامل مصر) (٢٥) ، هذا يبين أن المشتركين في هذه الحملة كانوا من العرب والأقباط على السواء، إذ إنه كان يطلق على العرب المقيمين في مصر آنذاك ((أهل مصر)) .

ولم يقف الأمر عند حد إشترك جند مصر في الحملات المتوجهة صوب إفريقية ، بل أن مصر أو بالأحرى مدينة القسطنطين كانت بمثابة قاعدة لانطلاق الحملات ومركزاً لتلقى القوات المنسحبة إليها ، لاسيما في الحملات الأولى، فقد رجع عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن أقام في إفريقية سنة وشهرين (٢٦) ، كما أن الحملات التي قام بها معاوية بن حديج كان يعود بعدها إلى مصر (٢٧) ، وكذلك زهير بن قيس الذي عاد بعد إنسحابه من إفريقية هو وجنده إلى مصر يلتمسون الراحة فيها (٢٨) .

كذلك كان يناط بوالى مصر قيادة الحملات ، فعلى الرغم من أن جيش العبادلة قد خرج من المدينة تحت قيادة الحارث بن الحكم، فإنه بعد وصول هذا الجيش إلى القسطنطين، أصبح عبد الله بن سعد قائدا له (٢٩) باعتبار أن مصر وواليتها كانا يتحملان تبعه الفتح، صحيح أن عقبة لم يكن واليا على مصر ، لكن كان عليه بعد أن تم اختياره من قبل معاوية بن أبي سفيان ليقود هذه الحملة أن يتوجه إليها . وليس معنى مرور عقبة على مصر ، هو مجرد تجاوز الحدود إلى إفريقية ، بل لأن والى مصر وقتئذ كان مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى ولى مصر والمغرب منذ عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م (٣٠) ، كما كان على عقبة أن يستقر بمصر بعض الوقت لإعداد هذا الجيش .

ولم يكن إشترك جند مصر مقصورا على القتال ، بل كانوا يشاركون أحيانا في وضع الخطط الحربية ، فتذكر المصادر (٣١) أن أحد الأقباط قد أشار على عبد الله بن سعد بأن يجعل للروم كمينا ويفرقهم حتى كان النصر للمسلمين ، وتم الإعتماد عليهم أحيانا في تدعيم النفوذ العربى في إفريقية في حالة الإنسحاب ، فأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك في طرابلس وإفريقية فرقة من جيش مصر (٣٢) ، كما كانت المراكب تخرج من مصر في بعض الأحيان لتحمل أثقال الجيش وغنائمه (٣٣) .

وإذا كان هناك بعض الأسباب التي أثرت في فتوحات إفريقية ومنها رفض الخليفة عمر بن الخطاب وظروف الخلافة نفسها فيما بعد ، وكذلك السياسة التي رسمتها الخلافة تجاه مناطق الأطراف والتي كانت تقوم على أن عملية الفتح تكون مسبقة بفترة من الغارات الثغرية التي يتدرب فيها الجند على طبيعة البلاد والسكان (٣٤) فإن أحوال مصر السياسية أيضا قد شاركت في تأخر هذه الفتوحات .

ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٣٥) أن هذا الأمر قد تزامن مع عمرو بن العاص معتمدا على رواية ابن عبد الحكم (٣٦) ، التي يفهم منها أن أحوال مصر الداخلية كانت تتطلب عودة عمرو سريعا ، حيث ذكر: ((فأتى عمرو كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ، ونقض ما كان بينه وبينهم)) ويضيف مع إنه يمكن الشك في هذه الرواية إذ أن المقوقس توفي عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م ، إلا إنه لاغبار عليها من حيث الموضوع ، فقد أتت ثورة الإسكندرية وغدر الروم بالعرب بعد حوالى عامين ، لكن من المعتقد أن هذه الرواية مرتبطة بفتح برقة .

وليس هناك شك في أن أحوال مصر المضطربة أثناء الفتنة الكبرى وما أعقبها من صراع بين على ومعاوية كان له أصداء في فتوحات إفريقية ، لاسيما أن مصر كانت مسرحا للثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان ، وكذلك اضطراب العثمانية فيها بزعمارة معاوية بن حديج، حتى أن الفتوحات توقفت ما يقرب من ثلاثة عشر عاما (٣٧).

وإذا كان دور مصر العسكري واضحا منذ البداية ، فهذا ليس معناه تلاشى دور الخلافة، باعتبارها المسئولة عن توجيه الحملات وتبني سياسة الفتوحات ، فالحملات الأولى لم تخرج إلا بأمر الخلافة ، كما أنه قد تم تجهيزها بالمال والسلاح وإختيار القادة .

بيد أن أحد الدارسين (٣٨) يرى ((أنه منذ غزوة عبد الله بن سعد أصبحت الخلافة تقيم مباشرة بأمر هذه البلاد وأن سلطان والى مصر لم يعد مطلقا على الجيش الأفريقى ، ويعمل تلاشى هذا الدور بعد ذلك بأن عمرو بن العاص بعد رجوعه إلى ولايته الثانية على مصر لم يقيم بأى نشاط في بلاد المغرب)) ولما نقشة هذا الرأى لابد أن نقرر أن الفتوحات الفعلية لم تبدأ إلا مع غزوة العبادلة بمعنى أن ما قام به عمرو قبل ذلك في برقة وطرابلس كان لتأمين حدود مصر الغربية أو مجرد غارات استطلاعية على أطراف إفريقية فلم بها عمرو ومن بعده عبد الله بن سعد ، أما فيما يخص ولاية عمرو الثانية والتي كانت عام ٣٨ - ٤٣ هـ / ٦٥٨ - ٦٦٣ م ، فخلال هذه الفترة كان نشاط عمرو ملحوظا ، فأرسل في عام ٤٠ هـ / ٦٦٠ م شريك بن سمى الغطيفى إلى لواتة (٣٩)، وتبع ذلك غزواته إلى مزانة

وما تلاها من فتح غدامس عام ٤٢هـ / ٦٦٢ م ، وهوارة عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م (٤٠) .
وانتهت هذه الغزوات في العام الذي توفي فيه عمرو (٤١) .

صحيح أن هذه الغزوات كانت في برقة و طرابلس ، لكنها تؤكد نشاط عمرو بن العاص خلال هذه الفترة ، كما أننا لا نستبعد إنه قد وجه معاوية بن حديج إلى إفريقية بأمر الخلافة خاصة أن غزوات ابن حديج في عامي ٤٠ ، ٤١ هـ والتي يعتبرها البعض غزوة واحدة تقع في ولاية عمرو الثانية لمصر (٤٢) .

ولم ينته هذا الدور العسكري الذي قامت به مصر في إفريقية حتى بعد إختطاط مدينة القيروان عام ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ، تلك المدينة التي أصبحت قسبة بلاد المغرب والقاعدة الجديدة والدائمة للفتوحات من خلال ما قامت به من أعمال حرية داخل البلاد ، ومع ذلك فكان لابد من إستمرار دور مصر بسبب تفجر المقاومة البربرية في إفريقية . ولأن والي مصر ظل مهيمناً على أحوال إفريقية ، فكان عليه أن يعتمد على القوة العسكرية الموجودة في مصر .

ومع أن المصادر لم تشر إلى إشترك جند مصر في حملة حسان بن النعمان ، والتي أختلف المؤرخون في تحديدها (٤٣) ، وهذا راجع إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان أصدر الأمر بتكليفه بالحملة ثم أمره بالبقاء في مصر ، فمن الراجح أن حسانا اصطحب معه أعداداً منهم إلى جانب إعتماده على جند الشام (٤٤) ، كما إشترك جند مصر في فتوحات موسى بن نصير حتى تم إنجاز الفتح (٤٥) .

وسرعان ما تفجرت ثورات الخوارج في بلاد المغرب في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي ، فأنضم إلى جيش كلثوم بن عياض القشيري ثلاثون ألفاً من أهل الشام ومصر (٤٦) ، لأن الخليفة هشام بن عبد الملك كتب إلى والي كل بلد ومنها مصر أن يخرج بمن معه (٤٧) . وبعد الهزيمة أرتد جند مصر مع جند إفريقية إلى القيروان (٤٨) ، ولم نسمع عنهم بعد ذلك ، فلعلهم استبعدوا مثل العرب القدامى وسرحوا فيما بعد . ومع قيام الخلافة العباسية استعان الخليفة السفاح بجند مصر لتأكيد النمط المركزي للخلافة ضد عبد الرحمن بن حبيب الذي خرج على الخلافة منذ الأمويين ، فأرسل الجيوش من مصر من خلال حملة أبي عون عام ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م ، والتي عززت بحملة بحرية وصلت إلى الإسكندرية في نفس العام . ولكن لم يقدر لهذا العمل العسكري أن يستكمل بسبب وفاة الخليفة (٤٩) .

أما عن الدور السياسي الذي لعبته مصر في إفريقية ، فمن الملاحظ أنه كان مصاحباً للدور العسكري ، ويتضح هذا الدور في تبعية إفريقية لحكومة القسطنطين ويطالعا

البلاذرى (٥٠) بنص يفيد هذه التبعية المبكرة ، فيذكر : ((أن الخليفة عثمان بن عفان جعل لأبن سعد ولاية مصر والمغرب)) كما يذكر النويرى (٥١) : ((أن معاوية بن أبى سفيان أقر معاوية بن حديج على إفريقية وأفردها عن مصر)) . ويضيف الدكتور حسين مؤنس (٥٢) : ((أن معاوية أراد بعد وفاة عمرو إسترداد الحق الذى كسبه فى ولاية إفريقية واعتبرها ولاية قائمة بذاتها يولى من عنده واليا تكون صلته به مباشرة)) .

وبالنسبة لرواية البلاذرى . فحتى خلافة عثمان بن عفان ، لم يكن هناك كيان إسلامى فى إفريقية ، لأنها كانت مرحلة فتوحات لم تستقر بها الجيوش العربية بعد ، لذلك من المقبول أن الخليفة قد عهد لأبن سعد بقيادة الحملات ، ومعنى ذلك أن التبعية كانت مجرد تبعية عسكرية ، لأن الفسطاط كانت حتى ذلك الوقت قاعدة عسكرية لانطلاق السرايا والغلات على أطراف إفريقية ، وحتى بعد خروج غزوة العبادلة ظلت الفسطاط تلعب نفس الدور . وفيما يخص رواية النويرى ، فهل يعنى أفراد إفريقية عن مصر إنها كانت تابعة لمصر ثم رفعت تبعيتها ؟ ، لا نستطيع أن نؤكد ذلك ، لأن مسألة إنشاء ولاية فى إفريقية لم تكن قد طرحت بعد (٥٣) وإذا كان معاوية قد أراد أن يكافئ أحد أنصاره وهو ابن حديج ويوليه على إفريقية ، فعمره أيضا كان له الفضل فى وصول معاوية إلى الخلافة كما أن معاوية لم يستطع أن يحافظ على مصر من أتباع على بن أبى طالب إلا بوجود عمرو فى مصر ، وكذلك كيف تكون إفريقية ولاية قائمة بذاتها مستقلة بعد تولية ابن حديج فمعنى ذلك أنها لم تكن تابعة لمصر إلا فى فترة قصيرة أنهت بهذه التولية .

لكن إفريقية لم تكن ولاية بالمعنى المفهوم ، فعلى الرغم من أن معظم المؤرخين (٥٤) قد ذكروا فى أحيان كثيرة أشارات تؤكد بروز الولاية منذ عقبة وحتى قبله ، ومنها ، ((أن مسلمة بن مخلد عزل عقبة ، وهو يؤمئذ والى البلد من قبل معاوية)) ، وكذلك عندما قدم عقبة على معاوية يشكو له ، فقال له معاوية : ((رددتك إلى عملك)) وكثيرا ما يصادفنا ولاية عقبة الأولى والثانية ، لكننا لا نستطيع أن نجزم بأن إفريقية أصبحت ولاية قائمة بذاتها ، لأن المؤرخين قد سجلوا هذه الأحداث فى فترة متأخرة ، ولم تغنيهم هذه القضية ، لأنها كانت قد استقرت ، فجاءت هذه التعابير على النحو الذى أسلفناه ، ومما يعين عدم بروز الولاية حتى عقبة ما ذكره ابن عبد الحكم (٥٥) : ((أن عقبة عندما قدم إلى مصر قال أن أمير المؤمنين يريد العقد لى على جيش إفريقية)) .

وفى الواقع برزت إفريقية كولاية منذ مسلمة بن مخلد الذى يعتبر أول من جمعت له مصر والمغرب عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م (٥٦) وإن كان هذا فى إطار تبعيتها للفسطاط

والتي استمرت على الرغم من اختطاط مدينة القيروان ، التي مثلت السيادة العربية في إفريقية وكذلك بعد إنشاء دار الأمانة ، فإن هذه التبعية قد استمرت لأن إفريقية حتى هذا الحين كانت قد ولدت بكيانها الإداري فقط .

وقد اتضحت علاقة مصر بأفريقية من خلال التبعية السياسية في إقدام والى مصر مسلمة بن مخلد على عزل عقبة بن نافع بعد نجاحه في التوغل في إفريقية وإحراز انتصارات على البيزنطيين وإختطاط مدينة القيروان . ومهما قيل في أسباب عزل عقبة من حيث خطته العسكرية أثناء فتوحاته والمجازر التي قام بها وموقفه من زعماء البربر وعدم محاولته كسبهم ، كما فعل أبو المهاجر دينار من بعده ، والذي سار على سياسة مغايرة لسياسة عقبة (٥٧) ، وكذلك سياسة التشدد التي أتبعها في سبيل نشر الإسلام والتي جعلت الإمبراطورية البيزنطية تصدر أوامرها بمنع الاضطهاد الديني بأفريقية حتى توجد جبهة مضادة للمسلمين (٥٨) ، فكان لابد من عزل عقبة لإحداث نوع من التوازن في البلاد ، فضلا عما قيل بشأن خوف معاوية بن أبي سفيان من محاولة عقبة الاستقلال بإفريقية ، وقد أدرك ذلك قبلا في مطامع عمرو بن العاص في مصر (٥٩) . أو لأسباب شخصية ترجع إلى مسلمة الذي أراد أن يكافئ أحد مواليه على إخلاصه (٦٠) .

ومع ذلك يظل هذا العزل أمرا يخص مسلمة وحده الذي طمع في غنائم إفريقية وأراد أن تكون لولايته من خلال تعيين أحد مواليه ، كما يظل هذا العزل دليلا على هيمنة مصر وحكومة الفسطاط على مقدرات إفريقية السياسية ، وحسبنا دليلا على ذلك عدم اهتمام الخلافة بعزل عقبة عندما قدم على معاوية شاكيا ، وأن وعده برده إلى إفريقية ، وذلك بسبب ثقل وطأة والى مصر بإعتباره واحدا من الشخصيات البارزة في الدولة الأموية ، فهو من كبار العثمانيين ومن أنصار البيت الأموي ، الذين ساعدوا معاوية على الوصول إلى الخلافة (٦١) . لهذا لم يكن في مقدور معاوية أن يرد عقبة ، كما أنه ليس معقولا أن يزيد قد رده إلى إفريقية وقطعها عن مصر، لكن رد عقبة تم بعد وفاة مسلمة بن مخلد عام ٦٢ هـ / ٦٨٢ م (٦٢) . وما يدل أيضا على هذه التبعية أن أبا المهاجر بعد توليه على إفريقية وجه بالخمسة مباشرة إلى مصر (٦٣) .

أما الحالة الثانية التي توضح علاقة إفريقية بحكومة الفسطاط في إطار التبعية ، تتمثل في عزل حسان بن النعمان أيضا عن إفريقية من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان عام ٨٣ هـ / ٧٠٢ م (٦٤) ، على الرغم من قيام حسان بدور ملحوظ في البلاد من حيث صد المقاومة البربرية التي تزعمتها الكاهنة وإشراك البربر بشكل فعلى في الجيش (٦٥) ، والتسوية

بينهم في تقسيم الأرض والفيء (٦٦) ، فضلا عن اهتمام حسان بعمران المدينة ، فقام بتحديد مسجدها الجامع (٦٧) ، ودون الدواوين وصالح البربر على الخراج (٦٨) .

ومع ذلك فقد تم عزله ، وتولية موسى بن نصير بسبب طمع والى مصر أيضا في غنيمة إفريقية، كما يذكر المؤرخون (٦٩) ، في حين أن السبب المباشر لهذا العزل يكمن في مشكلة برقة ، لأن الخليفة عبد الملك بن مروان أعطاهما لحسان مكافأة له ، فلما بلغ عبد العزيز ذلك حاول مع حسان أن يتركها لأنها كانت تابعة لمصر ، وأدى رفض حسان إلى قيام عبد العزيز بتمزيق العهد الذى كتبه الخليفة (٧٠) .

ومن الواضح أن هذا العزل قد إعتد أساسا على قوة والى مصر، فهو كان أنخا للخليفة عبد الملك ابن مروان وولى عهده (٧١) ، ومع أن الخليفة قد كره هذا الأمر منذ البداية وأنكره ، لكن سرعان ما وافق عليه ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات التى تبودلت بينهما (٧٢) ، وذلك بسبب ما كان بين الأخوين فيما يخص موضوع الخلافة ، فحاول عبد الملك أن يجعل عبد العزيز يتنازل عن حقه فى الخلافة أراديا ، لذلك فقد جامله على الصعيد المغربى كنوع من التعويض (٧٣) ، والدليل على ذلك أنه أنكر ما فعله عبد العزيز وهم بعزل موسى لسوء رأيه فيه لكن رأى ألا يرد صنيع عبد العزيز. وتأكدت هذه التبعية أيضا فى إرسال موسى بن نصير بأخبار الفتح والغنائم إلى مصر (٧٤). وتبين مما سبق أن مصر قد أستطاعت أن تلعب دورا سياسيا هاما فى إفريقية من خلال واليها ولهما وزن فى الخلافة ، قد استطاعا أن يستصدرا أوامرها بالعزل والتعيين بعيدا عن الخلافة وقد اطمئنا إلى أن الخلافة لم تستطع رد ما قاما به ، بسبب منزلتهما الكبيرة ، ومن اللافت للنظر أن الحادثتين قد تشابها إلى حد كبير من حيث أن كلا من عقبة وحسان قد قاما بدور هام فى الفتح ويأتى عزلهما فى فترة تألقهما وتركهما لعلامات بارزة فى البلاد وأن يحل محلهما فى كل مرة مولى تابع لوالى مصر ، وهذا ينبهنا إلى خوف والى مصر من إستحواذ عقبة ومن بعده حسان على إفريقية وهما من أسرتين عربيتين معروفتين خاصة أن إفريقية بعيدة عن أيدي الخلافة .

وإذا كان هذا الدور الذى لعبه كل من مسلمة وعبد العزيز يرجع إلى ثقل شخصية كل منهما بسبب ارتباطهما بالخلافة ، فهذا ربما لا يجعل دور مصر واضحا لكن إذا وضعنا فى الاعتبار أن هذين الواليين أو غيرهما مما تمتع بمكانة مميزة فى الخلافة ، فكان لابد أن يتولى ولاية مصر باعتبار أنها واحدة من أهم ولايات الخلافة حتى أن عمرو بن العاص قال : ((أن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة (٧٥))) .

ويرى أحد الدارسين (٧٦) ((أن طمع عمال مصر في ولاية المغرب أدى إلى وجود نزاع بينهم وبين الخلفاء ، وهذا الصراع أدى إلى تأخر شخصية المغرب الكاملة وأخذ صفة الولاية المستقلة ، فظلت تابعة للخلافة رسمياً خاصة بعمال مصر، وحرصت الخلافة على استرداد حكم المغرب من يد عمال مصر))، ويضيف ((أنها كانت قائمة بذاتها من أول الأمر لكن ولاية الفسطاط نازعوا الخلافة فيها)) .

بداية لا نستطيع أن ننكر طمع ولاية مصر في السيطرة على إفريقية وبلاد المغرب بشكل عام . وإن كان بذلك ينفي تبعيتها لحكومة الفسطاط ، كما أن ولاية مصر لم يكونوا من وراء تأخر استقلال إفريقية بشئونها ، لأن ما حدث لها قد تأثر أساساً بأحوالها المضطربة وساعد على استمرار تبعيتها للفسطاط ، فقد تفجرت المقاومة البربرية مع عقبة ثم حسان ، حتى أن القيروان تم احتلالها في المرتين ، فقد استطاع كسيلة أن يدخل القيروان بعد مقتل عقبة في تهودة عام ٦٩هـ / ٦٨٨م واستقر بها لمدة خمس سنوات (٧٧) ، وهي نفس الفترة التي احتلت فيها الكاهنة القيروان وكل إفريقية بعد هزيمتها لحسان بن النعمان (٧٨) ، معنى ذلك إنه لا يمكن أن تظهر شخصية إفريقية المستقلة إلا بعد إنجاز الفتح ، الذي تم مع موسى بن نصير ليبدأ بعده عصراً جديداً اصطلاح على تسميته بـ ((عصر الولاية)) .

أما فيما يذكره من صراع بين الخلافة وولاية مصر حول إفريقية، فلم يكن صراعاً بالمعنى المفهوم ، إنما كان حرصاً من الخلافة من أجل الحفاظ على إفريقية ، لذلك كانت تصدر أوامرها إلى قادة الفتح ، فقامت بتكليف عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج كما إختارت عقبة بن نافع ليستأنف الفتح وزهير بن قيس البلوي لاستنقاذ إفريقية من أيدي البربر وحسان بن بعده ، وكان لا يمنع الخلافة من التدخل الفعلي في شئون إفريقية في بعض الأحيان إلا ما كان بينها وبين والي مصر من قرب ومصالح ، لذلك أجهضت محاولات كل من عقبة وحسان من بعده في الإتصال بالخلافة .

وقد تزامن ظهور شخصية إفريقية المستقلة بعد وفاة والي مصر عبد العزيز بن مروان عام ٨٥هـ / ٧٠٤م ، حتى أن موسى بن نصير لم يعبا بوالى مصر الجديد وهو عبد الله بن عبد الملك ، وبدأ يرسل الرسائل بأخبار الفتح والغنائم والخمس إلى دمشق رأساً (٧٩)، ثم قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بإفراد إفريقية عن مصر (٨٠) وبذلك أصبحت إفريقية تأخذ وضع الولاية الراشدة تتمتع بكافة الحقوق مثل الولايات الأخرى ومنها مصر ، وتلحق بالخلافة مباشرة (٨١) . ويعتبر البعض (٨٢) أنه بدايته

من عام ٩٣ هـ / ٧١١ م أصبح المغرب بصفة عامة ونظرياً ولاية في الدولة العريية الإسلامية ، تقدم الجند والعبيد وتدفع الخراج و الجزية لخزانة الخلافة .

ولنا أن نقرر أن هذه التبعية السياسية لحكومة الفسطاط والتي استمرت فترة ليست بالقصيرة ، قد ارتبطت باعتماد الخلافة على مصر في عملية الفتح إلى جانب شخصية ولاية مصر أنفسهم وظروف إفريقية المضطربة .

ومع أن إفريقية قد أخذت وضع الولاية الراشدة ، فكان جل اعتماد الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية على ولاية سابقين لمصر لأخماد ثورات الخوارج ، أمثال حنظلة بن صفوان ومحمد بن الأشعث الخزاعي ويزيد بن حاتم ، تم توليتهم على ولاية إفريقية ، بسبب أن هؤلاء كانوا على معرفة تامة بأحوال إفريقية ، وأخيراً كان إعتقاد الخلافة العباسية على هرثمة بن أعين ، الذي ترك مصر وتولى إفريقية عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، ليقضى على فتن الجند التي استشرت في البلاد حتى نهاية عصر الولاية (٨٣) .

وأرتبط دور مصر في إفريقية أيضاً بالمشاركة المالية التي قامت بها منذ بداية الفتوحات ، فمن المعلوم أن مصر كانت تقوم بتجهيز الجند الخارجين إلى إفريقية بسالمون والعتاد إلى جانب ما كانت تقدمه الخلافة (٨٤) ، ومع تقدم الفتح بدأت مصر تتحمل العبء الأكبر في إعداد هذه الحملات ، فيذكر المؤرخون ، أنه بعد مقتل عقبة بن نافع ، ووقوع القيروان في أيدي البربر ، قامت مصر بتقدم الأموال إلى إفريقية ، وقد أوردوا بصدد ذلك تعابير مختلفة من خلال أوامر الخليفة عبد الملك بن مروان منها أمره إلى زهير بن قيس : ((أفرغ عليهم أموال مصر)) (٨٥) وأمره إلى حسان بن النعمان : ((أني أطلقت يدك في أموال مصر ، فأعط من معك ومن ورد عليك وأخرج إلى بلاد إفريقية)) (٨٦) ، ثم تكرر الأمر مع الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذي كتب إلى والي مصر قرة بن شريك ٩٠-٩٦ هـ / ٧٠٨-٧١٤ م : ((بأن يعطى موسى بن نصير من مال مصر ما أراد)) (٨٧) .

وهذه التعابير تدل أولاً على كثرة ما كان موجوداً في خزانة مصر من أموال آنذاك ، وثانياً: الاعتماد الكبير على هذه الأموال لإتمام الفتح في إفريقية حتى أننا نتصور أن هذه الأموال لم تكن محددة القيمة في البداية . وثالثاً : أن هذه الحرية في الحصول على الأموال من خزانة مصر ، تجعلنا نقف على حقيقة أخرى لا بد من مناقشتها من خلال ما ذكره المؤرخون (٨٨) ، فيما يخص طمع ولاية مصر في غنائم إفريقية ، خاصة عبد العزيز بن مروان ، الذي أرسل إلى حسان بن النعمان أربعين رجلاً حملوا ما عنده وأمره بالقدوم عليه ، فعلم حسان ما أراده عبد العزيز ، فخبأ ما معه من الجواهر والذهب والفضة في قرب المساء ،

ولما قدم عليه في مصر ، قام عبد العزيز بسلب جميع ما معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف . وعلى ما يبدو أن ولاية مصر كانوا مدفوعين لذلك ليس فقط بسبب الطمع ، لكن أيضا كان ذلك بمثابة تعويض عما أنفقته مصر وبدون حساب خاصة أن هذه الأوامر الصادرة من الخلافة بفتح خزانة مصر لصالح إفريقية تزامن بعضها مع ولاية عبد العزيز بن مروان على وجه الخصوص .

ثم أخذت مصر في تقديم هذه الأموال إلى إفريقية بشكل منتظم ، وتمثلت في الإعانة السنوية التي بلغت مائة ألف دينار (٨٩) . ولا نستطيع أن نحدد بداية هذه الإعانة بالضبط ، فلعل مصر بدأت في تقديمها خلال ثورات الخوارج ، لأن ولاية إفريقية كانوا قد حصلوا على مغام الذهب والفضة بعد إنجاز الفتح ، لكن السياسة المالية الجائرة ، التي أتبعها الولاة أدت إلى تفجر هذه الثورات ، لذلك كان لابد من تقديم الأموال لولاية إفريقية بشكل منتظم ، خاصة أن هذه الثورات استمرت ما يقرب من نصف قرن ، وبعد فترة قصيرة اندلعت فتن الجند ، فكان لابد من استمرار هذه الإعانة ، حتى نهاية عصر الولاة ١٨٤هـ / ٨٠٠ م .

لكننا لم نقف على حقيقة هذه الإعانة ومقدارها إلا بعد انتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة الأغالبة ، ومن خلال قيام إبراهيم بن الأغلب ، بالتنازل عن تلك الإعانة التي تقدمها مصر (٩٠) ، ولعلها قد استمرت فترة من حكم الاغالبة ، فيبدو أن ابن الأغلب لم يستطع أن يفي بالتزاماته تجاه الخلافة بسبب قيام الجند بالثورات ومطالبتهم بأرزاقهم ، فيذكر البلاذري (٩١) : ((فلم يلبثوا أن أتاهم العراض والمعطون ومعهم خراج مصر)) ويفهم من هذه الرواية أن هذا الجزء كان يقطع من خراج مصر ، فهل كان يقطع من خراجها الذي كان يوجه إلى الخلافة أو أن هذه الأموال كانت ترسل من خزانة مصر بعد الوفاء بالتزاماتها تجاه الخلافة ؟ .

وعلى ما يبدو أن الأمرين محتملان على اعتبار أن تنازل إبراهيم بن الأغلب عن هذه الإعانة مقابل الحصول على الولاية يجعلنا نعتقد أن هذه الأموال كانت تقطع من حصة الخلافة من خراج مصر ، كما أن تحمل خزانة مصر لهذه الأموال يعد أيضا أمرا مقبولا ، بسبب ما قامت به مصر قبلا من تقديم المساعدات المتوالية إلى إفريقية .

وبذلك يظل استمرار المشاركة المالية حتى بعد إنتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة تابعة للخلافة دليلا على إثبات دور مصر وقدرتها المالية وارتباط هذا الدور بطبيعة الأحداث المتلاحقة في إفريقية من حروب فتح وثورات خوارج وفتن جند .

وأسهمت مصر أيضا في إنشاء أول قاعدة بحرية في إفريقية ، وذلك بسبب الظروف السياسية التي طرأت على البحر المتوسط بعد انتقال الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني إلى صقلية و اتخاذ سرقوسة عاصمة له للحفاظ على ممتلكاته في إفريقية (٩٢) ، خاصة وأن هذه القاعدة قد عرقلت الفتوحات ، كما أدى فقدان العرب لقوة بحرية في البداية إلى ترك المدن والحصون للبيزنطيين على الساحل (٩٣) . وما كان من نكبة عقبة بن نافع في تهودة إلا بسبب إغفاله القوة البحرية ، وكان انسحاب زهير بن قيس بعد نجاحه في استعادة مدينة القيروان من كسيلة ، بسبب نزول حملة بحرية بيزنطية ، وكذلك كانت إستعانة حسان بن النعمان ببعض القطع البحرية الإسلامية أثر في سقوط قرطاجنة .

لذلك كان اتخاذ قاعدة بحرية في إفريقية أمرا محتوما ، ولم يأت مصادفة ، وعلى ذلك أمر الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بإرسال ألف قبلى بأهله وولده إلى إفريقية لإنشاء دار صناعة بها (٩٦) ، وكان دور هؤلاء الأقباط واضحا في إنشاء أسطول إفريقية لسابق معرفتهم وخبرتهم في هذا المجال ، فكانت مصر مركزا هاما لبناء السفن في العصر الأموي ، وسبق أن استخدم معاوية الأقباط في بناء الأسطول السورى في عكا (٩٧) ، وكانت مهمة الأقباط في إفريقية مزدوجة ، فكان عليهم حفر الميناء وبناء السفن ، فتم حفر ميناء تونس بحفر قناة إلى الداخل إثني عشر ميلا (٩٨) ، لذلك يعد هذا الميناء ميناء داخليا ، ويمثل قاعدة أمينة من خطر البيزنطيين (٩٩) ، كما كان يشارك بعض الملاحين المصريين في أسطول إفريقية في بعض الأحيان (١٠٠) .

وإذا كان ميناء تونس قد أنشئ بفضل الأقباط ، فمدينة القيروان منذ إختطاطها قد تأثرت بالعرب الوافدين عليها منذ بداية الفتح ، فعلى ما يبدو أن أهل القيروان قد بنوا دورهم على غرار منازل الفسطاط من حيث الموقع والطراز (١٠١) ؛ لأن القبائل التي أتت إلى إفريقية منذ البداية كانت معظمها من عرب مصر ، وربما إستمر هذا التأثير بسبب مجيء الأقباط ، الذين أتوا بأسرهم إلى إفريقية منذ حسان بن النعمان وإستقروا في تونس وعمروها (١٠٢) ، إلى جانب التابعين الذين توالوا عليها طوال العصر الأموي من مصر واستوطنوا القيروان (١٠٣) ، وإن كان دور هؤلاء ليس واضحا بسبب غلبة أهل الشام وأهل خراسان الذين توافدوا على إفريقية بشكل كبير خلال العصر الأموي والعباسي (١٠٤) .

ومن الملاحظ أن العلاقة بين أهل إفريقية وأهل مصر من العرب ، الذين أتوا عليها لم تكن علاقة تعال ، فلم يأنف منهم أهل إفريقية ، كما أنقوا من أهل الشام ، وسبب ذلك أن هؤلاء الجند الوافدين كانوا من العرب اليمنية مثل العرب المستقرين في إفريقية (١٠٥) ،

بدليل إنه بعد هزيمة العرب في بقدورة أمام الخوارج الصفرية عام ١٢٣ هـ — / ٧٤١ م ،
سار أهل إفريقية ومعهم أهل مصر في ناحية وأهل الشام في ناحية (١٠٦) .

أما عن الدور الثقافي ، الذي لعبته مصر في إفريقية ، فقد اتضح منذ البداية مع الجند
الوافدين مع الحملات ، ثم تلتها مرحلة أخرى أكثر وضوحاً بعد إختطاط مدينة القيروان وما
أعقبها من إنجاز الفتح ودخول البربر في الإسلام ، الذي كان يتطلب تعليمهم أمور الدين ،
ولم يكن ذلك إلا من خلال معلمين عرب ، وهؤلاء كانوا من الشرق وبصفة خاصة من
مصر (١٠٧) ، فقد شملت بعثة العشرة التابعين التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيه
أهل إفريقية في الدين عدداً منهم أمثال بكر بن سودة الجذامي وسعيد بن مسعود
التحبي وحبان بن جبلة (١٠٨) ، وقد سكنوا مدينة القيروان ، وروى عنهم
الكثيرون من أهلها (١٠٩) .

ولقد كان تأثير مدرسة الفسطاط الثقافي من خلال عدة محاور ، فلم
يقتصر على الشكل الرسمي من قبل الخلافة ، بل تعداه إلى دور الأفراد باعتبار
أن مدينة الفسطاط كانت تمثل في العصر العباسي القاعدة القرية التي يستطيع
أهل إفريقية من خلالها الإطلاع على علوم المشرق ، وكذلك لأنها تعتبر أيضاً
المجال الذي يجتازه أهل إفريقية فيما عرف وقتذاك بـ ((الرحلة في طلب العلم
((فكان لابد من الوقوف بالفسطاط أثناء رحلتهم إلى المشرق بعض الوقت ،
يأخذون من رجالها الأحاديث وأساليب الرد على المشاكل التي تعرض لهم ،
لاسيما أن مدرسة الفسطاط قد اشتهرت بكثير من فقهاء المالكية أمثال الليث
بن سعد (١١٠) ، وعبد الله بن لهيعة (١١١) ، وعبد الله بن وهب (١١٢) حتى
أن كثيراً من فقهاء إفريقية المشهورين أمثال عبد الرحمن بن أنعم و
علي بن زياد التونسي والبهلول بن راشد كان لهم سمع من هؤلاء
الفقهاء (١١٣) ، الذين كان لهم منزلة رفيعة عند أهل إفريقية (١١٤) .

كذلك أنتقل بعض المحدثين من أهل مصر وفقهائها إلى إفريقية واستقروا
ببعض مدنها مثل القيروان وتونس وسمع منهم الكثيرون (١١٥) ، ومنهم زيد
بن بشر الذي استوطن مدينة تونس ، وكان يفد إليه الناس من القيروان
ليسمعوا له (١١٦) ، كما روى أهل إفريقية الحديث عن فقهاء مصر ، بالإضافة
إلى إنتشار كتب الفقهاء المصريين في إفريقية أمثال كتب عبد الله بن وهب

ومنها ((كتاب الأهوال)) (١١٧) ((وكتاب الزهد)) لعلى بن زياد الحمصي (١١٨).

لكن بالنسبة لعلوم اللغة ، فلم نستطع أن نقف على دور مدرسة الفسطاط وذلك لأن مدرستي الكوفة والبصرة قد لعبتا دوراً واضحاً في هذا المجال ، مع بقاء دور مدرسة الفسطاط كواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامي .

ومع أن الدور الثقافي لمصر في إفريقية خلال هذه الفترة لم يتبلور بشكل واضح ، لأن المجتمع الإفريقي كان لا يزال جنيئاً؛ فإن القيروان كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية فيما بعد قد ولدت في الفسطاط كما أنها قامت على أصول مصرية (١١٩) .

صفوة القول ، أن الدور الذي لعبته مصر في إفريقية بداية من الفتح إلى نهاية عصر الولاة ، رغم تعدده ، إلا أنه كان في الغالب يمثل الجانب الرسمي من خلال الاعتماد على مصر وولاها فأصدرت الخلافة الأوامر المتتالية ليخرج أهل مصر من عرب وأقباط لتنفيذ هذه الأوامر .

الهوامش

- (١) جمال حمدان، شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٨١، ص ٧٨٧ .
- (٢) نفسه ، ص ٧٨٤ .
- (٣) نفسه ، ص ٧٨٥ وذلك بسبب ارتباطها بالمحيط الأطلسي - البحر المتوسط - البحر الأحمر والمحيط الهندي .
- (٤) نفسه ، ص ٧٨٨ .
- (٥) نفسه ، ص ٤٥١ .
- (٦) سورة البقرة ، آيه ٦١ .
- (٧) سورة الزخرف ، آيه ٥١ .
- (٨) سورة يوسف ، آيه ٥٥ .
- (٩) الكندي ، فضائل مصر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٧ .
- (١٠) نفسه ، ص ٢٦ .
- (١١) نفسه ، ص ٥٧ .
- (١٢) نفسه ، ص ٤٦ .
- (١٣) سيدة كاشف ، مصر في فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥٨ .
- (١٤) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، الطبعة الرابعة، مزينة و منقحة القاهرة ١٩٧٣، ص ١١٣ .
- أرسل معاوية عمرو بن العاص في بداية عام ٣٨ هـ / ٦٥٨ م ، ليخضع مصر التي كانت تعد وجوده في الشام ، لكثرة أتباع علي بن أبي طالب فيها أنظر ، ابن الأثير ، الكامل ، القاهرة ١٩٨٣ ، ج ٣ ، ص ١٣٨ . و مع فتنة عبد الله بن الزبير بعد خروج مصر عن طاعته ، لم تقف مصر على الحياد في النزاع الذي كان بينه وبين الخلافة . بل أرسل عبد العزيز بن مروان في عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م حملة إلى مكة لقتال ابن الزبير . انظر . الكندي ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ٥١ .
- (١٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ .
- (١٦) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٨٤ .
- (١٧) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
- (١٨) كانت مدينتا برقة وطرابلس تمثلان ولاية واحدة تابعة لمصر منذ أيام الإمبراطور البيزنطي موريس ثم تم انفصالها عن مصر وظلتا حتى الفتح العربي مستقلتين وقامتتا بثورات متتالية ضد الحكم البيزنطي وظهر فيها دويلات مستقلة متمثلة في القبائل الموجودة بها من لواتة وهوارة ونفوسة .
- انظر، Fournel, *les Berbres*, Paris, 1895, I, pp, 217-218

- (١٩) قال عمر بن الخطاب : " إنما ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادره مغدور بها لا يقربها أحد ما بقيت " انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ٢١٠ .
- (٢٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢١٠ .
- (٢١) عرفت بذلك لاشتراك عدد من أبناء الصحابة تسموا بذلك ومنهم عبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير. انظر ، ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، ليدن ١٩٤٨ ، ١ ، ص ٩ .
- (٢٢) المصدر السابق ، ٢١١ .
- (٢٣) المالكي،رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية،القاهرة١٩٥١،جـ ١، ص ١١ .
- (٢٤) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٢٤ ، ص ١٩ .
- (٢٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ .
- (٢٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣ .
- (٢٧) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
- (٢٨) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
- (٢٩) نفس المصدر ، ٢١٠ .
- (٣٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .
- (٣١) المالكي ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥ .
- (٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٣١ .
- (٣٣) نفس المصدر .
- (٣٤) حسن أحمد محمود ، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
- (٣٥) تاريخ المغرب العربي، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .
- (٣٦) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٠ .
- (٣٧) الحبيب الجنتحاني ، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .
- (٣٨) المرجع السابق ، ١٢١ .
- (٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٤٢ .
- (٤٠) الكندي ، الولاة و القضاة ، ص ٣٢ .
- (٤١) المصدر السابق .
- (٤٢) سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
- (٤٣) يذكر المؤرخون تواريخ مختلفة بالنسبة لحملة حسان بن النعمان ما بين تسع وستين وثمان وسبعين انظر، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٨ ، ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٧ ، ص ٧٣ .
- (٤٤) نفس المصدر .
- (٤٥) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .
- (٤٦) ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٤١ .

- (٤٧) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١١٢ .
- (٤٨) نفس المصدر ، ١١٣ .
- (٤٩) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب ، ص ٢٩٤ .
- (٥٠) فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ .
- (٥١) نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢١ .
- (٥٢) فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١١١ .
- (٥٣) انظر، Hicham Djait, "La wilaya d Afriqiya au II^e-VIII^e siècles. etude institutionnelle", *Studio Islamica*, tome .II, 1967, p. 70 .
- (٥٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٩ .
- (٥٥) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٥ .
- (٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٣، ج ١، ص ١٣٣ .
- (٥٧) Julien , *Histoire de l'Afrique du nord jusqu'à la conquête arabe* , Paris , 1951 . p . 16.
- (٥٨) Marçais, G, *La Berberie Musulmane et orient au moyen âge*, Paris .1946 p . 38.
- (٥٩) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٦٠) Terrasse, Henri, *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat Français*, Paris, 1975, p . 80.
- (٦١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٥ " ثم قدم عقبة على معاوية بن أبي سفيان فقال له " فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي ، فاعتذر إليه معاوية وقال :عرفت مكان مسلمة من الإمام المظلوم وتقديمه إياه وقيامه بنفسه وبذل مهجته " .
- (٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
- (٦٣) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٠ .
- (٦٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٧١ .
- (٦٥) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢١ . قد بدأ إشتراك البربر مع عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار ، لكنهم لم يدخلوا بشكل فعلى في الجيش الإسلامى إلا مع حسان بن النعمان ، الذى جند من أبنائهم اثني عشر ألفا وعقد لولدى الكاهنة كل واحد على ستة آلاف فارس .
- (٦٦) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٣٦ .
- (٦٧) البكرى ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، باريس ١٩١١، ص ٢٢؛ مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ١١٤ .
- (٦٨) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ص ٦٤ .
- (٦٩) نفس المصدر ، ص ٦٦ .
- (٧٠) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٧١) عين عبد العزيز بن مروان واليا على مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم وخلفا لأخيه عبد الملك في الخلافة ، انظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٧٧ ، ج ٩ ، ص ٦١٠ .

(٧٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٧٣) انظر، H icham Djait , op . cit , p . 83

(٧٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٧٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٠ .

(٧٦) مؤنس ، فتوح العرب للمغرب ، ص ٢٧١ .

(٧٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٧٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٧٩) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٨٠) الرقيق ، تاريخ إفريقية ، ص ٦٨ . ولكنه يذكر أن الخليفة الوليد كتب إلى عمه عبد العزيز على مصر يأمره بأن يوجه إلى إفريقية موسى بن نصير وهذا الأمر مقبول ، لأن عبد العزيز توفي قبل عبد الملك عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م

(٨١) Hicham Djait, *Histoire de la Tunisie , le moyen âge, la conquête arabe et l'Emirat*, Tunis, p. 47 .

(٨٢) عبد الله العروى ، تاريخ إفريقية والمغرب ، محاولة في التركيب بيروت ١٩٧٧ ، ص ٨٧ .

(٨٣) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٢٠٣ .

(٨٤) فتح الخليفة عثمان بن عفان بيوت السلاح للمسلمين ، كما أعان المسلمين من ماله الخلفاء بألف بعير يحمل عليه ضعفاء الناس ، كذلك قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان بإرسال معاوية بن حديج السكوني بجيش مكون من عشرة آلاف جندي من الصحابة والتابعين . انظر عذارى ، البيان المغرب ، ج ٩ ، ص ١٦ .

(٨٥) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٨٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٨٧) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٨٨) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٨٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٠٤ .

(٩٠) المصدر السابق .

(٩١) فتوح البلدان ، ص ٢٣٥ .

(٩٢) انظر، Marçais, op. cit. , p. 36.

(٩٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط . القاهرة ١٩٦٠ ، ٩٧-٩٨ .

(٩٤) نفسه .

(٩٥) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ج ٢ ، ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة

- (٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ إنشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ ٢، ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة الأرض . بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٢٠ ؛ البكري ، المغرب ، ص ٣٨ - ٣٩ و من الراجح أن إنشاءها يرجع إلى حسان لأنه تزامن مع الاضطرابات التي شغلت الإمبراطورية البيزنطية بعد عزل الإمبراطور جستنيان الثاني انظر ، أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
- (٩٧) نفس المرجع ، ص ١١٦ .
- (٩٨) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ن جـ ٢ ، ص ٥٧ .
- (٩٩) المرجع السابق ، ص ١٠١ .
- (١٠٠) المصدر السابق. وقدم عطاء بن أبي رافع الهذلي في مراكب أهل مصر، وكان عبد العزيز قد بعثه يريد سر دينية .
- (١٠١) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، جزآن ، تونس ١٩٦٦ جـ ١ ، ص ٤٨ .
- (١٠٢) البكري ، المغرب . ص ٣٨ - ٣٩ .
- (١٠٣) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٩٢ ، حاشية ٢ .
- (١٠٤) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٢٢ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٧٤ ، ٨٥ .
- (١٠٥) غلب على جيش الفتح المتوجه إلى إفريقية العرب اليمانية ، كما ساعدت أحوال المشرق بعد معركة الحرة ٦٣ هـ / ٦٨٢ م على انخراط عدد كبير من أهالي المدينة في جيش أفريقية . انظر، دوزي ، تاريخ مسلمي أسبانيا ، الجزء الأول ، ترجمة/ حسن حبشي ، ص ٧٥ .
- (١٠٦) المصدر السابق ، ص ١١٣ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٥ .
- (١٠٧) الفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة/ عبد الرحمن بدوي ، بنغازي ١٩٦٩ ، ص ٧٩ .
- (١٠٨) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨٧ ؛ المالكي ، رياض النفوس، جـ ١ ، ص ٦٤ ، ٧٥ .
- (١٠٩) نفس المصدر ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- (١١٠) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث قال عنه الشافعي: " كان الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به " توفي ١٧٥ هـ / ٧٩١ م . انظر، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧٣ ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ .
- (١١١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ولي القضاء ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م وهو أول قاضي بمصر من قبل الخليفة المنصور وصرف عنه ١٦٤ هـ / ٨٧٠ م . انظر نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .
- (١١٢) هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلمة القرشي بالولاء الفقيه المالكي المصري ، صاحب الإمام مالك ، توفي عام ١٩٧ م / ٨١٣ م . نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٦-٣٧ .

- (١١٣) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ١٢٦ ، ١٥٨ ، ٢٢٠ ؛ الدباغ ، معالم الإيمان لمعرفة أهل القيروان ، تونس ١٣٢٠ ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، ٢٦٤ .
- (١١٤) نفس المصدر ، ص ١٨٢ .
- (١١٥) نفسه ، ص ٩٢ .
- (١١٦) نفسه ، ص ٢٢٦ .
- (١١٧) نفسه ، ١٨٩ .
- (١١٨) نفسه ، ص ١١٥ .
- (١١٩) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ٤٤ .

ثانياً:

عرض الكتب العربية

Franklin, S., & Shepard, J., *The Emergence of Rus 750-1200*, (London, 1996), 450 pp., 11 maps.

عرض / طارق منصور

يستند هذا الكتاب الهام إلى أن مؤلفيه اثنان من أشهر المتخصصين في الدراسات التاريخية الروسية والسلافية في العصور الوسطى ؛ ويعكس هذا الكتاب شخصية المؤلفين وقدرتهم البحثية العالية فالدكتور / سيمون فرانكلين من القلائل المتخصصين في الدراسات السلافية في العصور الوسطى ، كذلك الدكتور / جوناثان شيرد يمكن أن نعتبره نائبا للأستاذ الدكتور / ديمتري أوبولنسكى *O. bolensky* في التاريخ الروسى الوسيط ، وكلاهما يجيد العديد من اللغات السلافية التى أهلهما لقراءة المصادر الروسية والسلافية الأصلية ؛ الأمر الذى أهلهما لإخراج هذا الكتاب فى الشكل الذى سنعرض له .

والكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أحدث إصدار عن التاريخ الروسى الوسيط ، ومحتويات هذا الكتاب تعكس وجهة نظر المؤلفين ورؤيتهما الخاصة لمجريات الأحداث فى روسيا الكيفية بدءاً من ظهور الروس فى المجتمع الدولى وحتى انهيار دولتهم وغزو المغول لها فى القرن الثالث عشر الميلادى وقد قسم المؤلفان الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسية .

الباب الأول وهو بعنوان "الجزر والمسالك" ، ويحتوى على عدة فصول : الفصل الأول وهو بعنوان "الباحثون عن الفضة من الشمال ٧٥٠ - ٩٠٠ م" وفى هذا الفصل يتعرض المؤلفان إلى الحديث عن الظهور الأول للروس وخروجهم من شبه جزيرة اسكنديناوة ، كما يتحدثان عن الإغارات التى قاموا بها على الأمم المجاورة لهم خلال تلك الفترة ، ويركزان الحديث عن الهجوم الروسى الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠ م وما نجم عنه من تحولات

فى المجتمع الروسى آنذاك، خاصة الاقتصادية ، وهذا الفصل مدخل طبيعى لتاريخ روسيا الوسيطة ويعكس العنوان الذى اتخذته المؤلفان لهذا الفصل منظورهما الاقتصادى لتاريخ الروس فى هذه الفترة. فقد كان الروس يفتقرون إلى عملة محلية ولا يمكنهم الحصول على الذهب البيزنطى ، فكانت الإغارة على القبائل السلافية ومسلمى القوقاز سبيلاً للحصول على الفضة، بل إن الجزية التى كانوا يفرضونها على القبائل السلافية كانت من قطع الفضة .

أما الفصل الثانى وهو بعنوان "التحول نحو الجنوب" فيتحدث فيه المؤلفان عن السلاف وما شابههم القاطنين فى منطقة السهوب فى القرن التاسع الميلادى ، وعن حصول الروس على موطأ قدم لهم فى حوض الدنيبر الأوسط فى الفترة من ٩٠٠ - ٩٣٠ م ؛ وهى الفترة التى شنوا فيها هجومهم المزعوم فى عهد أميرهم أولج Oleg فى عام ٩٠٧ م على

القسطنطينية وما نجم عنه من عقد اتفاق مبدئي بينه وبين البيزنطيين في نفس العام، ثم تلاه عقد معاهدة بينهما في عام ٩١١م.

وفي الفصل الثالث وهو بعنوان "روس الدينير ٩٢٠ - ٩٦٠م - تنظيم أم وفاة : تأمين الطريق إلى بيزنطة" ، لخص المؤلفان وجهة نظرهما تجاه الأحداث التي وقعت في تلك الفترة ، والتي كانت بالفعل تهدف إلى تأمين الطريق إلى بيزنطة من هجمات الأعداء المجاورين كالبشناق مثلاً. ولم يكن ليتسنى لهم ذلك إلا بعد استقرارهم في حوض الدينير . أما الفصل الرابع وهو بعنوان "التحولات والتعميد ٩٦٠ - ١٠١٥م" فينبغي أن نقف عنده قليلاً . فهذه الفترة التاريخية قد شهدت تحولاً خطيراً في المجتمع الروسي على صعيده السياسي والاجتماعي ، حيث تمكنت القسطنطينية من ترويض الروس وذلك بتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية . ففي عام ٩٨٨م غزا الأمير الروسي فلاديمير مدينة خرسون البيزنطية للرد على حث الإمبراطور البيزنطي بازيل الثاني بعهدة بـترويج أخته الأميرة أنا بورفiroجيتا

منه الأمر الذي دفع بفلاديمير للقيام بهذا الغزو ، إلا أن البلاط البيزنطي اشترط تعميده أمير الروس حتى يستطيع الزواج من الأميرة البيزنطية ، وهو ما تم في النهاية . وتكمن أهمية هذا الفصل في إلقاء الضوء على أثار هذا التعميد على الروس .

ويأتى الجزء الثانى من هذا الكتاب ليحمل عنوان "كيف والروس" ولعل المؤلفان أرادا بهذا العنوان توضيح زعامة كيف للروس في تلك المرحلة وأنها كانت محور الأحداث والتراعات الداخلية التي نشبت بين الأمراء الروس على العرش وهذا ما جعل الفصل الخامس يحمل عنوان "الشهداء والمرترقة ١٠١٥ - ١٠٣٦م" ويمكن القول أن هذا الفصل صب اهتمامه على فترة الحروب الأهلية التي أعقبت موت الأمير الروسي فلاديمير عام ١٠١٥م .

أما الفصل السادس وهو بعنوان "المظاهر المتصدعة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م" فيعنى بالدرجة الأولى بفترة حكم الأمير الروسي ياروسلاف Iaroslave ، التي شهدت بلاد الروس في عهده طفرة حضارية كبرى ، وصار لبلاده شأنًا كبيرًا في الغرب الأوربي ، حيث عقدت العديد من المصاهرات السياسية بين ياروسلاف والأسر الحاكمة في كثير من الدول الأوربية أما على الصعيد الشرقى ، فقد هبط مؤشر العلاقات السياسية بين كيف والقسطنطينية ، ومنيت الحملة الروسية على القسطنطينية في عام ١٠٤٣م بالفشل الذريع ؛ وفي الشرق أيضا تمكن ياروسلاف من كسر شوكة البشناق في عام ١٠٣٦م ، وبهذا تخلص

من خطرهم الذى ظل جاثماً على صدر الروس منذ بدايات القرن العاشر الميلادى . ويتميز هذا الفصل دون بقية الفصول السابقة بالحديث عن التأثيرات الحضارية البيزنطية على الروس ، كبناء الروس لكثير من الكنائس على الطراز البيزنطى مثل كنيسة آيا صوفيا الروسية ، وبناء القصور الملكية التى اتخذت لها أبواباً وحيوانات ورسومات ذات طابع بيزنطى خالص . لقد كاد التأثير البيزنطى على الروس شاملاً متعدد الجوانب ، كالعمارة ، والفن ، والكتابات الأدبية والدينية ، والتجارة ... الخ وهو ما أبرزه المؤلفان تماماً فى هذا الفصل .

أما الفصل السابع فقد حمل عنوان "العالم الداخلى : تطور الفكر السياسى ١٠٥٤ - ١١١٣" ويعود المؤلفان ثانية فى هذا الفصل إلى التاريخ السياسى للروس والحروب الداخلية التى نشبت بين أبناء ياروسلاف ، الذى ترك لهم وصية يحضهم فيها على الحب والاحترام فيما بينهم والتماسك والطاعة الواجبة لأخيهما الأكبر ؛ وهذه الحرب لم يخدم لهما طوال ما يزيد على نصف القرن قليلاً ، حيث امتدت من أبناء ياروسلاف إلى أحفاده . وجاء مؤتمر لوبيتش سنة ١٠٩٣م ليشر بالأمل وانتهاء الخلافات والتصعدات بين الأمراء الروس . ولم تستقم البلاد إلا بعد تولى الأمير الروسى فلاديمير مونوماخوس Vladimir Monomachus الحكم ، لتبدأ سلسلة أخرى من التصعدات فى المجتمع الروسى بعد وفاته عام ١١٢٥م .

ويتحدث الفصل الثامن الذى حمل عنوان "الأمير والمدينة ١٠٧٠م - ١١٢٠م" عن مجتمع المدينة فى روسيا وعن الرهبان ورجال المال وغيرهم . ويعتبر هذا الفصل دراسة حضارية تاريخية جادة عن تلك الفترة .

وأخيراً نصل إلى الجزء الثالث الذى حمل عنوان "قيام الولايات" ليعكس حالة التفتت التى أصابت المجتمع الروسى فى الفترة التى أعقبت موت فلاديمير مونوماخوس وحتى الغزو المغولى لبلاد الروس ، وذلك من خلال الفصلين التاسع والعاشر من الكتاب . ففى هذه الفترة صارت هناك العشرات من الولايات الروسية المستقلة ، التى كان لكل منها حاكماً مستقلاً . وكان العداء والتنافر هو السمة المميزة للعلاقات بين هذه الإمارات وبعضها البعض الأمر الذى فت

فى عضد المجتمع الروس فكان صيداً سهلاً للمغول فيما بعد .

أخيراً يمكن القول أن هذا الكتاب تميز باحتوائه على مجموعة كبيرة من الخرائط السياسية والاقتصادية لبلاد الروس فى العصر الوسيط والتى تميزت بالدقة التاريخية وجودة الإخراج ؛ فجاءت لتسد عجزاً كبيراً فى الأطالس التاريخية عن هذه المنطقة . كما تميز هذا

الكتاب باحتوائه على مجموعة مبسطة من جداول الأنساب، والتي رصد فيها المؤلفان أنساب
الأمراء الروس بداية من عهد الأمير أيجور Igor وزوجته الأميرة أولجا Olga ويمكن القول
أن هذه الجداول لم تصل في تفاصيلها التاريخية إلى المستوى الذي قدمه المؤرخ بوجمارتن
Baumgarten في دراسته الرائعة عن أنساب الأمراء الروس des
.Rurkides

محاسن محمد الوقاد ، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) ، (القاهرة ١٩٩٩)

عرض / سند أحمد عبد الفتاح

تعتبر موضوعات التاريخ المملوكي من أكثر الموضوعات التي لدينا معرفة كبيرة بها ، نادرا ما تتوفر لمجالات أخرى ، لأن الحقبة المملوكية تملك بصدها مادة تاريخية عظيمة كمال وكيفا ساعدت في استجلاء غوامض بعض الدراسات التاريخية إبان ذلك العصر .

ومن الثابت أن المجتمع المصري المملوكي كان يشتمل - إلى جانب المسلمين - على الطائفتين اليهودية والنصرانية ، وفي هذا العرض سنتناول بالدراسة والتحليل دور اليهود فحسب

في هذا المجتمع حيث لم يكونوا كيانا منعزلاً عنه ، أو بمعزل عن النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية إبان ذلك العصر ، بل اندمجوا في نسيجه فلعبوا دوراً مهماً ومؤثراً في عصر سلاطين المماليك .

وليست ثمة دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن تاريخ اليهود في مصر المملوكية رغم أن كتب المستشرقين من أمثال أشتور ، وجواتين ، ومارك كوهين و يعقوب مان تحفل بأكثـر من مسح لأحوال اليهود ، لكن هذه الدراسات في الغالب - وهو أمر جـد مفهـوم - لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة ، ومن هنا تنبع الأهمية الحقيقية لهذه المحاولة العلمية التي ترمى إلى توضيح حقيقة دور اليهود في مصر المملوكية بشكل موضوعي ودون تحيز .

والكتاب الذي بين أيدينا محاولة رائدة في هذا المجال ، وهو في الأصل الأطروحة التي تقدمت بها المؤلفة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب - جامعة عين شمس ، حيث تحاول فيه مقابلة ما أورده المؤرخون العرب ، وما جاء في نصوص الجنيزة ، بصدد طائفة اليهود في مصر إبان العصر المملوكي بهدف تصحيح العديد من المفاهيم المغلوطة بالنسبة للطوائف اليهودية .

وقد قسمت المؤلفة الكتاب إلى أربعة أبواب ، مسبقة بتمهيد عن أحوال اليهود منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام دولة المماليك ، واستعرضت فيه بصفة عامة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وموقف الطبقات الحاكمة منهم .

ثم استعرضت في الباب الأول مكانة اليهود في الدولة المملوكية من خلال ثلاثة فصول تناولت في الأول منها علاقة اليهود بالطبقة الحاكمة والجزية الواجبة عليهم ، والشروط اللازمة لعقد الذمة معهم ، وموقف سلاطين المماليك الرسمي منهم ، وكشفت النقاب لنا عن أن اليهود عاشوا كجزء لا يتجزأ إبان ذلك العصر ، وبينت مدى حرص سلاطين المماليك أنفسهم على التزام العدالة تجاههم عملاً بتعاليم الدين الإسلامي حيث قاموا بمنحهم العديد من الألقاب التي رفعت من مكانتهم ، كما أبرزت دور رئيس اليهود في الوساطة بين الدولة ورعاياها من اليهود ، ولجوء اليهود أنفسهم للشكوى منه في حالة خروجه عن الطريق الصواب ، وأثبتت كذلك أن العلاقة بين اليهود وسلاطين المماليك قد سارت في مسارها الطبيعي باستثناء بعض الحوادث العارضة والتي كان يعقبها إصدار المراسيم ضدهم ، والتي لم تلبث أن تخف حدتها تدريجياً إلى أن تقع تحت طائلة النسيان .

ثم تطرقت في الفصل الثاني إلى الوظائف الهامة التي شغلها اليهود في عصر سلاطين المماليك، لأنهم لم يكونوا مجرد أقلية منعزلة داخل هذا المجتمع ، بل ذابوا داخله وامتزجوا ببقية أعضائه من الطوائف ، فلعبوا دوراً كبيراً في مجال الطب ، وتولوا العديد من الوظائف الإدارية والمالية ، لاسيما إدارة دار سك العملة .

وعالجت في الفصل الثالث مدى التزام اليهود بالشروط العمرية ، وأماطت اللثام عن عدم التزام اليهود في معظم الأحيان بالمراسيم التي كانت تصدرها الدولة المملوكية ضدهم ، ولكن هذا لم يمنع سلاطين المماليك من السماح لهم غالباً بترميم معابدهم ، وشراء الأراضي والمنازل في سائر أنحاء البلاد .

ثم خصصت الباب الثاني لأحوال اليهود الاقتصادية ، من خلال فصلين ، تناولت في الأول منهما حرف وصناعات اليهود ، وبينت أن نسبة كبيرة منهم قد عملت بالحرف والصناعات المختلفة ، كحرفة الصباغة ، وصياغة الذهب والفضة والنحاس ، وبينت مدى التدهور الذي أصاب الصناعات والحرف في عصر المماليك الجراكسة ، ومدى انعكاسه على المجتمع المصري .

واستعرضت في الفصل الثاني النشاط التجاري لليهود ، الذين مارسوا جميع أنواع التجارة من العطارة إلى الأدوية ، بالإضافة إلى مشاركتهم في تجارة الكارم " التوابل " ، والدقيق وممارستهم لأعمال الربا والصرافة ، وهو ما أدى إلى اكتظاظ الأسواق بهم في عصر المماليك الجراكسة .

ثم عالجنا في الباب الثالث البنية الداخلية لجماعات اليهود في العصر المملوكية ، من خلال فصلين ، أثبتت في الأول منهما وجود ثلاث طوائف من اليهود ابان ذلك العصر تمثلت في الدبانين والقرائين والسامرة ، واستعرضت كذلك تنظيم شئون الطوائف الداخلية والموضوعات الإدارية التي كان يتم مناقشتها داخل كل تنظيم ، وكشفت أيضا عن مدى سماحة الدولة المملوكية لهم بممارسة شعائهم الدينية بحرية كاملة .

وتناولت في الفصل الثاني الحديث عن الزعامة الدينية والقضاء اليهودي في عصر سلاطين المماليك وأبرزت دور رئيس الطوائف اليهودية وواجباته وحقوقه ومسئوليته نحو الطوائف الثلاث ، واستعرضت مجالس القضاء اليهودي وكيفية تشكيلها ، وحق اليهود في اللجوء إلى القضاء الإسلامي ، بالإضافة إلى موقف فقهاء الإسلام من بعض المسائل الخاصة بهم ، وموقف القضاء الإسلامي من النساء اليهوديات ، وأبرزت كذلك أن مصر كانت من أهم الدول التي لجأ فيها اليهود إلى القضاء الإسلامي ربما بسبب رغبة بعض هؤلاء اليهود في الحصول من خلاله على مكاسب لم يكن بإمكانهم الحصول عليها من خلال القضاء اليهودي خاصة في مجال الموارث .

وخصصت الباب الرابع والأخير للحديث عن الأوضاع الاجتماعية لليهود في العصر المملوكي من خلال فصلين ، تناولت في الأول منهما أحوال الأسرة اليهودية من زواج وشروطه واحتفالاته ، وظاهرة تعدد الزوجات وموقف الشريعة اليهودية منها ، ودور الأم اليهودية في تربية الأطفال وتنشئتهم ، وتعرضت كذلك للمآتم والأحزان وما كان يتم خلالها داخل الأسرة اليهودي ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن ملابس اليهود في العصر المملوكية الخاصة بالرجال والنساء والأولاد والبنات .

واستعرضت في الفصل الثاني الأعياد والمواسم والاحتفالات عند اليهود ومدى سماحة الدولة المملوكية لهم بالاحتفال بها في حرية تامة ، بل ومشاركة المسلمين لهم في بعض هذه الأعياد، وتبادلها للهدايا في شتى المناسبات ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن موسم الحج ومدى أهميته بالنسبة للحياة الدينية الخاصة بيهود مصر .

وقد أثرت المؤلفة هذه الدراسة بالاستعانة بالعديد من المصادر القيمة والمتنوعة من وثائق ومخطوطات ومصادر ومراجع ، حيث استعانت بوثائق دير سانت كاترين ، ووثائق الجنيزة المنشورة ، بالإضافة إلى الوثائق الموجودة بين ثنايا المصادر العربية التي ترجع إلى عصر المماليك ، كما استعانت بالعديد من المخطوطات التي تتناول الحديث عن أهل الذمة من

يهود ونصارى ، ويأتى على رأسها مخطوط " شروط النصارى " لابن زين القاضى ، ومخطوط " المذمة فى استعمال أهل الذمة " لابن النقاش ، ومخطوط " المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الإنشا " للخالدى ، كما استعانت بالكثير من المصادر التاريخية الهمة مثل : كتاب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى ، وكتابا " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " و " السلوك فى معرفة دول الملوك " للمقرئى ، وكتاب " صبح الأعشى فى صناعة الإنشا " للقلقشندي ، كما استعانت بالعديد من كتب الطبقات والتراجم ، منها على سبيل المثال كتاب " وفيات الأعيان وأنباء الزمان " لابن خلكان ، وكتاب " سير أعلام النبلاء " للذهبي ، وكتب الرحالة العرب واليهود ، مثل : كتاب " النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة " لابن سعيد المغربي ، وكتاب " تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة ، وكتاب " رحلة طافور " للرحالة طافور ، وكتاب Travellers لأولد .

كما أثرت دراستها بالاستعانة بالكتب الفقهية مثل : كتاب " منهج الطالبين وعمدة المفتين " للنووى ، وكتاب " المدخل إلى الشرع الشريف " لابن الحاج ، كما استعانت بكتب الحسبة التى يأتى على رأسها كتاب " معالم القربة فى أحكام الحسبة " لابن الأخوة ، وكتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " لابن بسام .

يضاف إلى هذه الوثائق والمصادر استعانتها بمجموعة كبيرة من المراجع والأبحاث الحديثة باللغات العربية والأجنبية ، التى عاونت فى استجلاء غوامض هذه الدراسة .

وفى الحقيقة نجد بعد هذا العرض أن المؤلفة قد أسدت بإنجاز هذا العمل أهمية لا تنكر للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية ، اذ بدون هذه الدراسة يصعب على الباحث التعرف على حقيقة الدور الذى قام به اليهود طوال العصر المملوكى بشكل موضوعى ، حيث امتازت هذه الدراسة بوضوح الرؤية وتحديد المنهجية ، ومدى وضوح الحاجة لهذا العمل والهدف من إعدادة .

يبد أن تلك الميزات يقابلها على الطرف الآخر بعض الجوانب التى ربما تحتاج (فى رأى المتواضع) على الأقل إلى إعادة نظر ، ومن هذه الجوانب طول الفترة المعنية بالدراسة والتى نطمع من خلالها أن تخرج لنا دراسات عن أحوال اليهود فى مصر المملوكية تكون أكثر تخصصاً ، كأن تكون فى عهد أحد سلاطين المماليك مثلاً ، كما نطمع أن تزين

دراستها المستقبلية عنهم بالوثائق غير المنشورة كى تكشف لنا أضواءً جديدة تضيفى من خلالها المزيد عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية.

وأخيرا فلعلنا بعد قراءة هذا الكتاب ، سنلمس مدى الجهد الكبير الذى بذلته المؤلفة لإنجاز هذا العمل العلمى الجاد الذى هو ثمرة سنوات طويلة متصلة قضتها فى هذا العمل الشاق ، لذا فهو بلا أدنى شك يسد ركنا مهماً فى المكتبة العربية كانت فى حاجة إليه، على اعتبار أنه وجبة علمية دسمة للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية .

أسعار بيع النسخة

❖ داخل جمهورية مصر العربية.

- للطلاب الجامعيين: (١٠ جنيهات مصرية).
- للأفراد: (١٥ جنيهات مصرية)
- للهيئات الرسمية والكليات الجامعية: (٢٠ عشرون جنيها مصرية متضمنا مصاريف الشحن).

❖ خارج جمهورية مصر العربية

- للأفراد: (عشرة دولارات أمريكية).
- للهيئات العربية والأجنبية: (٢٠ عشرون دولارا أمريكيا متضمنا الشحن).

Prices Per issue Out Side Egypt.

- Individuals: U.S.\$ 10.
- Arab & Foreign Organizations: U.S.\$ 20 including Freight Charges.

الجزء الثاني:
القسم الأجنبي

fait systématiquement au cours du livre avec beaucoup d'à propos, il pose une question de fond. Pourquoi l'Islam at-il favorisé ces formes d'expression et de quelques significations sont-elles les vecteurs? Sans entrer dans le détail, il offre quelques éléments de péponse, en définissant en deux pages puissantes (pp. 185 - 187) le système qui, selon lui, sous-tend ces formes. Le mode ornemental est ce système, épiphénomène qui confère à l'art de l'Islam toute son originalité au regard des autres arts. Il transfigure les choses et sert d'intermédiaire visule entre l'homme et l'objet créé, un intermédiaire qui établit aussi une relation affective entre ces derniers.

L'ouvrage de O. Grabar apparaît au final comme une efficace et utile mise au point sur l'étude de l'art islamique, non seulement par des propositions d'approches nouvelles et d'explications concernant certains points obscurs, mais également par une mise en garde contre les travers qui affectent cette étude. Nous lui sommes reconnaissants, de surcroît, de poser des questions et de souligner systématiquement les aspects lacunaires de la dite étude, ayant ainsi balisé le terrain de la recherche future.

La seconde rubrique est consacrée aux arts associés au pouvoir . Les interventions successives des princes sur les grands édifices, telles la Coupole du Rocher et la Grande Mosquée d'Isfahan, procèdent de cette association et forment ce que O. Grabar appelle "la petite histoire" (p. 141), aussi riche de signification que la grande histoire. A travers celle-ci et celle-là, l'auteur cherche toujours une réponse à la question essentielle du facteur religieux comme constante dans la conception artistique en Islam. En effet, certains cas présentent une ambivalence dans le sens où des facteurs socio-culturels semblent avoir présidé leur conception artistique. Considérés sous cet angle, l'architecture palatiale aulique et bourgeoise et les objets de luxe paraissent moins problématiques puisque clairement liés aux besoins des classes dirigeantes ou riches. O. Grabar, passant en revue les aspects fonctionnels, esthétiques et techniques de ces ouvrages, intime au lecteur de mettre l'accent sur deux niveaux d'analyse, comparatif et descriptif, lesquels font ressortir l'originalité de ces productions plus ou moins profanes. Par extension, il soulève un questionnement pertinent sur la signification du luxe en rapport avec le religieux en Islam, partant du phénomène particulier de l'adaption de nombre d'objets précieux par les chrétiens pour leur propres usages .

La dernière rubrique concerne l'ornement. Pour cerner les spécificités esthétiques de cet art en Islam, l'auteur propose une méthode d'interprétation originale, fondée sur les deux principales facultés de l'observateur, l'appréhension et la compréhension de l'objet. Cette méthode consiste à classer les différentes formes d'art étudiées en fonction de leurs propriétés, variables, à permettre à l'observateur d'exercer ces deux facultés. S'appuyant sur diverses oeuvres exemplaires, O. Grabar fait une démonstration très convaincante de son approche. On voit bien comment certaines de ces oeuvres présentent des signes visuels limpides autorisant une lecture immédiate, alors que d'autres possèdent des caractères plus ambigus, laissant l'observateur dans l'incertitude . L'auteur se penche, pour finir, sur l'écriture et la géométrie . Comme il l'a

monumentaux, telles les mosquées ottomanes à multiples coupoles . Le XIX^{ème} siècle, si négligé par les observateurs, s'avère pourtant très intéressant remarque O. Grabar. Un environnement et un urbanisme se créent dans lesquels les musulmans d'aujourd'hui se reconnaissent. Enfin, le monde contemporain, est d'une grande richesse de documents, photographies, dessins, etc., dont l'exploitation reste à faire, peut-être sous l'angle particulier de la dialectique tradition et modernité .

A l'issue de ce panorama, O. Grabar réaffirme la nécessité de constituer l'histoire spécifique de chacune de ces périodes pour valoriser les différentes séquences de l'art islamique, aussi complexe, de ce point de vue, que celui de l'Europe. Par là même, il se demande quels sont les facteurs de ces changements: sont-ils le fait des nouveaux peuples puissants ou de rythmes internes de la civilisation islamique ? Enfin, une dernière réflexion doit être retenue nous dit l'auteur: il est impératif de saisir l'équilibre entre les autorités civiles et religieuses et la masse des croyants, afin de déterminer les facteurs de formation du goût spécifique à chaque période .

Dans la seconde partie, les créations sont regroupées sous trois rubriques. O. Grabar aborde la première rubrique, "urbanisme et foi", en dénonçant le poncif - qui fait long feu - de la ville islamique type. Il n'en reconnaît pas moins un certain nombre de signes distinctifs dans lesquels la société musulmane se retrouve . Les grands sanctuaires de la Mecque, de Médine et de Jérusalem, communs à tous les musulmans, comptent parmi ces signes, essentiellement exprimés dans l'architecture . En second lieu, il y a toutes les formes du bâti ayant servi de support à une piété diversifiée, liée aux cultures locales : les sanctuaires locaux, les grandes et les petites mosquées, les fondations sociales (*madrassa*, *ribât*, hôpital, etc.) et les mausolées religieux. Ces édifices ont permis la conquête de nouvelles formules de construction, en particulier dans les coupoles. A propos de ce dernier thème, l'auteur s'interroge avec raison sur son caractère sacré intrinsèque ou seulement circonstanciel dans l'architecture de l'Islam .

hypothèse est que l'art de l'Islam émane inévitablement de ce qui l'a précédé car les conquérants ne connaissaient que ces oeuvres antéislamiques et la main d'oeuvre qu'ils employaient était formée à des pratiques également antéislamiques . Cependant, l'observation de la Coupole du Rocher, exemple type de monument ancré dans la tradition architecturale antique, O. Grabar met à jour un nouveau langage esthétique et s'interroge sur sa nature. Loine d'être uniforme, ce langage s'est modulé d'une zone géographique musulmane à l'autre, en fonction des cultures locales plus ou moins riches et de l'empreinte plus ou moins forte qu'elles laissèrent dans la mémoire collective . A ce titre, l'auteur établit une hiérarchie de ce legs antique, dans laquelle l'Iran occupe le premier rang .

La dernière contrainte est la force de l'histoire. Là, l'auteur s'insurge d'emblée contre les préjugés ayant conduit à une vision uniformisante de l'art islamique . Et, brochant à grands traits les huit grandes étapes qui ont forgé cet art, il s'applique à en montrer les principales innovations apportées au cours du temps. Ainsi, sous les Omeyyades, se forment des pratiques artistiques répondant aux besoins de la nouvelle religion dans le cadre classisant de la Syrie . L'époque des Abbassides voit la domination politique et culturelle de l'Iraq, mais aussi l'apparition de centres satellites comme Al-Andalus . Durant le "Moyen Age islamique " (1250 - 1500), l'arrivée en scène de nouveaux peuples, Berbères, Kurdes et Turcs, provoque une explosion artistique ; notamment, la réaction sunnite amène la création de l'institution de la *madrasa* . Entre 1250 et 1500, l'expansion mongole inaugure une séparation entre le monde arabe et le reste du monde musulman où une nouvelle culture artistique fleurit. C'est l'éclosion de la peinture persane, tandis qu' Al-Andalus disparaît et que le Maghreb se replie sur lui-même . L'Egypte des Mamelouks quant à elle, ne participe pas aux révolutions artistiques de l'Est affirme l'auteur. Nous ajouterons, pour notre part, que cela n'a pas empêché cette dernière de développer un style puissant et original. Avec les grands empires (1500 - 1800), s'érigent les célèbres programmes

O. Grabar rappelle ensuite que l'art islamique a été objectivé au XIX^{ème} siècle par les observateurs Occidentaux et non par les musulmans eux-mêmes; ce qui ne va pas sans conséquences qu'il met en évidence en vue d'élaborer une nouvelle manière de penser l'art islamique, inspirée des approches classiques historique et interprétative, et de l'appréhension idéologique, plus actuelle . Ses directions de réflexion ainsi tracées, l'auteur entreprend sa discussion autour de deux principaux pôles, les contraintes et les créations de l'art islamique .

Dans la première partie, O. Grabar pose la question fondamentale de l'existence d'une doctrine des arts en Islam. Pour y répondre, il recherche les fondements de cette doctrine dans les deux premiers siècles de l'Hégire et, bien sûr, dans le Coran . Si celui-ci ne fournit pas de développement doctrinal sur l'art, il n'en induit pas moins des valeurs qui ont été déterminantes pour la création artistique islamique. L'auteur illustre cette idée par l'analyse des exemples de la mosquée et surtout du prétendu iconoclasme de l'Islam . Ainsi, sans qu'un interdit de l'image ne soit explicitement formulé certaines formes plastiques liées à l'idolatrie sont dénoncées dans le texte saint et, par là, ont entraîné une méfiance généralisée envers la figuration . Cependant, O. Grabar démontre que ce phénomène a également des causes sociales . Dans un contexte où chrétiens et zoroastriens se trouvaient en proie à de complexes discussions sur l'image, le rejet de celle-ci par les musulmans s'inscrit en contre-poids; le thème discuté était jugé par eux d'une importance excessive . Par la suite, la vision islamique a évolué, mais on ne sait encore comment au juste. Pour mieux la saisir, l'auteur suggère une relecture des *hadith* et de divers textes susceptibles de contenir des indications sur l'esthétique islamique .

Autre contrainte examinée par l'auteur, l'héritage antique. Il dégage deux hypothèses concernant les modalités d'assimilation de cet héritage par les musulmans . Selon la première hypothèse, l'Antiquité classique méditerranéenne, dominante dans le premier art islamique, s'est imposée en raison de sa puissance d'expression du pouvoir . La seconde

Compte rendu de Oleg GRABAR, *Penser l'art islamique , Une esthétique de l'ornement*, Paris, Albin Michel, 1996, 211 pages.

Par V. Gonzalez

Après le brillant essai *The Mediation of Ornament*, publié en 1992, O. Grabar nous offre de nouveau la possibilité de prendre connaissance de ses exposés oraux en les consignants par écrit. Cet ouvrage reprend en effet un cycle de huit conférences données à L'Institut du Monde Arabe, à Paris. Par ce biais, l'auteur nous communique l'essence "brute" de sa pensée sur l'art islamique, dégagée des longues argumentations historiques qui permettent une compréhension plus fine de celle-ci, mais rendent moins directement accessible son sens profond .

Dans une ample introduction, O. Grabar justifie son approche des formes visuelles islamiques en faisant une mise au point méthodologique. Il souligne la nécessité du recours à l'étude comparative avec les autres arts, afin de mettre en évidence les spécificités de la production en Islam, dans une perspective universelle . Puis il énonce les multiples autres possibilités d'appréhension de cette production, en exposant leurs avantages et leurs inconvénients. Un des problèmes majeurs est de savoir si, pour définir tel ou tel type d'oeuvre, on doit retenir le critère national ou ethnique ou bien le critère dynastique. En l'absence de réponse consensuelle à cette question, O. Grabar constate à regret que l'art de l'Islam occupe toujours une place à part dans l'histoire générale des arts. Il se demande si cette spécificité n'est pas illusoire et simplement due à une connaissance encore embryonnaire du sujet. Isoler ainsi l'art islamique revient, aux yeux de l'auteur, à l'enfermer dans le cercle étanche d'une histoire interne réductrice, alors qu' à l'instar des autres arts, il a connu une évolution en plusieurs étapes distinctes. C'est pourquoi, il propose d'explorer la source sûre de l'historiographie des arts de l'Islam et, plus généralement, de mettre à profit la problématique contemporaine de l'histoire des arts.

domaine. Peut-être aurons nous plus de chance un jour pour les réaliser.

trois genres de chasse: la chasse au faucon , la chasse au chien et la chasse au guépard . Ce dernier n'était pas assez fréquent en Égypte, car, il nécessitait beaucoup d'argent. Il était, alors , consacré à la classe règnante et aux riches .

Nous avons recherché , d'autre part , les jeux d'esprit qui était connus aux palais fâtimîdes soit pour les califes soit pour les femmes du harem royal .

Les gens du peuple se réunissaient, parfois , aux maisons pour prendre part à ces compétitions d'esprit , notamment , ceux d'échecs , des dés et des cartes .

On peut conclure, aussi , que malgré les disettes , les troubles intérieurs et l'apparition des croisades à la deuxième moitié de l'époque fâtimîde , le peuple égyptien avait , toujours, un esprit joyeux et cherchait , partout, le divertissement et la distraction . Par ailleurs, le règne des califes fâtimîdes était assez mouvementé et prospère. Ils ont donné à l'Égypte une impulsion sociale, un nouveau aspect culturel, une vie de luxe et de magnificence . Les merveilles qui constituaient le trésor des califes, les tissus

somptueux, les remarquables planches en bois , les vases précieux , les innombrables plats de céramiques et les magnifiques aiguères en cristal de roche en sont la preuve . Ces objets nous ont gardé , en effet , les souvenirs de la vie princière à la cour fâtimîde .

Avant de terminer nos paroles à propos des moyens de divertissement , en Égypte , sous les Fâtimîdes , nous avons essayé de profiter de la marque d'élégance , du raffinement des objets fâtimîdes et des résultats de cette recherche pour encourager et aider à améliorer l'industrie de tourisme en Égypte . Nous avons enregistré quelques remarques et nous avons présenté de nouvelles suggestions qui peuvent aider à ce

s'agissait d'éclairer que , parfois , les califes fâtimîdes se déplaçaient en compagnie de leur entourage, leur harem et leurs sujets pour se rendre aux belvédères édifiées aux banlieux et aux bords du Nil pour un but de promenade très apprécié . On y assistait aux plaisirs de la vie. On y passait des soirées dansantes. Les gens du peuple sortaient , parfois , librement , aux parcs pour inspirer la simplicité de la nature . Lors du divertissement, la capitale était animée du soir au matin.

Il convient à mentionner que les séances musicales et les beuveries étaient , parfois , accompagnées de la représentation des clowns , des joueurs des ombres chinoises, de la danse acrobatique , les jeux des charmeurs de serpents et des sorciers . D'autres jeux d'animaux et d'oiseaux étaient représentés durant ces séances , et , aussi , durant le passage des cortèges des califes fâtimîdes . Les acrobates , les joueurs des ombres chinoises et les sorciers parcouraient les quartiers et les rues des villes pour que les plébeïens puissent en assister et s'amuser .

Les enfants , eux-aussi , éprouvaient un grand plaisir à participer avec les grands pour s'amuser et se divertir , surtout , lors de la célébration des fêtes . Ils avaient , en plus , leurs propres jeux qui prenaient , d'habitude , la forme des animaux et des oiseaux .

Il est évident , aussi , que les jeux sportifs avaient attiré l'attention des califes et des vizirs fâtimîdes pendant leurs loisirs . Ils ont pratiqué le jeu de polo , la course des chevaux et la natation . La danse aux triques et la lutte étaient , cependant , parmi les jeux les plus fréquents chez les plébeïens.

L'élévation d'animaux et d'oiseaux aussi bien que la chasse était un des moyens de distraction et de divertissement les plus en faveur , en Égypte , sous les Fâtimîdes . On s'amusait à ramasser les spécimens rares et bizarres des animaux, des reptils et du vol. Il y avait, aussi, autant que nous pouvons dire

Pour essayer d'être plus précis , nous avons vu qu'aux palais fâtimîdes se tenaient les séances de poésies et de littérature sous la supervision des califes , des vizirs et en présence des hauts fonctionnaires . Durant ces séances , on traitait divers sujets et les poètes récitaient leurs poésies . En se concourait à louer les califes et à exalter la gloire de leurs ascendants. Grâce à leurs habiletés et à leur ingéniosité , ils étaient comblés de faveur par les califes et leurs entourages . Il n'était pas, donc étonnant de voir arriver , en Égypte , un grand nombre de poètes de l'orient et de l'occident . Les califes , les princes et les vizirs étaient , eux - mêmes , parfois, des poètes et composaient des vers et des poèmes . Un grand nombre de princes , de hauts fonctionnaires et d'autres personnes choisies assistaient à ces séances littéraires .

Les gens du peuple avaient leurs propres séances de conversations et de poésies qui avaient lieu aux bords du Nil. On se rencontrait pour échanger les paroles , les idées et les dernières boutades . Il y avait une sorte de discussion ou de conversation durant laquelle on disait des anectodes , des plaisanteries et on parlait des nouveaux évènements . Les poètes et les narrateurs assistaient , parfois , à ces séances et récitaient aux gens des poésies . Ces réunions éveillaient l'imagination et mettaient les gens en courant avec les évènements du pays .

Durant les séances musicales, les beuveries et les parties de plaisir tenues aux palais des califes fâtimîdes, une grande majorité des musiciens , des chanteurs , des danseuses , des buveuses et des buveurs étaient présents. Les califes y invitaient, parfois , leurs sujets . On se précipitait à assister à ces séances pour se libérer des charges quotidiennes , pour profiter de la bonté et de la générosité de la classe régnante . Ces séances augmentaient lors de la célébration des fêtes, des mûlids et des festivals .Les califes ordonnaient de dresser les tables et de préparer les repas solennels . Il

Le cinquième chapitre a représenté l'importance de cette étude dans le domaine de Guide Touristique .Quant à la conclusion , elle comprendra les résultats de cette recherche . Cette thèse est accompagnée, aussi, d'une liste des abbréviations et des périodiques. En addition, il s'agit d'une liste onomastique des califes Fâtimîdes , d'une bibliographie et d'un catalogue composé de quatre-vingt dix-sept photos .

Pour préparer cette étude , on a eu recours à plusieurs sources historiques qui étaient composées sous les Fâtimîdes et d 'autres qui furent composés sous les Mamlûks . Il fallait se servir de nombreuses références arabes et européennes ainsi que plusieurs périodes scientifiques .Il était naturel , aussi , de correspondre quelques musées mondiaux en Europe et aux États Unis pour se renseigner sur quelques objets fâtimîdes tels que la céramique à reflet métallique et les plaques d'ivoires qui y sont exposées .

Comme nous l'avons vu bien souvent , déjà , les principaux moyens de divertissement et de distraction chez les Fâtimîdes en Égypte étaient réparties en quatre catégories . On avait vu les différentes sortes de séances, les divers jeux sportifs , la chasse et les jeux de l'esprit ou les jeux calmes .

Il se peut que les Fâtimîdes aient eu recours à d'autres moyens que les sources historiques ne nous avons pas mentionnés . Ces moyens étaient, probablement , fréquents qu'ils n'ont pas attiré l'attention des historiens qui étaient occupés , toujours , à enregistrer les détails de la vie politique du pays.

Grâce à l'activité économique qui avait pris un essor remarquable et dû à la prospérité et l'extension de la civilisation, la ville du Caire est devenue le pôle d'attraction des poètes , des chanteurs , des musiciens et des savants . D'importants travaux d'urbanismes furent réalisés . D'immenses jardins et de superbes vergers furent ouverts au public pour satisfaire sa curiosité .

égyptien . Parmi ces jeux , on note le jeu de polo , la course des chevaux , le duel ou bien la danse aux triques , la lutte , la natation , le tir des flèches en plus des jeux des enfants.

On a traité , au troisième chapitre, l'idée de l'attention accordée par les califes et les hauts fonctionnaires à la chasse des cerfs , des gazelles , des lièvres , des lapins et des oiseaux à l'aide des chiens et des guépards aussi bien que les oiseaux sauvages tels que les aigles , les faucons et les vautours .

Ce chapitre s'attache, aussi, au grand soin prêté à l'élevage des oiseaux et des animaux qui étaient utilisés à la chasse ou bien qui représentaient quelques jeux pour rendre les califes et leurs sujets satisfaits durant leurs loisirs comme la lutte des coqs , les jeux des ours et des singes aussi bien que la représentation des girafes et des éléphants . Ce chapitre a comporté , également , plusieurs renseignements à propos des personnages qui étaient chargées d'entraîner , de dresser les animaux et les oiseaux de la chasse tels que les fauconniers , les guépardiens et les piqueurs de chiens ainsi que les sorciers et les charmeurs de serpents et de vipères .

Le quatrième chapitre a jeté la lumière sur les jeux de l'esprit pratiqués dans la société égyptienne sous les Fâtimîdes , comme les dés qui paraissent être d 'origine persane et qui ressemblent beaucoup à ce qu'on appelle , en arabe , al- nard . Il fut inventé par Ardašîr ibn Bâbik d 'où il est connu sous le nom de nardašîr . Les gens du peuple négligeaient , parfois , leurs travaux pour aller jouer à d'autres jeux de pari tels que le jeu d'échecs et les jeux aux cartes qui étaient , aussi , parmi les moyens de divertissement les plus fréquents sous les Fâtimîdes. Nous ne devons pas omettre de citer que quelques - uns de ces jeux étaient destinés à la classe régnante telle que les vizirs , les émîrs et les notables de la société . D'autres jeux étaient consacrés aux gens du peuple .

dans la société égyptienne , sous les Fâtimîdes , c'est la raison pour laquelle , j'ai opté pour cette idée comme sujet de ma thèse .

Après avoir fondé leur califat à maïrib au cour de l'an 297 H. / 909 , et , après avoir assuré leur puissance en Afrique du Nord , les Fâtimîdes réussirent à conquérir l'Égypte , et ce fut le général en chef de l'armée du calife fatimide al-Mu'izz , Ġauhar al-Saqlabî , qui arriva à Ġîza le 17 Ša'bân 358 H. / 6 Juillet 969 .Ces Fâtimîdes régnèrent en Égypte , deux siècles environ (358 - 567 H. / 969 - 1171) . Durant cette longue période , ils ont réussi à vaincre leurs ennemis et à stabiliser leur pouvoir en Orient . Ce fut la plus grande puissance au monde islamique à ce moment . Ce fut , aussi , l'apogée du progrès politique , économique et culturel. Mais dès le début de l'époque des vizirs , il y a eu des troubles intérieurs et des crises économiques qui allaient mener à la chute de la dynastie en 567 H. / 1171 .

Bien qu'ils aient été occupé par les affaires du pays , les Fâtimîdes avaient entrepris des moyens de divertissement . Ils permirent à leurs sujets de se distraire et d'être fières pour compenser la dureté de leurs responsabilités quotidiennes .

Le sujet de cette thèse est , donc , traité à travers un avant-propos , cinq chapitres et une conclusion . Le premier chapitre a englobé l'étude de différents genres de séances qui avaient lieu aux palais Fâtimîdes comme les séances de littérature et de poésie , de chant , de danse et de musique en plus des beuveries .Ces séances étaient , d'habitude , accompagnées par les représentations des acrobates , des clowns et des ombres chinoises . Les hommes de lettres et les poètes étaient , habituellement , comblés de faveur par la classe régnante durant ces séances .

Le deuxième chapitre a compris l'étude des jeux sportifs qui jouissaient de l'attention des califes Fâtimîdes et du peuple

Al-Gindî, S. S., *Les moyens de divertissement et d'amusement à l'époque fâtimide en Égypte 358 -567 H./ 969 - 1171 ap.J.C.*, Thèse de Magistère dactylographiée, section Guide Touristique, Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie, Université de Hilwân , (Le Caire, 1999).

Par Sîrîn Sâdiq al - Gindî

Le chercheur a essayé de jeter la lumière sur les moyens variés de divertissement et d'amusement qui étaient en vogue , à l'époque fâtimide , en Égypte . Plusieurs sources historiques et quelques documents nous donnent des informations concernant ce sujet. Des objets fâtimides ornés de différentes scènes nous aident , aussi , à savoir quelques - uns de ces moyens d'agrément .

Il est fort intéressant de savoir que ce sujet n'a pas attiré l'attention des chercheurs à l'exception de Ahmad 'Abd al-Râziq qui l'avait abordé, en général , dans son article “ Wasâ'il al-taslîya 'ind al-muslimîn ” , publié en 1985. On ajoute , aussi , l'ouvrage de 'Abd al-Mun'im Sultân “ al-Muğtama' al-misrî fî al-'asr al-fâtimî ” dans lequel il nous mentionne , brièvement , ce sujet .

Signalons, aussi , Mahmüd Ibrâhîm Husain qui avait étudié les scènes concernant les moyens d'amusement à la cour fâtimide dans sa thèse de Doctorat intitulée “ Die Vergnügungen des Hofes und Alltagsleben ”. Citons, en plus , Suma 'Abd al-Mun'im Ibrâhîm qui avait traité les scènes de la chasse - dès l'époque fâtimide jusqu'à la fin de la dynastie mamlûke - dans sa thèse de Magistère présentée , en 1992 , à la Faculté d'archéologie à l'Université du Caire .

À part ces quelques ouvrages ,il n'y a eu aucune recherche exhaustive concernant les moyens de divertissement

II: Book Reviews

centres or the capital, they attest the dynamism of the Byzantine economy at that time and have a bearing on the separate but related question of State finances. Even if the imperial authorities were unable to gain much fiscal benefit from silks exported directly to the West from minor centres such as Euripos or Patras, textiles carried by sea via the Bosphoros to the Rus lands were likely at some stage to pass through their fiscal net. This ambivalence seems to exemplify the effect on central government finances of the growth of regional production centres no longer geared solely to the demand and commands of Constantinople. Ultimately the proliferation of these and the growing allure of foreign markets facilitated political fragmentation but in the shorter term it probably contributed substantially to an increase in the revenues readily at the imperial authorities' disposal. Further work in collating the extant silks in Western church treasuries with the silk materials from archaeological excavations and the written evidence should illuminate this often paradoxical process and shed light on the growth of the Byzantine economy between the tenth and the twelfth centuries.

'Shelkovye tkani v srednevekovoi vostochnoi Evrope' , *Sovetskaia Arkheologiia*, 1982, no. 2, 69. See also M. A. Saburova and M.V. Sedova, 'Nekropol' Suzdalia', in I.P. Rusanova (ed.), *Kul'turai isskustvo srednevekovogo goroda* (Moscow 1984) 121- 7.

right direction. If, as seems to be the case, Thebes was second only to Constantinople in its ability to produce red samite and gold-interwoven silks, and if the attribution of Roger II's coronation mantle to its workshops can be confirmed,¹⁷ the task might prove feasible. Extant examples of medium- and lower-grade silks might also be submitted to investigation although, as Jacoby points out, their survival prospects are poorer than are those of the finest-quality silks¹⁸. Were it to prove possible to distinguish between Greekfinished and Constantinopolitan products, the quantitative data, however crude, would contribute to understanding of the relative roles of the provincial centres and the capital in exporting silks to the West. This would have a bearing on Jacoby's postulate of 'a progressive contraction in Constantinopolitan silk production since the late eleventh century or, at any rate ... [a reduction of] the capital's share in the overall supply of the Byzantine market in a period of rising demand'¹⁹. This is a field where further collation of Muthesius' expertise with Jacoby's analysis would be fruitful.

There is another corpus of extant material, which could be brought to bear on the debate, silks from the lands of the Rus. There, notably in the burial-grounds of the north-eastern settlements, excavations have revealed a considerable number of fragments of strips of gold braid and of monochrome silk; they served as the collars and yokes of garments of relatively well-to-do peasant women. These burials date from the twelfth to the beginning of the thirteenth century - roughly the period of expanding production in Greece highlighted by Jacoby - and the silks are reportedly for the most part of Byzantine origin²⁰. Whether these silks were spun and woven in Greek

¹⁷- See Jacoby, 'Silk', 462 - 4, 483.

¹⁸- Jacoby, 'Silk' 473 - 4.

¹⁹- Jacoby, 'Silk' 498.

²⁰- K.I. Komarov, 'Importnye tkani vo vladimirskikh kurganakh', *Kratkie Soobshcheniia Instituta Arkheologii* 210 (1993) 79, 81, 83 - 4 and map on 81. M.V. Fekhner estimated that 'over 70% of imported silk [found in pre-Mongol Rus lands] is connected with the production of Byzantium's silk-weaving workshops':

to the central administration. Jacoby points out that Thebes' high quality silks were denied to the Genoese and Pisans and 'judging by the evidence pertaining to Alexius III, imperial control over a portion of Theban silk production and trade remained surprisingly strong by 1195'¹⁶. This raises the questions of what proportion of Thebes' silks was reserved by the government for its own uses and of whether all the highest quality silks belonged to this category. One might suppose that a 'high-profile' production centre such as Thebes was relatively easy for the imperial authorities to regulate effectively, and thus that top quality Theban silks remained a governmental monopoly. This would imply that examples found in the West arrived there as diplomatic gifts rather than as traded commodities. In contrast, it may have been fairly straightforward and not unprofitable to put on the market medium- and lower-grade silks, especially those manufactured in other, poorer, production complexes. The latter may have escaped close government scrutiny, being at once less capable of really high-quality product, less fiscally remunerative and more dispersed. It was the easier to avoid taxation on such silks in that much of the carrying-trade was in the hands of the Venetians who, unlike the Genoese and Pisans, were allowed to buy costly textiles. And in Northern Italy the Greek silk-producers were assured of a robust market, accessible yet well beyond the reach of imperial fiscal officials and thus more lucrative than markets within the empire.

To hypothesise thus is, of course, to make large assumptions about the degrees of intrusiveness and venality of government officials in Thebes and the other western provincial centres. Even the highest-quality silks may have found their way from Thebes onto the market in Italy and one will never be able precisely to chart the volume of production in twelfth-century Thebes or the relative importance of government commissions and the internal Byzantine and foreign markets for it. But systematic identification of the extant products of Theban workshops would be a step in the

¹⁶- Jacoby, 'Silk' 492.

they might well exemplify economic expansion, with production of high-quality but not hugely expensive silks opening up in provincial centres.

Attention to economic growth and its periodisation is paid in one of the most recent papers incorporated in Muthesius' Studies¹⁴. But this aspect needs to be integrated more fully with the technical issues of which she shows such mastery. A wide-ranging investigation of the silk industry in Byzantium's western provinces is offered by Jacoby. He points to firm evidence of production on Andros as well as in Thebes and Corinth from the later eleventh century onwards, while noting much earlier hints of the Peloponnese's connections with the silk industry: already in the ninth century its north-western part was known as 'Morea' for its mulberry-trees, when the widow Danelis disposed of weavers and precious textiles of some sort in the neighbourhood of Patras¹⁵. Jacoby emphasises that Theban private manufacturers received commissions from the central administration to make very high-grade silks, dyed with murex purple. However, as Jacoby suggests, this was essentially a twelfth-century phenomenon. Moreover, Thebes seems to have been rather exceptional, benefiting from a particular combination of natural resources, easy communications and the capital and organisational skills of the *archontes*, members of the local landed *élite*. The latter seem to have been the driving force in the formation of a large-scale manufacturing industry, producing for the market. Thebes' elaborate nexus of production ranged from mulberry growing to dyeing with purple produced in Athens.

The quality of Theban fabrics was well-known to Western Europeans and Turks in the twelfth century as well as

¹⁴- Mention is also made there of developments in the provinces in the eleventh and twelfth centuries: 'Constantinople and its Hinterland: Issues of Raw Silk Supply' (27th Spring Symposium of Byzantine Studies, Oxford, March 1993), in *Studies* 315 - 35.

¹⁵- Jacoby reserves Judgements as to whether the *silken* sendes despatched by Danelis to Basil I had actually been made in workshops under her control: 'Silk' 458 - 60; *Vita Basilii*, in Theophanes Continuatus, V.74, ed. I. Bekker (Bonn 1838) 318.

course, this development is just one facet of the general upswing in population-size, economic exchanges and wealth-formation, which Alan Harvey has documented, and Jacoby himself draws attention to it¹². But it is very probable that the silk industry, already possessing close ties with the Islamic world, was peculiarly sensitive to the greater security in eastern border areas and the Aegean which set in from the later tenth century onwards. Muthesius offers evidence of the identity - rather than just similarity - of the techniques of Byzantine and Moslem weavers in changing from single to paired main warp twills from the ninth century onwards and Cairo Genizah documents attest the sale of raw silk to Byzantine merchants in the 1060s and 1070s. A Byzantine presence in Syria, with Byzantine agents reportedly levying taxes on the silks traded in Aleppo, is likely to have further encouraged cross-border exchanges - including, perhaps, migration of craftsmen. One possible witness to burgeoning collaboration comes from the eleventh-century Griffin Silk from St. Trond, whose stylistic features are fairly distinctively Byzantine, but whose use of cotton selvedge points to a Moslem workshop. Muthesius considers Syria to be a possible location for it. A still more significant mark of contacts is what Muthesius calls 'a technical breakthrough', the development of the 'lampas' weave and the related incised twill silks, both types being monochrome¹³. This took place c. 1000 in both Byzantine and Islamic production centres, seemingly without an appreciable time lag between the two milieux. The monochrome silks required a high level of skills to produce, but they did not call for expensive dyes or the dyeing process and this, together with the relatively large number of examples found in the West, suggests that they may have been made in non-imperial workshops. In other words,

¹²- Jacoby, 'Silk' (as in n. 1 above), 452 - 500; A. Harvey, *Economic Expansion in the Byzantine Empire, 900 - 1200* (Cambridge 1989) 148 - 4, 213 - 20. I have not had access to Jacoby's study 'Silk crosses the Mediterranean' (in S. Origone (ed.) *Le vie del Mediterraneo, idee, uomini, oggetti*) reported as 'in press' in *Lexikon des Mittelalters*, VII (Munich 1995) S.V. *Seide*. B. *Byzantinisches Reich*, col. 1709.

¹³- Muthesius, *Studies*, 107, 112, 136, 290; Plate 83.

maintaining a massive over-capacity in its own, imperial workshops. Close collaboration involving a high degree of flexibility in arrangements and mobility of skilled labour is understandable against a background of shortages of raw materials and skills, military insecurity, uncertain communications and a concentration of wealth in Constantinople. Such was, essentially, the empire's condition at the turn of the ninth and tenth centuries, when the *Book of the Eparch* was being drafted.

The collaboration between the imperial authorities and the private sector was wary, at least from the State's viewpoint. But the forementioned constraints weighed against private production rivalling imperial workshops in terms of sustainable quality or becoming very large-scale. There was, above all, the problem of finding a market for one's products and although the *Book of the Eparch's* injunctions against sales outside the City imply that such things were done, they could scarcely have been risk-free or very profitable. Constant, flagrant breaches of the restrictions would have attracted the attention of the Eparch's officials or other functionaries, venal as these may have been. So long as purchasing-power was concentrated in the capital and was more or less directly connected with the palace, an alternative nexus of sericulture and manufacturing far from Constantinople was unlikely to be a going concern. The fact that the main foreign source of raw silk was formally in a state of permanent warfare against Byzantium put a further constraint on illicit private enterprises. The number of authorised trading emporia was small and fairly easily supervisable by the authorities. Those traders attempting evasion risked interception by both Byzantine patrols and Moslem raiders.

One might expect an improvement in the empire's strategic situation and an easing of communications to have lifted some of the foresaid constraints on private silk production outside Constantinople. That this seems to have happened, albeit gradually, is suggested by David Jacoby's study of silk production and trade in what is now Greece. Of

leaves and close liaison was necessary between the providers of the leaves and the rearers of the worms. At the other end of the process, a top-quality piece such as the Aachen Elephant Silk 'required 1.440 manipulations of the pattern making device' for just one roundel (p. 290). Time, as well as skill and equipment was needed for this and sudden shortages of raw materials further increased the risks, while restrictions on prices curbed producers' ability to recoup their losses. To these constraints, noted by Muthesius, needs to be added the question of the strength and geographical location of the demand. The highest-quality silks were very costly indeed and presumably even the lower-grade fabrics came within purchasing range only of the well-to-do. To master difficult skills or to invest heavily in an industry where one did not enjoy fairly constant demand would have been quixotic. There are hints as to the vagaries of the market in the Book of the *Eparch's* stipulation that workmen should be hired by the *metaxopratai* on monthly contracts (*Eparchenbuch*, 6.2; ed. Koder, pp. 96 - 7). Perhaps fluctuating supplies of materials made it imprudent to take on wage-earning workers for long, while the imperial workshops themselves may have needed to take on skilled hands at short notice. These circumstances not only make it overwhelmingly probable that (as Muthesius argues) the highest quality silks were produced exclusively in the imperial workshops; they also suggest that the state was the purchaser of many of the lesser quality textiles woven by the guilds. That such purchases were common is clear from the treatise on the imperial baggage-train's specifications¹¹. The demands some assurance of sales to those engaged in production or trading. On the other hand the State officials could not entirely foresee sudden expenditure needs - gifts of *skaramangia* to buy off menacing Bulgarians or Hungarians, for example. To be able to resort to a market in privately produced or imported silks was therefore highly desirable and it gave the State a keen interest in quality control. It was thereby freed from the cost and organisational strain of

¹¹ - Constantine Porphyrogenitus, *Three Treatises*, ed. Haldon 108 - 9, 112 - 13, 126 - 7; 219, 230 (commentary).

for the production of silks: the number of Syrian merchants resident in Constantinople for ten or more years was substantial enough for provision to be made for them in the *Book of the Eparch*⁹. These were, presumably, distributors distinct from the visiting Syrian exporters who were only allowed three months in the city. Further, the government's ambivalence towards silk produced in workshops not under its direct supervision gains in perspective. As the *Book of the Eparch* attests, the authorities were apprehensive, issuing, for example, injunctions against private production of the 'forbidden' categories of textiles, unauthorised sales to foreigners and covert purchases by raw silk traders on behalf of a '*dynatos* or wealthy man' (*Eparchenbuch*, 6.10; ed. Koder, pp. 98 - 9). But, as Muthesius argues, it was in the state's interest to maintain standards of quality and general order among the silk-producers and to maintain levels of production. The government benefited from taxes on transactions so long as they took place in easily supervisable places. And it needed to draw on the silk supplies and the silk-making skills of the 'private sector'. Hence the *Book of the Eparch*'s note that officials and private persons were permitted to manufacture purple garments of high quality if they were ordered to do so 'for supplies (*choregian*) for the *eidikon*¹⁰'. It may well have been fear of loss of skills rather than of transmission of them to foreigners that underlay the penalty for selling a slave from a silk workshop 'to outsiders or foreigners' (*Eparchenbuch*, 8.7; ed. Koder, pp. 104 - 5). The picture which emerges for the tenth century is one of, essentially, cooperation between the private and imperial sectors, the degree of collaboration being rather higher than the *Book of the Eparch* expressly acknowledges.

This leads to a further consideration. Muthesius rightly lays emphasis on the sheer complexity of silk manufacture: the delicate worms had to be fed on finely chopped mulberry

⁹ - *Eparchenbuch*, 5,2,5; ed. Koder 94 - 7; Muthesius, *Studies* 307.

¹⁰ - *Eparchenbuch*, 8.2; Koder 104 - 5; Lopez, *Industry* 15; (Muthesius, *Studies* 259 - 60, 286.

slaves and also paid workers; these slaves could themselves open workshops⁷.

Some important themes emerge from 'Muthesius' investigations. Firstly, there seems to have been an endemic shortage of raw silk before the eleventh or twelfth centuries. As she points out, much of Asia Minor was unsuitable for growing mulberry trees. While accepting N. Oikonomides' interpretation of the seals of *kommerkiarioi* to the extent 'the seals most plausibly do have a relationship to sericulture', she justly doubts do whether they necessarily attest mulberry growing or silk-worm rearing in all the places mentioned on the seals⁸. In any case, the amount and quality of the silk yarn produced seems to have been unequal to demand. An underlying condition of shortage helps explain the government's interest in trade with Syria, an important region

⁷ - *Eparchenbuch* 8.7, 10, 12, 13; ed. Koder, 140 - 70. Muthesius, *Studies* 285 .

⁸ - Muthesius, *Studies* 323. That *kommerkiarioi* became 'mainly related to silk production' in the seventh century was suggested by N. Oikonomides ('Silk trade and production in Byzantium from the sixth to the ninth century: the seals of *Kommerkiarioi*' *DOP* 40 (1986) 43 - 4). It seems most probable that *kommerkiarioi* then possessed special links with the silk-trade, as they had done in previous centuries. But in an era of demonetisation and slackening economic exchanges their role is likely to have broadened out into one of buying up, selling and stockpiling other valuable manufactures and commodities which became available in their districts, as well as performing a fiscal function. Their functions were probably multiple and variable and they could well have dealt in or accepted as revenue 'agricultural and other primary products', as A. Dunn proposed ('The *Kommerkarios*, the *Apotheke*, the *Dromos*, the *Vardarios* and *The West*, ' *BMGS* 17 (1993) 10). However, it seems likely that their 'depots' (*apothekai*) mostly contained higher-value commodities rather than run-of-the-mill, perishable, agrarian produce. The high insecurity and need for constant improvisation of the mid-seventh to mid-ninth-century provinces will have created an acute need for regional stores of valuables and related supply networks under the care of officials who had some competence as valuers of, and dealers in, them. The *kommerkiarioi* could well have performed the role of local 'fix-its', having powers to buy up valued manufactured goods as they came on the market, to commission production of them, to tax and also to sell or dispense them gratis, according to circumstances. Silks, being highly valued and highly portable, would have ranked prominently but by no means exclusively among these 'big ticket' commodities and instruments of manipulation. See the critique of Oikonomides and comparable suggestions made by J.F. Haldon, *Byzantium in the Seventh Century. The Transformation of a Culture* (Cambridge 1990) 232 - 4.

reconstructed drawloom . Data on the raising of the worms has been adduced from Chinese sources, notably the twelfth-century *Geng Zhi Tu*. Muthesius' scope extends beyond the finished products to the uses to which they were put. She underlines the similarities of usage in the Christian East and West, arguing from abundant evidence that the eighth - and ninth-century papacy seems to have played a key role in displaying, distributing, and arousing Western appetites for, eastern silks.

Muthesius' expertise gives weight to her reappraisal and redating of a number of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlin' number of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlin Dusseldorf' Imperial Lion Silk, which should probably be re-assigned to the co-emperorship of Basil II and Constantine VIII from that of Basil I and his son Constantine . From a different perspective, she rebuts the estimate of raw silk yield in Calabria made by the editor of the sole text to specify the location of mulberry plantations in the Byzantine lands: it 'seems one hundred times too great' and may exaggerate the importance of Southern Italy as a source of raw silk for Byzantium⁵. Muthesius also casts doubt on some general conclusions drawn about the organisation of silk production from the *Book of the Eparch*. It is highly unlikely that the *serikarioi* could personally have engaged in preparing the raw silk and dyeing it as well as weaving⁶. For the degumming process alone occupies one man and perhaps an assistant, while the boiling of the gum creates dirt incompatible with the high standards of cleanliness required in a weaver's workshop. Muthesius suggests that the *serikarioi* were 'factory owners with a series of workshops' rather than manual workers. This suggestion is compatible with the evidence of the *Book of the Eparch* that the *serikarioi* had

⁵ - *Le brebion de la metropole byzantine de Region (vers 1050)*, ed. A. Guillou (Corpus des actes grecs d'Italie du Sud et de Sicile 4) (Vatican City 1974) e.g. 17 - 33, 63 - 70; cf. Idem, 'production and profits in the Byzantine province of Italy (tenth to eleventh centuries) : an expending society', *DOP* 28 (1974) 92 - 5, repr. in his *Culture et societe en Italie byzantine (VI-XI s.)* (London 1978), no. 13.

⁶ - As proposed by D. Simon 'Die byzantinischen Seidenzunft', *BZ* 68 (1975) 34.

starting with some heroic feats of cataloguing. A catalogue of 120 silks found in the West has been prepared, together with a handlist of many other examples, including some related Islamic ones. She had to prepare her own preliminary catalogues of the contents of major holdings such as Sens Cathedral Treasury, in default of detailed local catalogues, and this led to important acts of identification. Thus she tracked down the famous Siegburg Loin silk, falsely supposed to have been destroyed during the Second World War. Such feats highlight the fact that the lack of a corpus of surviving silks has been a serious weakness of Byzantine studies as a whole and the imminent publication of the forementioned full catalogue is to be warmly welcomed³.

Mutherius' technical expertise has enabled her to determine the likely origins of silks by the nature of their weaves. There are limits to this method: Byzantine and Islamic workshops favored some identical types of twill in the ninth to twelfth centuries, as we shall see below (p. 253f.). Even so, certain techniques were characteristic of particular regions, for example, grège - textiles with silk threads which had not had their coating of gum removed and which had not been twisted. Detecting these traits in the Lion Silk of St. Servatius, Maastricht, Muthesius proposes Central Asia as the likely place of manufacture: the manufacturers may have been imitating an authentic Lion Silk, made in imperial workshops. Her suggestion is very plausible, seeing that imperial interest stretched as far as Central Asia and guardsmen from Ferghana played a part in tenth-century palace ceremonial⁴. Muthesius' familiarity with all the technical aspects of silk production reaches back to the grub, which makes it possible. She has studied the organisation and methods of silk workshops in modern Indian villages and paid close attention to the looms, to the point of attempting to weave textiles from a

³- A. Muthesius, *Byzantine Silk Weaving A.D. 400 to A.D. 1200*, J. Koder and E. Kislinger (eds.) (Vienna, forthcoming).

⁴- Constantine Porphyrogenitus, *De cerimoniis aulae byzantine*, II. 15, ed. I.I. Reiske, I (Bonn 1829) 576 .

use as, for example, chasubles, wrappings of relics, cushions and bindings of Gospel-Books². But it is worth noting that the numerous examples of Silks, Fragmentary or more less whole, found in Church treasuries probably represent only a small fraction of those originally sent to Western Europe. Many ended up in lay hands and those of top quality would often have been put on display, probably retaining something of their original form. To that extent they were likely to impress more foreign beholders, and to be more readily comprehensible as imperial Byzantine products, than were other items, including gold and silver coins. The value of silks to the emperor in terms both of domestic patronage and diplomatic gifts is indicated by Constantine VII'S treatise on imperial expeditions. It provides for various types of silken garments and cloths, specifying which sorts were brought 'for distinguished refugees and for sending to distinguished and powerful foreigners'³. That all this effort made its mark was inferred by R.S. Lopez; the borrowing of Byzantine ceremonial by the Western rulers is the best acknowledgement of Byzantine "hierarchy through clothing"³.

Lopez's classic study might have been expected to prompt many publications on aspects of Byzantine silks. Yet this did not happen. As the late John Beckwith observed, 'the study of medieval woven textiles is highly complex and is, perhaps, the most difficult discipline in the entire field of art history', in that it calls for competence in the art of weaving, ability to read inscriptions in Coptic, Greek, Latin and Arabic and wide-ranging historical knowledge. For some time after Beckwith made this remark textiles continued to be appraised primarily in terms of iconography and style. But Anna Muthesius has taken a major step towards the kinds of interdisciplinary investigation for which Beckwith appealed,

² - A. Muthesius, *Studies in Byzantine and Islamic Silk Weaving* (London 1995) 21 - 4, 29 - 30, 36 - 42, 77 - 80. See also Jacoby, 'Silk' 473. The celebrated Gunthertuch, a huge silk originally measuring 210cm by 260cm and showing a triumphant emperor, was re-used intact as a bishop's shroud, most probably just after its arrival in the West: G. Prinzing, 'Das Bamberger Gunthertuch in neuer Sicht', *BS* 54 (1993) 219 - 20 and n.8.

Silks, skills and opportunities in Byzantium : some reflexions

Jonathan Shepard

Faculty of History, Cambridge University

Silks gave visible form to Byzantium's political culture and, being light to carry, could circulate widely. Many of the garments issued to recipients of offices and titles were made of silk and the *Book of the Eparch* takes for granted the close connection between imperial prerogatives, silken vestments of various shades of purple and restrictions, on foreigners access to them¹. Through whetting appetites for silks and maintaining a monopoly over the finest quality products, the emperor could hope to arouse in his own subjects and foreigners alike the desire to gain them through some form of 'Servia'. These 'class' when cut up into pieces. That products simultaneously expressed his wealth, superior knowledge and - by the symbols on them - the antiquity and unsurpassable legitimacy of his rule.

Gold and silver coins could likewise attest these qualities, but they were easily melted down and re-used as ornaments or for other purposes unrelated to the emperor. Large-scale sumptuous silks manufactured in imperial workshops and the silks bestowed as vestments on title-holders and others in favor might appear less likely to be re-used in a form which wholly effaced their origins. The former category of silks tended to bear characteristic marks of imperial authority such as eagles; the latter lost 'class' when cut up into pieces. That re-use and fragmentation did in fact often occur after the silks left Byzantine soil is shown in Anna Muthesius' collection of studies. She discusses their eventual

¹ - *Das Eparchenbuch Leons des Weisen*, 4.1, 3, 4; 8.1, 2; ed. J. Koder (Vienna 1991)" 90 - 3, 102 - 5. See also D. Jacoby, "Silk" in *Western Byzantium before the Fourth Crusade* BZ 84/85 (1991 - 92) 456 - 7. Now repr. in Jacoby's *Trade. Commodities and Shipping in the Medieval Mediterranean* (Aldershot 1997), no. 7.

I : The Papers

The Contributors

- Abdul-Hamid, R., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Fatah, S., Demonstrator of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Karim, N., Associate Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Al-Mnoufia University, Egypt.
- Al-Gindi, S., Assistant Lecturer of Islamic Civilization, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Al-Tahry, A., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts and Humanities, Al-Mohammadia University, Morocco.
- Atya, H., Assistant Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Tanta University, Egypt.
- Gonzalez, V., Lecturer in History and Aesthetics of Islamic Art, Marsille, France.
- Iskander, F., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Benha University, Egypt.
- Ismaiel, M., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Magani, B., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Mentory University, Constantina, Algeria.
- Mohammed, T., Associate Prof. of Byzantine History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Shepard, J., Prof. of Medieval Russian History, Faculty of History, Cambridge University, Britain.

II: Book Reviews

- Franklin, S., and Shepard, S., *The Emergence of Rus' 750-1200*, (London, 1996). by Tarek M. Mohammed)193-196
- Al-Waqad, M., *Jews in Mamluk Egypt in the light of Geniza*, (Cairo, 1999). By S. Abdel-Fatah)197-201

Part II: The Foreign Section

I: The papers

- Shepard, J., Silks, skills opportunities in Byzantium: some reflexions.....2-16

II: Book reviews

- Al-Gindi, S., *Les moyens de divertissement et d'amusement à l'époque fatimide en Égypte 358-567 AH./969-1171 AD*, (Unpublished MA Thesis, Faculty of Tourism and Hotels, Helwan University, 1999. by S. Al-Gindi.....18-25
- Grabar, O., *Penser l'art islamique, une esthétique de l'orient*, (Albin Michael, 1996). by V. Gonzalez . 26-31

Contents

- The Contributorsهـ
- Prefaceط-ر

Part I : The Arabic Section

I : The Papers

Abdul-Hamid, R., Al-Amir Fakhr El-Din Ibn-al-Shaikh in the Court of History.....	103-154
Abdel-Karim, N., The Role of Egypt in Africa from the Arab Conquest until the End of Viceroy's Period 27- 184 AH./ 647-800A.....	164-182
Al-Tahry, A., One of the Beginnings of Realities' System in Islamic West, the Status of Land in <i>Bilad Nikour</i>	2-9
Atya, H., The Council of Nablus 23 rd January 1120 AD. and the Conditions of the Kingdom of Crusade Jerusalem.....	35-68
Iskander, F., Al-Ashraf Khalil Ibn-Qalawn and the Conquest of <i>Qal'at Al-Roum</i> 16 th June 1292 AD. /11 th Rajab 691 AH.....	69-102
Ismail, M., The Policy of Bayids State towards the Status of Agricultural Lands 334-448 AH.....	155-163
Magani, B., The Intellectual Attitude of Ismaili in its Morocco Period 260-362 AH. /909-973AD.....	10-34

Journal of Medieval and Islamic History

**Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Dept. of History, Faculty of Arts, Ain Shams University
Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566**

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially

Byzantine and Islamic History.

- Editor-in-chief: *Prof. Raafat Abdul-Hamid*
- Chairman: *Prof. Ahmad Abd al-Raziq*
- Members: *Prof. Issac Ebied*

Prof. M. Ismaiel

Dr. Tarek Mansour Mohammed

Secretary: *Mr. Abdul-Aziz M. Ramadan.*

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow:
Text's size is 12,5 x 19,5 cm.;
Text's fonts are 12 New Times Roman and 14 Traditional Arabic for the Arabic papers.
Footnotes font is 10;
Main titles font is 16 Bold.
- Correspondences: Editor-in-chief: *Prof. Dr. Raafat Abdul-*

Hamid or *Dr. Tarek Mansour Mohammed.*

on the following address: Department of History,
Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya,
Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202-
2854079. E.mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk

Journal of Medieval and Islamic History

**An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies
(JMIH)**

**Volume I
Pt. II
The Foreign Section
2000-2001**

**Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History, History
Department, Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo,
Egypt, Postal code 11566.**

**Publisher: Misr el-Arabia
13A Islam St., Hammamat Al-Koubba,
Cairo, Egypt.**

Journal of Medieval and Islamic History (JMIH) Volume 1 / 2000 -2001

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies. Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, History Department , Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt

